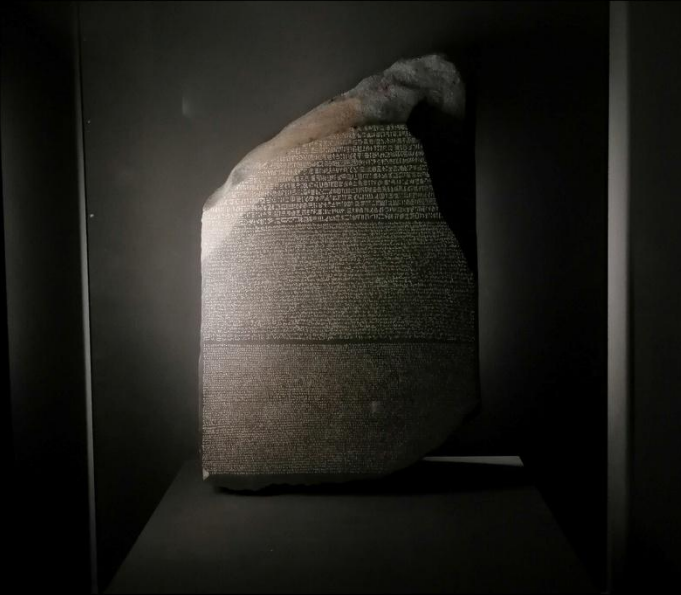


النهب الكبير

الجزء الثاني - حملة مصر



روبير كازانوفاس

رواية تاريخية



ملخص

النهب الكبير – الجزء الثاني: حملة مصر (١٧٩٨-١٨٠١)

الجزء الثاني من ملحمة تاريخية في أربعة مجلدات مكرسة لعمليات النهب البابليونية، تروي هذه الرواية أعظم حملات النهب وأكثرها إثارة للدهشة: الحملة على مصر. في التاسع عشر من مايو ١٧٩٨، أبحر أسطول من ثلاثمائة وخمسين سفينة من ميناء طولون. على متنه ثمانية وثلاثون ألف جندي ومئة وسبعة وستون عالما، وجهتهم سرية، ومهمتهم سرية أيضا، لكن في مواجهة العامة وحدهم. يسمى برتوليه هذا المشروع في مذكراته الخاصة «عملية اقتناء»، فيما يسميه بونايرت «بعثة علمية». كلا الاسمين وجهان لحقيقة واحدة تتبعها الرواية خطوة بخطوة، من الاستيلاء على مالطة إلى شواطئ النيل، وصولا إلى ورشات باريس حيث سيولد كتاب وصف مصر. عبر دفاتر دونون ومسوحات جومار ومرطبانات جوفروا سانت هيلير وصمت برتوليه، تتكشف الآلية الداخلية للنهب المستنير: جمال الإيماء العالمية وعنف الغارة التي تخفيها. وفي الهوامش، بدون حسن – المترجم والشاهد والذاكرة – ما لا يكتبه رجال المعرفة. في نهاية الرحلة، يبقى سؤال معلقا دون إجابة: ما الفرق بين أخذ شيء وأخذ صورته؟ حجر رشيد في لندن، واللوحات النقشية في باريس، أما مصر فتبقى على صفحته نهرا.

عن المؤلف

روبير كارانوفاس، الذي سبق له نشر «العرفة المسروقة» و«الوصية كانت مزورة» و«النهب»، أستاذ فخري حائز على درجة الأجرجاسيون، وعضو في جمعية أهل الأدب الفرنسية، وهو حقوقى يحدوه شغف عميق بتاريخ المجموعات الفنية، كرس سنوات طويله لدراسة مصادرة الدول للأعمال الفنية، ويوصفه رئيسا لمنظمة «الاسترداد الدولية» غير الحكومية، أصدر أعمالا أكاديمية عديدة في هذا الموضوع.



النهب الكبير
رواية تاريخية في أربعة أجزاء

روبير كازانوفاس

casanovas@hotmail.com

ISBN : 978-2-488999-78-6

الإيداع القانوني أبريل 2026 - كتاب إلكتروني ونسخة ورقية

© 2026 كازانوفاس. جميع الحقوق محفوظة

www.international-restitutions.org

الغلاف: نسخة بالحجم الحقيقي من حجر رشيد مدرجة في مسرح بصري، في متحف شامبوليون
بمدينة فيف (إيزير، فرنسا)
17 يوليو 2022 - جوليان بيتار



النسخة العربية
الجزء الثاني
1801-1798 - حملة مصر
الطبعة الثالثة مراجعة ومصححة

للمؤلف نفسه:

الغرفة المسروقة (رواية تاريخية)

الوصية كانت مزورة (رواية تاريخية)

النهب (رواية تاريخية)

النهب الكبير - الجزء الأول - ولادة المنظومة (رواية تاريخية)

تنبيه

هذه الرواية خيال تاريخي قائم على أبحاث حقيقية. جميع الأعمال المذكورة فيها أخذت فعلاً إبان الفتوحات الفرنسية بين عامي 1794 و1813. أغلب الشخصيات وُجدت بالفعل. وبيروي مجرى الأحداث وقائع حقيقية موثقة. ولمقتضيات السرد، قد تكون بعض الشخصيات والمشاهد والحوارات من نسج الخيال. النسخة الأصلية من الرواية، المكتوبة بالفرنسية، تُرجمت إلى عدة لغات أجنبية. وقد تحتوي النسخ المترجمة على أخطاء لغوية أو أخطاء في فهم المعنى أو تقرّيبات.

فهرس المحتويات

الجزء الثاني

الفصل الأول: الشرق تحت السلاح

الفصل الثاني: الصعود في النيل

الفصل الثالث: زمن العلماء

الفصل الرابع: الانهيار والعودة

النهب الكبير رواية تاريخية في 4 أجزاء

الجزء الثاني - حملة مصر (1798-1801)

الفصل الأول: الشرق تحت السلاح

1 - من طولون إلى مالطا

في صباح 19 مايو 1798، التقت كلود لويس برتوليه من رصيف طولون قطعة من حبل مطليّ بالقطران وقرّبها من أنفه. وكان حوله أكثر من ثلاثمئة سفينة تستعدّ للإبحار وسط ضحيج السلاسل وصيحات الأوامر.

فاحت من الحبل رائحة قطران الصنوبر الإسكندنافي وملح البحر المتوسط وشيء آخر لم يتبيّن على الفور. ربما رائحة نباتي، لعلّه صمغ المستكة من خيوس. أعاده إلى جيبه ليحلّله على متن السفينة. كان الرصيف يهتزّ تحته. وكانت هذه الرائحة تذّكره ببيل بايزي.

في عام 1796 أرسله بونابرت إلى إيطاليا مع غاسبار مونج. كانت مهمّتهما أن يحدّدا في مجموعات الأمراء الإيطاليين ما يستحق أن يُنقل إلى اللوفر. جابا قصور ميلانو وبولونيا وروما، يدوّنان العناوين والأبعاد. ثم سافرت اللوحات في صناديق، كلّ منها في إطارها المنفصل، ملفوفة في أعطية. وصل بعضها متضرّراً. وبعضها الآخر لا.

لم يجد ذلك عسيراً. كان علماً تطبيقياً: تحديد قيمة الشيء، وتأمينه، ونقله. المنطق نفسه هنا، مع أشياء أخرى. كان يعلم ذلك منذ البداية. ستنتج هذه الحملة ما أنتجته حملة إيطاليا، ولكن على نطاق أوسع. ما كان بونابرت يسمّيه حملة علمية، كان برتوليه يسمّيه في مذكراته الخاصة عملية استحواذ. وكانت الكلمة الثانية أدقّ.

الفرق هو مصر. كان في إيطاليا جامعو تحف وأسواق وأسعار. وكان في مصر مقابر مختومة منذ ثلاثة آلاف عام.

وعلى سطح «لوريان»، السفينة الأميرالية ذات المئة والعشرين مدفعاً، كان بونايرت يراقب الأسطول وهو يتحرك. أما وجهته فكان الرجال يجهلون.

كان مونج يخطّ معادلات على غلاف دفتره بينما تتاور السفن. لم ينظر إلى الرصيف. فمونج لم ينظر قطّ إلى ما لا يمكن حسابه.

وفي الأسفل، في الطابق السفلي «ج»، كان إدم فرانسوا جومار يمدّ خيطاً بين بكرتين ليقس طول ممرّ. لم يكن قد مضى على تخرّجه من البوليتكنيك سوى ثمانية أشهر، وكان يغادر فرنسا للمرة الأولى. أشار الخيط إلى ثلاثة أمتار واثنتين وستين سنتيمتراً. ضرب القيمة المعروفة ذهنياً في عدد الممرات التي أحصاها، واستخلص منها تقديراً لطول السفينة بهامش خطأ لا يتجاوز مترين.

أما جان باتيست فورييه، عالم الرياضيات ذو الثلاثين عاماً، الأستاذ في المدرسة البوليتكنيكية، فقد استقرّ في قمرة على السطح العلوي مع كومة من الأبحاث حول المعادلات الجبرية لن يفتحها طوال الرحلة. لم يكن ما حسم قراره بالإبحار هو العلم الميداني — إذ لم تكن له به أي خبرة — بل احتمال أن يجد حضارة بأكملها تنتظر القياس.

تأمل دومينيك فيفان دونون الأفق الفارغ طويلاً.

في قمرته الضيقة، كان يرتّب عدّته للمرة الثالثة منذ الصعود إلى السفينة. دفاتر الرسم أولاً، مصنّفة بحسب القياس. ثم أقلام الفحم في علبتها الجلدية. والريش، والأحبار السوداء وحبر السبب، والفرشاة بمختلف أحجامها في لفافة من القماش. كان يعرف هذا الترتيب عن ظهر قلب — لكل أداة مكانها، ولكل مكان وظيفته — كما يعرف النحوي لغته. لا ليتكلّمها، بل كي لا يفقدها أبداً. وكانت إعادة ترتيبها تمنحه إحساساً بأنه يتحكّم في شيء ما. لم يكن لمصر بعدّ شكل في ذهنه. أما عدّته فكان لها شكل. فكّر: إن ساء كل شيء آخر، فسأجد على الأقل أدواتي مرتّبة. وكان هذا على الأرجح تعريف العمل الجادّ. أن تبدأ بما يمكنك التحكّم فيه.

جنّده بونايرت برسالة من عشرة أسطر: سترسمون الآثار. وكفاه ذلك. قبل دون أن يسأل أين ولا متى ولا في أي ظروف.

استغرق الأسطول عدة ساعات في الخروج من المرفأ. ومن الشاطئ كانت النساء يبكين والأطفال يلوحون بمناديلهم. رأى دونون الشاطئ يبتعد.

— هل تخاف؟ سأله جومار.

— لا. أنا متلهّف. الأمر مختلف.

بينما كانت السفن تبلغ عرض البحر، رسم وجه بونايرت جانبياً وقد أضاءه نور الصباح. وسيظهر هذا الرسم بعد سنوات في الطبعة الأولى من كتابه/الرحلة.

كانت الرحلة من طولون إلى مصر تستغرق أكثر من شهر، مع توقف في مالطا. وعبر الأسطول البحر المتوسط محافظاً على تكتّم نسبي أثناء الملاحه، متفادياً نلسون بالمصادفة بقدر ما كان بالانضباط. ولم تكن الإسكندرية أول ميناء يقصده. في الأيام الأولى كان البحر هادئاً. فغزا العلماء الأسطح، يُخرجون آلاتهم ويأخذون القياسات ويدونون اتجاه الرياح. كان جومار يحسب سرعة الأسطول بعدّ العقد. وكان علماء الطبيعة يصطادون العيّات بالشباك. وكانت دفاتر دونون تمتلئ بالرسوم. الأشرعة المنتفخة، وهياكل السفن القائمة، والضوء المتغير على الماء. لم يكن يحسن رسم البحر كما يحسن رسم الآثار، لكنه حاول. وكان الجميع يحاول. أما بونابرت فكان يقضي أيامه في القراءة. فقد حمل معه مكتبة ميدانية انتقيت بعناية فائقة. حملات الإسكندر، وتعليقات قيصر، وتاريخ بوليبيوس، وروايات الرحالة العرب عن مصر. كان يقرأ بسرعة، يثني الصفحات، ويدون على الهوامش بخط متراص. وفاجأه مونج ذات صباح وهو يعيد قراءة سرد رحلة فولني إلى سوريا ومصر، الذي نُشر قبل أحد عشر عاماً.

— فولني متشائم، قال بونابرت دون أن يرفع عينيه. لم ير سوى الانحطاط. أما نحن فسنرى المنابع.

أغلق بونابرت الكتاب ووضعه على ركبتيه. وأدرك مونج شيئاً مميزاً: بونابرت لم يكن يقرأ ليعترض عليه. كان يقرأ ليجد سوابق لما يريد فعله أصلاً. كانت مكتبة «لوريان» مؤسسة قائمة بذاتها. فقد أعدّها بونابرت كأنها أكاديمية صغيرة عاتمة. جلسات قراءة بصوت عالٍ في المساء، ومناقشات حول الكتب المحمولة، وسجلات حول التاريخ القديم لمصر. وكانت هذه الأمسيات تجمع حول مائدة القمرة الكبرى كبار العلماء والضباط المهتمين بالأدب. كانوا يقرؤون هيرودوت، ويناقشون ثوقيديدس، ويتجادلون حول أسباب سقوط روما. وكان بونابرت يترأس الجلسات ويتدخل كثيراً، مبدئياً ثقافة تاريخية حقيقية أثارت إعجاب أساتذة المعهد.

— السؤال الذي يشغلني ليس لماذا تموت الحضارات. بل لماذا تدوم. لقد دامت مصر ثلاثة آلاف عام. ما الذي يجعل دولة مستقرة إلى هذا الحد طوال ثلاثة آلاف سنة؟

طرح فورييه فرضية عن انتظام فيضانات النيل وإمكانية التنبؤ بالمحاصيل. كان يحب الأمثلة التاريخية لأنها تمنح الأفكار المجردة ثقل الزمن. آلاف السنين من الفيضانات المنتظمة: كان ذلك برهاناً لا تستطيع الرياضيات وحدها أن تقدمه. وما كان يهّمه في مصر، قبل أن يبلغها، هو هذا بالتحديد: حضارة حلّت مشكلات معقدة — الريّ والعمارة والفلك — من دون الجبر الذي يدرّسه لطلابه. فقد سبق الحلّ

النظرية. كان ذلك مقلقاً ومثيراً في آن. وتحدث برتوليه عن تركّز السلطة في إدارة مركزية. وردّ دونون بأنه لا يعرف، لكنه يأمل أن يجد عناصر الجواب في الآثار. مال بونابرت نحو برتوليه.

— في إيطاليا، تفاوضنا مع الأمراء. أما هنا فلا أمراء. لا شيء سوى مقابر وآثار لا يدّعيها أحد. وما سنأخذه لم يعد له مالك حيّ منذ زمن طويل. وهذا فرق كبير. أجاب برتوليه بأن غياب الملك الحيّ لا يعني غياب الملك. لكنه قالها بصوت خافت، وكان بونابرت قد استأنف كتابه. أبقى برتوليه عينيه على لهب المصباح لحظة أخرى. كان يعلم — منذ البندقية، ومنذ ميلانو — أن الكلمة العادلة والكلمة النافعة ليستا دائماً واحدة. لم يكن بونابرت يطلب رأيه. كان يطلب منه أن يصادق على خلاصة استخلصت من قبل. وكان هذا ثمن الحملة، وقد قبله برتوليه حين صعد على متن «لوريان».

في اليوم العاشر، تغيّر الطقس. اضطرت رياح شمالية غربية الأسطول إلى تعديل مساره. ففترقت السفن قليلاً قبل أن تتجمع من جديد بأوامر الأميرال برويس. مرض جنود، ومرض عدة علماء أيضاً، منهم مونج الذي أمضى يومين مستلقياً في سريره، شاحباً صامتاً، وإلى جواره وعاء في متناول يده، عاجزاً عن فتح كتاب للمرة الأولى منذ سنوات. وكان من يعرفونه يدركون أن هذا الصمت يعادل اعتراضاً. فمونج المريض لا يشكو. كان ينتظر، مستسلماً، أن يتفضل جسده باستئناف العمل. واصل دونون رسومه من السطح، لا يصيبه دوار البحر. كان البحر بلون أزرق لم يره قطّ في اللوحات. أزرق غني، يكاد يكون عدوانياً، لا صلة له بمناظر كلود لورين البحرية. كان تصوير هذا الأزرق يقتضي طريقة أخرى في رسم البحر. ولم يفعل ذلك أحد من قبل.

بقي سؤال الوجهة طويلاً بلا جواب.

كان بونابرت قد ورّع على الضباط تعليمات مختومة لا تُفتح إلا في عرض البحر. وكان الجنود يتكهنون. كانت تُسمع أكثر الأسماء تنوعاً: إنجلترا، والبرتغال، وأيرلندا، والأنتيل، ومالطا، والهند. وكان بعضهم، وهم الأكثر اطلاعاً، يهمس باسم مصر، لكن هذا الاسم بدا بعيداً إلى هذا الحد وغير محتمل، حتى إن قلة تجرأت على تصديقه. وفي ذلك اليوم اشتدّت التكهنات.

وفي اليوم التالي، ألح بونابرت لكبار ضباطه إلى الوجهة. مصر. الساحل الأفريقي للبحر المتوسط. النيل، والأهرامات، وفيافي الصحراء الكبرى، وأطلال طيبة ومنف. وانتشرت الشائعة بسرعة بين العلماء. واختلفت ردود الفعل بحسب مزاج كل واحد وما يخشاه أكثر. فكّر برتوليه على الفور في الدلالات الكيميائية لمياه النيل وفي خصائص النظرون المصري. وأجاب مونج، وكان ما يزال يتعافى من دوار

البحر، ببساطة بأنه يأمل أن يجدوا ماءً صالحًا للشرب. أما جومار فلم يسأل عن شيء. أغلق على نفسه قمرته وقضى ساعتين يعيد قراءة ملاحظاته عن نُظم الريّ القديمة. كان يفضل أن يفهم ما سيراه.

أخرج دونون هيرودوت من حقيبتة. وافتح الكتاب من تلقاء نفسه عند ذكر الأهرامات. فالتجديد عاداته، كما لدونون عاداته. تصفح وصف بحيرة موريس، ومتاهة هواره، وأهرامات الجيزة كما رآها الرحالة الإغريقي قبل خمسة قرون من ميلاد المسيح. كان ألفان وثلاثمئة عام تفصل هيرودوت عن تلك اللحظة. أما الأهرامات فما زالت هناك. أغلق دونون الكتاب دون أن يضع علامة في الصفحة. فلمكان سيتذكّر وحده.

وبعد أن مرّ الأسطول بمحاذاة ساحل صقلية على مسافة حذرة، اتجه نحو الجنوب الشرقي. كانت الشمس تشرق أبكر وتتأخر في الغروب. وكانت الحرارة ترتفع، منذرة بخطوط العرض التي تنتظرهم. وكان جنود لم يغادروا شمال فرنسا قطّ يتأملون الأفق بفصول يمازجه توجّس. وكان هذا البحر عند كثيرين منهم هو حافة العالم المعروف.

كانت ليلة اليوم الثامن عشر أجمل ليالي الرحلة كلها. ليست الأكثر لطفاً — فقد كان الهواء لا يزال يحتفظ بحرارة النهار ورائحة القطران والملح — بل الأصفى. سماء بلا غيوم، وقمر في تربيعة الأخير طلع منذ قليل، يضيء بنور بارد دقيق، كأن أحداً وضع فانوساً على الأفق. وكانت أشرعة الفرقاطات البيضاء تلمع كأنها ورق مبلّل. وكانت هياكل السفن الحربية السوداء ترسم ظلالاً واضحة على الماء الساكن. لم تكن الأمواج تُسمع إلا بالكاد — سوى صرير الصواري البطيء، وخفق الأشرعة المكتوم وهي تبحث عن الريح — ومن بعيد جداً شيء يمكن أن يكون صوت إنسان أو صيحة طائر ليلي.

جاء بونابرت إلى دونون نحو منتصف الليل. كانت عادة اتخاذها منذ صعوده إلى السفينة. جولات ليلية على السطح، منفرداً أو يكاد، بينما ينام ضباطه. اتكأ على حاجز السفينة دون أن ينبس بكلمة وقتاً طويلاً.

— أنت ترسم في الليل أفضل مما ترسم في النهار.

— الليل يحذف التفاصيل التي لا حاجة إليها. فلا تبقى إلا الأشكال الجوهرية. وهذا أكثر صدقاً. لا جديد. كل شيء قد رُئي من قبل. لكن لا شيء رُسم بدقة بعد. يصف هيرودوت الأهرامات دون قياسات. ويذكرها سترابون دون أن يفهمها. وما أريد فعله هو أن أعود بصور لا يمكن أن يقال عنها إنها تقريبية.

هزّ بونابرت رأسه. كان ذلك أسلوباً في التفكير يفهمه. وعلى البعد، عن يسار السفينة، كان يُبَيَّن خط داكن قد يكون الساحل الصقلي أو كتلة غيوم منخفضة. ولم يسأل أيّ منهما ضابط المناوبة عن حقيقته.

في تلك الليلة نفسها، على بُعد أيام من الإبحار نحو الغرب، كان أسطول نلسون يبحث عن الأسطول الفرنسي دون أن يعرف مكانه. أسطولان، وبحر واحد، وبينهما العتمة. ولو هبّت الرياح على نحو آخر لغرق كل ما سيحمله دونون في دفاتره مع السفن. وما سيمضي أو لن يمضي لن يتوقف على الرجال وحدهم. بل سيتوقف أيضاً على الرياح.

في 9 يونيو، بعد ثلاثة أسابيع من الإبحار، ظهرت السفن الفرنسية أمام فاليتا. كانت جزيرة مالطا، التي يحكمها منذ عام 1530 فرسان القديس يوحنا الأورشليمي، تحرس مدخل البحر المتوسط الشرقي بحصونها المشهورة بأنها منيعة.

استدعى بونابرت كبار جنرالاته والعلماء أمام الأسوار.

— صمدت هذه الأسوار أمام أربعين ألف تركي عام 1565. لكن الفرسان الذين يدافعون عنها اليوم شيوخ ومنقسمون ومفلسون. لسنا بحاجة إلى اقتحامها. نحتاج فقط إلى الانتظار.

تدخّل الجنرال لويس ديزيه، الضابط ذو الملامح الزاهدة الذي كان يقود إحدى فرق الجيش.

— أيها الجنرال بونابرت، هل معلوماتكم عن الانقسام الداخلي في الرهينة موثوقة؟ — فرسان مالطا منقسمون إلى فصائل متناحرة. والأستاذ الأعظم ضعيف. لن يقاتلوا. سندخل عمّا قريب.

رأى مونج أن عليه أن يطرح سؤالاً.

— أيها الجنرال، ما المبرر الذي ستقدّمونه لمهاجمة مالطا وهي ليست في حرب مع فرنسا؟ إن رهينة القديس يوحنا مؤسسة ذات سيادة معترف بها دولياً منذ زمن بعيد. ألا يُخشى أن يثير هذا العدوان ردود فعل دبلوماسية سلبية، ولا سيما من البابا والقوى الكاثوليكية الأوروبية؟

— مونج، يا صديقي العزيز، أنت عالم رياضيات. احسب كم من الوقت نستطيع الصمود في مصر إذا قطع الإنجليز طرقنا. مالطا هي المزلاج. أما المبرر الدبلوماسي فليس من شأنك. مرافقي يتولى ذلك. سكت مونج. لقد أدرك الحدّ.

تم الإنزال في وقت واحد في عدة نقاط من الجزيرة، فباغت المدافعين. واستمرت المقاومة ثلاثة أيام. واستسلمت مالطا في 12 يونيو.

كشف الجرد عن كميات مذهلة من المعادن الثمينة، تكفي لتمويل عدة أشهر من الحملة. وجمال دونون في قاعة الكنز الكبرى التي كان المفوضون يجردونها صندوقًا صندوقًا.

كانت ثروة الفرسان نقدية في المقام الأول: سبائك فضة وقطع ذهبية وأواني كنسية مصوغة. ثلاثة إلى أربعة ملايين فرنك بحسب تقدير برتوليه.

لكن ما استوقفه كان في مكان آخر. ففي غرفة الأواني المقدسة بكتدرائية القديس يوحنا، كان الجنود ينزعون اللوحات من مواضعها. أما سقف الصحن، وهو سلسلة جدارية ضخمة لماتيا بريتي عن حياة القديس يوحنا المعمدان، مرسومة مباشرة على الحجر بين عامي 1661 و1666، فكان عصيًا على الأخذ: أكبر من أن يُحمل وأثبت من أن يُنزع. فتركوه. أما اللوحات القابلة للنقل فكانت تُؤخذ.

تعرف على عدة لوحات لبريتي: قطع رأس المعمدان القاتمة العنيفة، وقد انثرت من مصلاها؛ وصور لكبار أساتذة الرهبانية؛ ولوحة كبيرة قيامة لعازر من المدرسة النابولية كانوا يلقونها دون أي احتياط.

ورأى دونون أيضًا ما لم يكونوا يأخذونه. ففي مصلى المبتدئين، معلقة كلوحة مذبح منذ عام 1608: قطع رأس القديس يوحنا المعمدان، أكبر لوحات كارافاجيو، بارتفاع ثلاثة أمتار وستين سنتيمترًا وعرض خمسة أمتار وعشرين، عاصفة من السواد والحمرة. الجلاذ ينحني على الجسد المقطوع الرأس الذي يشكّل دمه بركة. وفي هذا الدم خط الرسام توقيع: ف. ميكيلانجيلو. اللوحة الوحيدة التي وقّعها طوال حياته، واختار أن يوقعها بدم ضحيته. لقد قتل هو نفسه رجلًا. وكانت اللوحة تعرف ذلك.

اقترب جندي ليقدر إن كان بالإمكان إنزالها. فوضع دونون يده على ذراعه.

— هذه لن ترحل. لقد رُسمت لهذا الجدار. ستموت على متن سفينة.

نظر الجندي إلى دونون لحظة، ثم إلى اللوحة، ثم هز كتفيه ومضى يتفقد مكانًا آخر. وبقيت اللوحة.

دون في دفتره الأبعاد والموضوع والتوقيع، ثم ظل واقفًا أمام اللوحة دون أن يكتب. كانت لهذه اللوحة خاصية نادرة. إنها تتفحص المتفرج بدورها. لا القديس مقطوع الرأس. بل الجلاذ المنحني على الميت، أو السجان الذي يدير رأسه، كان يبدو وكأنه يستجوب من يتأمل المشهد: وأنت، ماذا تحمل معك؟

صودرت مصوغات مستشفى الرهبانية بالكامل، من أطباق المائدة والشمعدانات وأواني القربان. كان لمستشفى مالطا أراضي من الرخام ومنسوجات جدارية

وأواني فضية يقال إنها لا نظير لها في أوروبا. ستُصهر إلى سبائك. أما المرضى الذين سيأتون إلى هنا فسيُعالجون بصحون من القصدير. العملية ذاتها، قال في نفسه. كل غزوة تمول التي تليها.

نسيج الهند، منسوجة جذارية صُنعت في الجوبلان انطلاقاً من رسوم مستوحاة من لوحات جلبها الأمير جان موريس دي ناسو سيغن من البرازيل، ما زالت ألوانها زاهية، تصوّر فيلة وببغاوات وحصوناً استوائية ومشاهد بلاط غريبة. أهداها لويس الرابع عشر. لقد وهب ملك فرنسا لرهبانية الفرسان ما كان جيش فرنسا على وشك أن يستولي عليه الآن.

دون الأبعاد. ارتفاعها متران ونصف المتر وعرضها خمسة أمتار تقريباً لأكبرها. صوف وحرير. كان بالإمكان لقها. لكنها لم تُلَفّ. فإما أن الجنود لم يجدوا الوقت وإما أنهم لم يدركوا قيمتها.

— اتركوا المنسوجات، قال دونون لضابط الصف الذي كان يشرف على الجرد. إنها ملك لفرنسا أصلاً منذ لويس الرابع عشر.

في الخارج كانوا يحملون الصناديق على الزوارق. الذهب والفضة والمخطوطات واللوحات المعينة. أما مكتبة الرهبانية، آلاف المجلدات باللاتينية والفرنسية والعربية والتركية، فقد تُركت. لا مكان ولا وقت. كان جنود الثورة ينهبون بسرعة. وكان العلماء يلتقطون ما تبقى.

كانت المكتبة تضم نحو عشرين ألف مجلد. كتباً من مهد الطباعة، ومخطوطات من القرون الوسطى، ورسائل في الملاحة ورسم الخرائط تراكتت منذ القرن الثاني عشر. لم يكن الجنود يعرفون ماذا يفعلون بالكتب. سأل رقيب إن كانت تساوي شيئاً. أجاب دونون نعم، بعضها. فنّب الرقيب إلى أنه لا يملك صناديق. وجد دونون اثنين، ووضع فيهما بنفسه أقدم المخطوطات. نحو مئة مجلد، اختارها بالحدس، بلا فهرس ولا معيار سوى القدم الظاهر للرق. أما الباقي، قرابة عشرين ألف مجلد، فقد تُرك على الرفوف.

أما الحامية الفرنسية التي ستبقى في مالطا فستستخدمها طوال عامين ورق تغليف ووقوداً.

دون برتوليه في ملاحظاته، وهو يراقب الزوارق المحملة بتباعد نحو السفن: «كانت فلاندر منهجية، وكانت إيطاليا عالمية، أما مالطا فكانت متعجلة. لكل حملة طريقتهما في النهب بحسب الوقت المتاح والرجال الحاضرين. ستكون مصر شيئاً آخر. ليست مدينة تُفَرَّغ في ثلاثة أيام، بل بلداً يُقطع على مدى أشهر. وسيكون النهب فيها بطيئاً.»

أقلع الأسطول مساء 19 يونيو. وكان دونون على السطح يراقب فاليثا تبتعد. مدينة من حجارة شقراء، وأسوار تتحدر حتى البحر، وأبراج كنائس باروكية. في المستودعات، كانت الصناديق مكدسة مع الذهب والأواني الفضية. وفي دفتاره رسوم الحصون والكاتدرائية والميناء. ما يُحمل وما يُترك. كان يعلم منذ الآن أنه لن يرى مالطا بعد اليوم.
كان الذهب قابلاً لإعادة الصهر. أما الأعمال الفنية، متى نُقلت، فلا تعود أبداً.

2 - من الإسكندرية إلى النيل

في الأول من يوليو، بعد رحلة بحرية تفادى خلالها الفرنسيون نلسون مرات عدة، أعلن الحراس ظهور سواحل مصر المنخفضة. رائحة رمل ساخن وملح. وكان مونج على السطح منذ الفجر.
— الإسكندرية. إقليدس وإراتوستينس وبطليموس. سبعة ألف مجلد أُحرقت. انظروا ما بقي منها! هتف بونابرت.
أمعن مونج النظر في الساحل.

— في الحقيقة يا جنرال، لا تبدو هذه المدينة الحالية مطابقة للأوصاف المجيدة التي نقرأها في النصوص القديمة. تبدو متداعية، أشبه بمدينة من مدن الأقاليم. أين الآثار الفخمة والمعابد والقصور والمكتبة الكبرى؟
ابتسم بونابرت.

— كل ذلك زال. الرومان والبيزنطيون والعرب والعثمانيون. ما عادت مصر القديمة موجودة إلا في حجارتها. ولهذا نحن هنا.

بدأ الإنزال بعد الظهر في موج عالٍ. نزل الجنود في زوارق حملتهم إلى الشاطئ، فقفزوا في الماء الضحل وخاضوا حتى الرمال تحت شمس لاهبة. وسبقت الرائحة كل شيء آخر. شيء ساخن ومعدني، برائحة السمك والدخان، رائحة مدينة قديمة لم تكن تتوقع أن تُباغت.

نزل العلماء في آخر النهار، بعد أن سقطت المدينة. لم تكن الإسكندرية ما قرؤوه. خمسة عشر ألف نسمة، وشوارع ضيقة، وبيوت من الطوب النيء تنفتت.
وضع دونون قدمه للمرة الأولى على الأرض المصرية ونظر حوله بخيبة أمل لم يحاول إخفاءها.

— أهذه هي حقاً؟ أطلال وأكوام؟

كان عمود بومبي ينتصب على بعد خمسمئة متر، وحيداً في سماء من الرمل. سبعة وعشرون متراً من الغرانيت الأحمر المجلوب من أسوان فوق قاعدة من الحجارة

المنحوتة. ولم تكن له أي صلة ببومبي. فقد شُيّد نحو عام 297 بعد الميلاد تكريمًا للإمبراطور ديوقليانوس، بعد أن سحق ثورة اندلعت في الإسكندرية.

كان الجذع أحادي الكتلة، قطعة واحدة وزنها مئتا طن، صُقلت منذ خمسة عشر قرنًا، وما زالت ملساء عند اللمس تحت الغبار. وكان التاج الكورنثي في أعلاه قد فقد بعض أوراق الأكانثوس لكنه ظلّ مقروءًا. أخذ جومار قياساته بأدواته: القطر عند القاعدة متران وواحد وسبعون سنتيمترًا؛ وعند القمة متر وتسعون سنتيمترًا. كان العمود مستدقًا قليلًا. فقد حسب الصّناع الوهم البصري الذي يجعل الجذع مستقيمًا تمامًا للعين من الأرض. وبعد خمسة عشر قرنًا ما زال الحساب صامدًا.

عند القاعدة، كانت كتل متناثرة تحمل شذرات من نقوش هيروغليفية، أُعيد استخدامها في البناء الروماني، وانثرت على الأرجح من معبد فرعوني أقدم. وكانت ممارسة إعادة الاستخدام هذه تمتد عبر التاريخ المصري كله. كان الرومان ينهبون المعابد لمبانيهم، وكان العرب ينهبون المباني الرومانية، وكان العثمانيون ينهبون المباني العربية. كل طبقة تصلح مقلعًا للتي تليها. وعمود بومبي نفسه قائم على حجارة سبق أن استُخدمت في مكان آخر.

رسم دونون العمود من ثلاث زوايا مختلفة. من الأمام، ومن ثلاثة أرباع، ومن الجانب انطلاقًا من الشمال. هذا الأثر الذي يزن مئتي طن كان محكومًا عليه بأن يكون علامة تهتدي بها السفن الداخلة إلى الميناء. وسينضم رسمه إلى لوحات الوصف. سيبقى العمود هناك. وستذهب صورته إلى باريس ولندن وفيينا.

كانت الإسكندرية مخيبة. قرون كثيرة متراكمة بعضها فوق بعض. لكن النيل كان يفتح أمامهم. أما الاكتشافات الحقيقية فكانت في مكان آخر.

كلّف سقوط المدينة نحو ثلاثمئة بين قتيل وجريح فرنسي. وكان كليبر قد أُصيب في رأسه ونجا. وقد اتخذ بونايرت مقر قيادته في قصر الحاكم العثماني، واستدعى الأعيان ليشرح لهم، في بيان مترجم إلى العربية، أن الجيش الفرنسي جاء ليحرر مصر من طغيان المماليك ويعيد حقوق السلطان العثماني الشرعي.

— يا شعوب مصر، كان النص يقول، سيقال لكم إنني جئت لأهدم دينكم. لا تصدقوا ذلك. جئت لأردّ إليكم حقوقكم وأعاقب الغاصبين. نحن مسلمون حقيقيون. ألم نخضع البابا وفرسان مالطا؟

وبينما كان بونايرت ينظّم إدارة الإسكندرية، شرع العلماء في أعمالهم الأولى. بحث دونون عن آثار العظمة البطلمية. لم يُعثر إلا على القليل. فقد كادت الإسكندرية الكبرى تختفي.

أمضى دونون ليلته الأولى بلا نوم. لا من قلق، بل لأن الشوارع ظلت تضجّ بحياة ليلية لم يسمع مثلها من قبل. أصوات بالعربية، وكلاب شاردة، وخير نافورة في

فناء لا يُرى، ونداءات الصلاة التي تتردد من المآذن قبل الفجر. جلس عند نافذته بدفتره ورسم ما لا يراه، وأذناه تقودان يده. كانت الخطوط مرتجفة. تركها كذلك. وطالت الليلة.

في صباح اليوم التالي خرج مع جومار إلى المدينة. كان الأخير يحمل مزواته ويأخذ القياسات عند كل مفترق. وكان دونون يخطط الواجهات، والوجوه في الأسواق، وجمالاً باركاً في الغبار، ومجموعة أطفال يراقبون الجنود الفرنسيين يمرون بمزيج من الفضول والريبة. لم يكن أي منهما يتكلم العربية. فكانا يتواصلان مع الأهالي بالإشارات والابتسامات والنقود.

— إن مصر التي سندرسها ليست مصر القديمة وحدها، قال دونون لجومار وهو يرسم باباً خشبياً منحوتاً بزخارف هندسية. ثمة هنا طبقات متراكمة منذ آلاف السنين. وكل طبقة غطت سابقتها دون أن تمحوها تماماً.

— وهذا ما يعقد المسح، أضاف جومار. طبقاتك المتراكمة تطرح مشكلة منهج. إذا كان كل شيء ينتمي إلى كل شيء، فلا يمكن تأريخ شيء. حين يُعاد استخدام كتلة غرانيت قديمة في بيت من القرن الثامن عشر، إلى أي حقبة تنتمي؟ — إلى الاثنينين. هنا المشكلة وهنا الأهمية.

كشف سوق السمك لإتيان جوفروا سانت هيلير، وهو عالم طبيعة شاب عضو في لجنة العلوم والفنون، عن نحو عشرة أنواع من البحر المتوسط لم يرها قط في أي عيّنة. فاشترى عدداً منها لا يعرف أسماءها، ولقّبها بعناية في الملح وأمر بحملها إلى مسكنه ليشرحها في المساء. احتج رفاقه في الغرفة على الراحة. فأجاب بأن رائحة العلم خير من الجهل.

أما برتوليه فقد اهتم بأصباغ السوق. كانت الأقمشة التي يعرضها التجار تحمل ألواناً لا يعرفها. أزرق نيلي عميق جداً، وحمرة لا تشبه لون الفوة، وصفرة تميل إلى الزعفران. اقتطع برتوليه عيّنات من الألياف المصبوغة، ولقّبها في الورق، وألصق عليها بطاقات بعناية.

وبينما كان العلماء يجوبون أسواق الإسكندرية، كلٌّ بحسب اختصاصه، لم يكن بونابرت ينتزّه.

كان عليه أن ينظّم الحامية، وبقيم العلاقات مع السلطات المحلية، ويسوّي مسائل التموين، ويُعدّ للرحف نحو القاهرة. استقبل الأعيان جالساً على مقعد أمر بإحضاره من سفينته، وحوله مساعدوه. فمثلوا أمامه بحذر من لا يزالون يجهلون إن كان الوافدون الجدد سيقون.

غير أن الجيش كان يستعد. كان الجنود يملؤون قِرَبهم، ويحملون البغال، ويتحققون من ذخيرتهم. وقد استؤجر أدلاء مصريون. رجال يعرفون طريق الصحراء

ومواضع الماء. كانوا ينظرون إلى هذا الاستعداد بقدرية. فقد رأوا جيوشًا كثيرة تمر في هذا الممر بين البحر والصحراء.

لم يكن بونايرت منشغلًا بالحسابات الهيدرولوجية. كان يراقب الصحراء. ومن شرفة القصر حيث كان العلماء يقيمون، كان يُرى في الجنوب الخط الواضح الذي تنتهي عنده المدينة ويبدأ الرمل. خط مستقيم. في جانب، البيوت والبساتين والنخيل، حضور بشري منظم منذ زمن بعيد. وفي الجانب الآخر، لا شيء. امتداد متجانس حتى الأفق بلا ظل، بلا تغيير في اللون، بلا أثر للحياة.

في 6 يوليو أصدر بونايرت أمر المسير. مئتان وعشرون كيلومترًا تفصل الساحل عن القاهرة. وبينهما: الصحراء. لم يقل أحد ذلك بوضوح للعلماء.

أربعون درجة في الظل منذ الساعة الأولى. لا ماء بين الآبار. كان جنود يموتون وهم يسيرون، لا يحصدهم العدو بل الشمس. لم يكن أحد يموت دفعة واحدة. كان المرء يتوقف. ويسقط على ركبتيه. ولا ينهض. وكانت الأرتال تواصل سيرها. لم يكسر أحد خطوته ليبقى مع رجل ملقى على الأرض.

كان بونايرت يسير على قدميه مثل جنوده، في أرتال متوازية عبر الصحراء. وكان العلماء، غير المهينين، يتبعونه كما استطاعوا. أغمي على عدد منهم. وكان دونون يرسم المناظر وهو يمشي.

كان مونج يترنح متكئًا على عصا مشي ارتجلها. فلما رآه بونايرت على تلك الحال، أمر بأن يُعطى ماءً من مخزونه الخاص.

— اشرب يا مونج، قال بونايرت وهو يناوله قريته. يجب أن تتجو من هذه المسيرة. شرب مونج بضع جرعات من ماء فاتر بطعم معدني. كاد يقول شكرًا لكنه كبخ نفسه. فالمرء لا يشكر جنرالًا على جرعة ماء كما يشكر صديقًا. أعاد مونج القربة دون كلمة. وكان بونايرت قد نظر إلى جهة أخرى.

— لكل المشاريع الكبرى محنها، تابع بونايرت واضعًا يده على كتفه. الإسكندر سار حتى الهند ثماني سنوات. ماركو بولو أربعًا وعشرين سنة خارج البندقية. أما نحن فسنصمد.

كانت الأرتال تتقدم عبر منظر لا ينبت فيه شيء تقريبًا. بعض الشجيرات الشائكة. وبين الحين والآخر قرية من الطوب النيء. وفلاحون يراقبون مرور الجيش من أبوابهم دون كلمة. كانت الحرارة مختلفة عن كل ما عرفه الجنود. لم تكن تأتي من الشمس وحدها بل من الأرض ذاتها، كأن الصحراء كلها فرن مفتوح. وكانت القرب تفرغ. فيملؤونها من الآبار حين يجدونها. وكان للماء طعم التراب والملح لكن أحدًا لم يشتك.

في اليوم الرابع، نحو الظهر، سرى همس في الأرتال. رفع الجنود رؤوسهم. أمامهم، وراء خط الحرارة المرتجف، كان شريط أخضر يتشكل عند الأفق. النيل. بعضهم شرع يركض. ولم يمنعهم الضباط. بل ركضوا هم أيضاً.

حين بلغت الصفوف الأولى الضفة، سقط الرجال على ركبهم في الماء دون أن ينزعوا حتى حقائبهم. شربوا وغسلوا وجوههم وبقوا ساكنين في التيار كأنهم يرفضون الخروج منه. وخلفهم كانت الأرتال تواصل الوصول، مثيرة غيوم غبار تنساقط على الماء.

جلس دونون على الضفة مع أقلام الفحم. أمامه سطح الماء الواسع يتلألأ تحت شمس يوليو، والشريط الخصب من بضعة كيلومترات من الخضرة الكثيفة، ثم الصحراء تبدأ تمامًا حيث يتوقف الري.

— انظر يا جومار، قال دونون للمهندس الجغرافي الشاب الذي جلس بجانبه ليستريح، هذه أخيراً مصر الحقيقية.

— ما يدهشني هو الخط. في جانب النخيل والمزروعات. وفي الجانب الآخر الصحراء. على بعد كيلومترين من الضفة.

كان جومار على حق. فكل شيء كان معلقاً بالنيل. وعلى بعد كيلومترين من الضفة كانت الصحراء، مطلقة، مباشرة. لم تكن مصر سوى ممر من الماء في قارة من الرمال.

صار الماء الصالح للشرب متوافراً الآن، واستعاد الجيش قواه. نشر جومار مسطرتة المدرجة، وراح مونج يخطّ معادلاته على أوراقه المتناثرة، وفتح دونون دفتر رسومه. ودرس المهندسون نظم الري: السواقي والشواذيف وقنوات التوزيع. تقنيات عمرها آلاف السنين، ما زالت قيد الاستعمال. ماء النيل يُرفع بالآلة ليبلغ حقولاً تقع على علو بضعة أمتار. بسيطة، فعالة، لم تتغير منذ الفراعنة. وجمع علماء النبات بحماسة محمومة: نخيل التمر والجميز واللوتس والبردي ونباتات عطرية لا تعرفها أوروبا. وحشا جوفروا الطيور — أبو منجل والبلسون — وملا الصناديق. فقد انكشفت له حيوانات النيل: تماسيح على الضفاف، وأفراس نهر صارت نادرة، وطيور مهاجرة بالآلاف.

— انظر إلى طيور أبي منجل هذه، قال جوفروا لبرتوليه. كان المصريون يحطّونها. وقد جعلوا منها الإله تحوت. الحكمة والكتابة. طائر نراه كل صباح على ضفة النيل.

— عزيزي جوفروا، إن عبادة طائر كإله تبدو لي قمة الخرافة. لقد صحّح عصر الأنوار هذا.

كان عصر الأنوار قد تجاوز كثيراً من هذه المعتقدات. لكن جوفروا كان يفهم أمراً أبى برتوليه أن يراه. فتقديس طائر أبي منجل لم يكن على الأرجح خرافة محضة، بل الشكل الذي اتخذته، في حضارة بعينها، الملاحظة الدقيقة للطبيعة. فقد لاحظ المصريون أن أبا منجل يظهر مع فيضان النيل، فجعلوا منه إلهاً. وكان علماء الطبيعة في القرن الثامن عشر يلاحظون الشيء نفسه ويصوغون منه معادلات. وكان الفرق في اللغة، لا في الانتباه الموجّه إلى العالم.

كان جوفروا قد بدأ الشراء منذ الشهر الأول. ولم يحدث زملاءه بذلك. فلم يكن لفورييه ولا مونج ولا برتوليه موقف واضح من المسألة. جمع علمي أم استنثار شخصي؟ كان الفارق غامضاً.

بعد أسابيع قليلة، حين اتخذ الجيش مقامه في القاهرة، كان سوق سقارة قد أخذ يعمل منذ أن بين الجنود الفرنسيون أنهم يشترون. كان فلاحون من القرى المجاورة يحملون إليه ما يجدونه في الحقول والمقابر. عشرات من الأوشابتي ومئات من الجعارين، وقطع من البردي، وثمانم، وعملات بظلمية خضراء من أثر الصدا. وكان دونون يأتي في الصباح، قبل أن تجعل الحرارة المسير مُنهكاً. يمشي ببطء بين المعروضات المرتجلة، حُصر من السمار مبسوطة على الأرض، والقطع مصفوفة فوقها. يجثو. يزن القطعة بيده. ينظر. وما كان يستوقفه لم يكن دائماً الأقدم ولا الأروع. أوشابتي من الخشب المطلي، تمثال جنازي طوله خمسة عشر سنتيمتراً، ذراعاه معقودتان على الصدر في هيئة أوزيريس، ووجهه مهيب، وشعره المستعار أزرق مخطط بخطوط ذهبية دقيقة الرسم. كان للوجه دقة هادئة كدقة صور البلاط. نظر إليه أحدهم، وأراد أحدهم أن يُعرّف في العالم الآخر. لقد رافق هذا الأوشابتي ميئاً ثلاثين قرناً في حجرة جنازية مختومة. وها هو الآن هناك، على حصيرة من السمار، في سقارة، تحت الشمس. ولَفَت الأوشابتي في خرقة ووضعها دونون في حقيبته.

قال الفلاح جملة. لم يفهمها دونون. فالتفت إلى حسن، المترجم الذي عيّنه له الجيش. أصغى حسن، ونظر إلى قدميه، ثم ترجم بصوت خافت.

— يقول إنها مقبرة جدّه الأعلى.

عاد حسن وحده إلى المعسكر في تلك الليلة. مرّ بالسوق وهو يخلو، والباعة قد اختفوا في غبار المساء ومعهم قروشهم. وتوقف في الموضع الذي عرض فيه الفلاح بضاعته. كانت الحصيرة ما تزال هناك. وأثر انخفاض في الرمل يدل على المكان الذي استقر فيه الأوشابتي. كان مترجماً منذ أربع سنوات، ترجم للتجار والكتّاب العدول والضباط العثمانيين، وها هو الآن يترجم للعلماء الفرنسيين. وقد تعلّم أن الترجمة هي الاختيار بين كلمات لا تتطابق أبداً تطابقاً تاماً. أما جملة الفلاح — مقبرة جدّه الأعلى — فقد ترجمها بدقة. وما لم يترجمه كان النبوة.

وفي الأيام التالية، اقتنى دونون أشياء أخرى.

جعارين. أحدها من الفينانس الأزرق يحمل خرطوش تحتس الثالث، سادس فراغنة الأسرة الثامنة عشرة، محفور على سطحه المسطح بدقة تحقق منها بالعدسة: الرقعة، والجعران، وقرص الشمس. ثلاثة آلاف ومئتا عام والخط سليم. وثان من الحجر الصابوني الأسود يمثل خنفساء بأغمد أجنحة مفصلة بدقة. فقد راقب المصريون الجعران وهو يدحرج كرتة من الروث نحو الشمس، ورأوا فيه الإله خبري يدفع الشمس عند الفجر. ووضعوه في القبور، على قلوب الموتى، لضمان البعث.

تمائم. عين الوجات من الفينانس الفيروزي، عين حورس، التي اقتلعتها ست في القتال ثم أعيد تكوينها. ثلاثة سنتيمترات، بؤبؤ مرسوم، وخطوط على طريقة فن التجميل تحاكي ريش الصقر. وتحوت برأس أبي منجل من اللازورد كان الكتابة يتحلون به ليبقي قلمهم سديداً. وسخمت من العقيق الأحمر الداكن. كان يُحمل لكي لا تصيبك الحرب والأوبئة.

واشترى دونون أيضاً إناءين كانوبيين من المرمر — غطاء برأس ابن آوى وآخر برأس فرد البابون — حارسين لأحشاء الميت. ارتفاعهما ستة عشر سنتيمتراً، والمرمر شفاف يدع الضوء ينفذ بلون العسل كأن الحجر ما زال حياً. وقطع من البردي مغطاة بالكتابة الهيروغليفية، اقتناها دون أن يعرف ما تقوله. وما كانت تقوله لن يغير ما كانت عليه.

ما كانت تقوله، ما زال لا يعرفه. وبعد سنوات سيتعلمه المستشرقون: صيغ من كتاب الموتى، وأدعية حامية للعبور إلى العالم الآخر. فبردية مشابهة، اشتراها المهندس سيمونيل في طيبة وعُرفت لاحقاً باسم بردية كاديه، تحتوي على الصيغة 125، محاكمة الروح أمام أوزيريس.

ستنضم بردية كاديه إلى قسم المخطوطات في المكتبة الوطنية، تحت الرقم مصري 1 إلى 19.

لكن في ذلك الصباح بسقارة، لم يكن يعرف شيئاً من هذا بعد. ما كان يستوقفه كان يشتره. السوق يخلو الحرارة ترتفع. وغداً ستكون هناك حصر أخرى، وأشياء أخرى، وصفقات أخرى لن يدون كل عباراتها. كانت مصر أكبر من دفاتره. كان يعرف ذلك منذ اليوم الأول. ومع ذلك سيواصل.

عند الفجر، كان لدى جوفروا اثنتا عشرة صفحة من الملاحظات وقناعة واحدة. فتمساح النيل وكايمان أمريكا الجنوبية يتشاركان بنية عظيمة قريبة إلى حد استحيل معه أن تكون مصادفة. وهذا التقارب التشريحي عبر عشرات الآلاف من

الكيلومترات ومحيط كامل طرح سؤالاً لم يكن لدى علم الأحياء في عصره جواب عنه.

لم يحدث جوفروا بذلك أحدًا بعد. فقد كانت الفكرة تختلف كثيرًا عما يعلمه علم زمانه.

كان جوفروا قد طلب من دونون أن يُريه صور الحيوانات في النقوش البارزة بسقارة. وقضيا نصف يوم في مقارنة طيور أبي منجل المرسومة بالطيور الحية. وكانت اللوحات والطيور متشابهة تمام التشابه. ثلاثة آلاف عام لم تغيّر شيئاً. ورسم دونون الاثنين جنباً إلى جنب — الحي والميت المرسوم — دون أن يعرف أيهما أشبه بالأصل.

3 - معركة الأهرام

في 21 يوليو، لمح الجيش الأهرام.

كانت الأشكال المثلثة ترسم في الأفق على بعد نحو عشرة كيلومترات. توقف الجنود من تلقاء أنفسهم. لم يصدر أحد أمراً. ونظر بونايرت إليها من على ظهر جواده دون كلمة.

ثم التفت إلى رجاله:

— أيها الجنود، من علياء هذه الأهرام، أربعون قرناً تتألمكم.

وأشار إلى جنراته دون أن يخفض صوته:

— بون، الفرقة اليسرى. ديزيه، الفرقة اليمنى. لا نتحرك. نترك العدو يأتي.

ثم، لنفسه وحده، للمرة الأخيرة في مواجهة الأهرام:

— فليكن ذلك على الأقل بالانتصار.

أرسل العلماء إلى داخل مربعات المشاة مع الأمتعة والجرحى. فوجدوا أنفسهم محشورين بين البغال وصناديق الذخيرة، بمستوى كتف جنود الصفوف الأخيرة. كان مونج لا يكاد يرى شيئاً.

من حيث كان، لم يكن يرى إلا ما يجري بمستوى قمة الرجل: الأقدام التي تتقارب، والبنادق التي تُمسك بكلتا اليدين، والعرق على الأعناق. والغبار المتصاعد من الشرق. وفرسان المماليك يقتربون، غير مرئيين بعد. وجندي عن يساره يتمتم باللهجة الألزاسية. لم يفهم مونج. وكانت النبيرة كافية. وتساءل، للمرة الأولى منذ طولون، هل تستحق هذه الحملة أن يُحشر المرء بين البغال والصناديق بينما يهجم الفرسان عبر الغبار.

وصل الهدير قبل صوت الحوافر. شيء ما في الهواء، ارتجاج في الأرض تحت قدميه. ثم أطلقت الصفوف الأولى نيرانها وحجب الدخان الأسود كل شيء. وتوالى الرشقات بإيقاع منتظم. وفي الفواصل كانت تُسمع صرخات. صرخات الرجال الساقطين عن خيولهم.

ما لم يستطع مونج رؤيته من داخل المربع، كان الضباط الراكبون يرونه. فقد نشر مراد بك قواته إلى الشرق، بين الفرنسيين والنيل. ستة آلاف فارس مملوكي، وربما سبعة آلاف، محتشدين في تشكيلات متموجة تغيّر شكلها دون أن تتجمد قط. لا خطوط. لا صفوف ثابتة. فرسان ينتشرون كالماء على سطح غير مستو. وكانت الخيول العربية، وهي أصغر حجمًا من الخيول الفرنسية، تعدو في مجموعات من خمسين أو مئة، وتغيّر اتجاهها بإشارة من قائد لا يُرى. ومن ورائها كان غبار بلون المغرة يرتفع حتى حجب السماء.

كان بونابرت قد صفّ فرقه في خمسة مربعات كبرى. خمسة وعشرون ألف رجل موزعين على ستة صفوف عمقًا، والحراب مشرعة، والضباط في الداخل مع الأمتعة. كانت تلك هي التشكيلة النظرية التي تُدرّس في المدرسة العسكرية، التي ما كان ينبغي أن تتكسر أبدًا أمام هجوم الفرسان. نظرًا. فما من أحد في الجيش رأى في أي مكان ستة آلاف فارس يهجمون في وقت واحد.

جاء الهجوم الأول من الجنوب الشرقي. نحو ألف فارس انفصلوا عن معظم الجيش المملوكي، وانطلقوا مباشرة نحو مربع ديزيه. كان المماليك يحملون سيوفًا معقوفة ومسدسات في الأحزمة وبنادق قصيرة على الأكتاف. وبعضهم يرتدي دروعًا من الزرد تلمع تحت الشمس. وآخرون يرتدون أثوابًا من الحرير المطرّز. لم يكن ذلك جيشًا. كان أرسقراطية محاربة ممطية الجياد، كل فارس يقاتل لمجده الخاص، بلا نظام جماعي.

هجموا بأقصى سرعة على مدى ثلاثمئة متر. وانتظر مربع ديزيه. مئتان وخمسون مترًا. كان الضباط يصرخون بالثبات في الصفوف. مئتا متر. ارتفعت البنادق. مئة وخمسون مترًا. وكان بونابرت، من موقعه في الوسط، ينظر دون أن يتحرك. مئة متر. المسافة التي يستطيع عندها جندي المشاة أن يميّز وجه الفارس المهاجم. خمسة وسبعون مترًا. أمر الرمي.

أصابت الرشفة الأولى الهجوم في مقدمته. كانت الرصاصات تضرب الخيول أولاً، وهي أعرض من الرجال، ثم الفرسان الذين يهجون إلى الأمام أو إلى الجانب. وعلى مسافة خمسين مترًا، تباطأ الهجوم. لم يكن توقّفًا مفاجئًا. كان تفتّتًا. فقد أبت الخيول التقدم نحو الحراب. ووصل بعض الفرسان المنفردين إلى المربع. كانوا يضربون بسيوفهم المعقوفة البنادق المتصالية، لكنهم لم يقدروا على اختراق الصفوف الستة عمقًا. وأسقطتهم الرشفة الثانية من مسافة قريبة جدًا.

تراجع الناجون. لكن هجمات أخرى تلت. فقد كان مراد بك يدفع أسرابه في موجات متتالية، أملاً أن يجد ثغرة في التشكيلات الفرنسية. وكانت كل موجة تتحطم على البنادق. وبعد ساعة، كانت المربعات ما تزال صامدة. وكانت الأرض أمام المواقع الفرنسية مغطاة بالخيول النافقة والفرسان الجرحى. وكان دخان البارود راكداً في الهواء الساكن، يشكّل ضباباً رمادياً حجب الأهرام في الخلفية.

واصل دونون الرسم دون أن يرى. ظهوراً، وبنادق، ودخاناً، وركن هرم فوق الرؤوس. ومن داخل المربع، لم يكن يرى إلا شذرات: عنق الجندي الألزاسي أمامه، والبنادق التي ترتفع وتهبط، والدخان اللاذع الذي يحجب كل شيء. وما جرى في الخارج للتو — الهجمات، والرشقات التي حطمت الأسراب المملوكية، والهجوم المضاد للفرسان الفرنسيين — لن يراه. لن يحتفظ إلا بالدخان والحرارة والعرق والضجيج.

قرب نهاية بعد الظهر، دفع بونايرت بفرقتي بون وفيال إلى الهجوم على المعسكر المحصّن في إمبابه، على ضفة النيل. وتقدّمت أعمدة المشاة بالحراب. لم تكن مطاردة. كانت دفعة عنيفة محسوبة لكسر تماسك العدو. وتراجع المماليك، المحصورون بين الأعمدة والنهر. وغرق بعضهم وهو يحاول عبور النهر على ظهور الخيل. وسقط آخرون على الضفاف برصاص المشاة الفرنسيين الذين طاردوهم.

أدرك مراد بك أن المعركة خاسرة. ففرسانه، المتفوقون فردياً، لم يقدرُوا على شيء أمام مشاة منضبطة تثبت في مواقعها. فأصدر أمر الانسحاب العام. وقيل أن تمضي ساعتان على بدء القتال، كان المماليك الناجون يعدون نحو الجنوب، تاركين ساحة المعركة للفرنسيين. وخلفوا وراءهم عدة آلاف من القتلى. أما الفرنسيون فأحصوا أقل من ثلاثمئة بين قتيل وجريح.

رسم دونون الأهرام والقتلى في المقدمة. وذلك الرسم، لا لوحات النصر التي طُلِبَت لاحقاً، هو الذي قال حقيقة ذلك اليوم.

واستأنف الجيش مسيره. وعندئذ عادت الأهرام. لا كما بدت في الصباح، خيالات بعيدة في الغبار، بل كاشياء من طبيعة أخرى. كانت تكبر كلما اقترب منها على نحو لا صلة له بالمنظور المألوف. لم يكن الأمر أنها تصبح أكبر. بل أنها كانت تكفّ عن أن تُقارن بأي شيء معروف. وعلى بعد مئتي متر، أدرك دونون أنه أمضى حياته كلها يتخيل أثراً على مقياس إنسان. وهذه الأهرام شُيِّدت على مقياس فكرة كانت لدى بُنائتها عمّا ينبغي أن يدوم. كانت هائلة، وقحة في حجمها. لا صرح أوروبي يضاهيها.

أخرج جومار، المهندس الشاب خريج البوليتكنيك، أدوات القياس وشرع في مسوحاته. فالأرقام التي دَوَّنَهَا تلك الليلة — طول القاعدة، وزاوية ميل الأوجه،

والارتفاع المقدّر — ستشكّل أول مسح علمي دقيق لأهرام الجيزة. وهذا العمل الشاقّ الدقيق، المنجز مساء يوم الانتصار نفسه، لخصّ ازدواجية الحملة كلها.

تفحص دونون الأهرام، ثم الجيش المعسكر عند أقدامها. كانت هذه الصروح تزن ملايين الأطنان. ولن تذهب إلى أي مكان. أما الأشياء التي تحويها فمسألة أخرى. تماثيل الحجرات الجنائزية. البردي. الجعارين من الفيانس. كل ما تستطيع يد أن ترفعه وتضعه في صندوق من صناديق الحملة.

هبط الليل سريعاً على هضبة الجيزة. أشعل الجنود نيران معسكرهم. ومنح الضوء البرتقالي للهب الأحجار لوئاً لم يره في أي لوحة من قبل. وظل دونون واقفاً طويلاً بعد أن تمدد جومار على غطاءه، وعيناه مفتوحتان نحو السماء.

بعد منتصف الليل، أخذ أقلام الفحم واقترب من الهرم الأكبر. لم يوقفه الحراس. فقد أبلغوا بأن هذا المدني ذا الدفتر يتجول في كل مكان ولا يسبب مشكلة. سار بمحاذاة القاعدة حتى وجد زاوية يضيء فيها القمر الوجه الغربي مباشرة. كانت الكتل أعلى من قامة رجل. تسلق كتلتين، ثلاثاً، وجلس على الرابعة.

كان الحجر ما يزال دافئاً. لا حرارة الهواء المنتشرة. حرارة خالصة، داخلية، كأن كتلة الحجر الجيري امتصت شمس النهار وراحت تردّها ببطء في الليل. الكف مبسوط على الحجر. مئة وستة وأربعون متراً من الحجر فوقه، غير مرئية في العتمة. لم يكن يرى إلا الصفوف الأولى من الكتل ترتفع نحو السواد.

حاول دونون أن يرسم. كان القمر يعطي من الضوء ما يكفي لتمييز الفواصل بين المداميك، وعدم الانتظام الطفيف في الأسطح المنحوتة باليد، والظل العميق للفُرَج. وخط الأفق حيث يقطع الهرم السماء، والصفوف المتتالية من الكتل التي ترتفع في درجات. كان أبسط من رسم النهار.

وجده جومار هناك نحو الواحدة بعد منتصف الليل. جلس إلى جانبه دون كلمة، وتفحص الرسم في الدفتر، ثم نظر إلى الهرم، ثم عاد إلى الدفتر.

— لقد ربحنا للتو معركة لن يتذكر أحد أنه خسرها. بعد ألف عام، من سيعلم أن مراد بك فرّ نحو الجنوب قبل قليل؟ بعد ألف عام، سيكون هذا الهرم قد شهد مئة معركة كمعركتنا. ولن يُحصيها. فالحجر لا يُحصي انتصارات البشر.

— دفاترنا ستكتنها، أضاف جومار. ثمة فرق بين أن نعرف وأن نكتب. لكن دفاترنا سنشهد عليها، إن قرأها أحد.

— دفاترنا. هذا ما يبقى من الانتصارات. دفاتر وأهرامات.

تأمل جومار قليلاً. وكانت قمة البناء تجذب نظره.

— حسبتُ هذا المساء أن الهرم الأكبر يضم نحو مليونين وثلاثمئة ألف كتلة. ولو أن العمال اشتغلوا عشر ساعات في اليوم، وثلاثمئة وخمسة وستين يوماً في السنة،

طوال عشرين عامًا، لكن لزم وضع كتلة كل دقيقتين تقريبًا، دون انقطاع. دون استراحة. دون خطأ. مليوني مرة. ما يُقلّني أن الحساب يستقيم. ليس فيه هامش ينهار. لقد فعلوا بالضبط ما كانوا قد عزموا على فعله.

وعلى البعد، كانت نيران معسكر الجنود تومض في السهل. وفي مكان ما نحو الشمال، كانت القاهرة نائمة. أما الهرم فلم يكن ينام.

تفحص دونون الرسم مرة أخيرة. خط الهرم على السماء الليلية، بسيط ومطلق. لم يرسم قط شيئًا يصعب إفساده إلى هذا الحد. كان الشكل من النقاء بحيث لا يمكن تقويته.

نهض جومار، ونفض الغبار عن بنطاله، وصعد عائدًا إلى المعسكر.

في صباح اليوم التالي، نزل دونون إلى الهرم الأكبر مع مونج والمهندس بلزاك. دخلوا من الممر الذي شقّه الخليفة المأمون في القرن التاسع. نفق في البناء، ضيق إلى حد أنهم اضطروا إلى التقدم منحنيين، والمشاعل المدخنة في أيديهم. كانت حرارة الأوس قد غادرت الهضبة. وكان الحجر باردًا.

في الممر الصاعد صادفوا جنديًا كان ينزل. فتى في الثامنة عشرة ربما، المشعل في يده اليسرى، ويده اليمنى مضمومة. انسحب إلى جانب الجدار ليفسح لهم الطريق. لمح دونون ما كانت اليد اليمنى تقيض عليه. جعران من الفابنس الأزرق، في حجم الجوزة، وجده في كوة جانبية. نظر إليه الجندي. ونظر إليه دونون. لم ينبس أي منهما بشيء. ومضى الجندي نحو المخرج. لم يكن ثمة ما يُقال. فجعران الجندي والتمائيل الصغيرة في أمتعة دونون نفسه كانا من منطق واحد. كان الفرق في الدرجة لا في الطبيعة. وقد عرف دونون ذلك منذ سقارة.

أوقفهم الرواق الكبير في مكانهم. سبعة وأربعون مترًا طولًا، وثمانية أمتار ونصف علوًا، وجدرانه من الحجر الجيري المصقول تصعد متدرجة نحو القمة. كان الممر يمتد بميل ست وعشرين درجة نحو حجرة الملك. رفع المشعل. لم يبلغ الضوء القمة. لم تكن هناك قمة ظاهرة. بل جداران يتقاربان في العتمة.

— لقد بنى الرومان الأقبية، قال مونج وهو ينظر إلى الجدران. وبنى المصريون أسقفًا زائفة. والنتيجة واحدة. فضاء مسقوف. والحل التقني مختلف. لقد حلّوا المشكلة نفسها دون أن يعرف بعضهم بعضًا.

— نعم، مع فارق قرون، أجب بلزاك. هذا الممر أقدم من البانثيون في روما بألفين وسبعمئة عام.

تقدّم مونج وهو يعدّ خطواته. كان قد حمل معه حبلًا مدرجًا يفرده خلفه، ويدوّن الطول بالضبط عند كل تغيير في الاتجاه. وكان بلزاك يمسك ميزان التسوية.

في حجرة الملك توقفوا قليلاً. كان التابوت الفارغ يشغل الزاوية الغربية. حوض من كتلة واحدة، بلا غطاء ولا نقش ولا زخرفة. كان أحدهم قد كسر حافته الشمالية في زمن مجهول. ولم يترك اللصوص شيئاً آخر.

قاس دونون الحجرة في أبعادها الثلاثة. الطول: عشرة أمتار وثلاثون سنتيمتراً. العرض: خمسة أمتار وعشرون سنتيمتراً. الارتفاع: خمسة أمتار وثمانون سنتيمتراً. دَوّن الأرقام، ثم راجعها، ثم دَوّنها ثانية. ثم حسب النسبة بين الطول والعرض. قريبة من اثنين إلى واحد. قريبة من المربع المزدوج.

— انظروا. هذه النسبة ليست عشوائية. كان للمصريين هندسة للتناسبات نعيد اكتشافها اليوم. لم يكتبوها. بل بنوها.

جلس مونج على حافة التابوت الفارغ يرسم الحجرة على ضوء مشعله. كان هذا التابوت قد احتوى شيئاً. أو ربما لا شيء. ربما كان فارغاً منذ الأزل. ولعل الحجرة نفسها كانت هي القبر، لا الصندوق الحجري. لم يكن أحد يعلم. لم يكن هناك أي نقش هيروغليفي يزيّن الجدران ليقول ذلك. ولو وُجد، لما عرفوا قراءته.

صعدوا إلى السطح بعد ساعتين. كانت شمس الصباح تضرب هضبة الجيزة. جلس مونج على كتلة من الحجر الجيري وأغمض عينيه لحظة. فُكّر في الحجرة في الأسفل. صمتها المطلق، وظلمتها التامة، والتابوت الفارغ الذي انتظر هناك قروناً أن يأتي من يضع يديه عليه.

فتح دونون دفتره وكتب: «يدخل المرء هرمًا كما يدخل جملة لا يفهم لا بدايتها ولا نهايتها. المعنى هناك، منظم ودقيق. لكن اللغة تعوزنا.»

بعد الظهر، بينما كان جومار ينهي مسوحاته للوجه الشرقي، ابتعد دونون نحو جنوب الهضبة. كان يريد أن يرى أبا الهول من بعيد قبل أن يقترب منه. توقف على بعد ثلاثمئة متر ونظر.

كان الرأس بيزغ من الرمال عند الأفق، مرتسمًا على السماء البيضاء من الحر. وكانت النسبة مُقلقة. أكبر من أن تكون لإنسان، وأصغر من أن تكون لصرح، شيء بين الاثنين لا يطابق أي فئة يعرفها. رُسمت الصورة الظلية بدقة. أربعة خطوط. انكسار الأنف المشوّه. حافة النمس. التسريحة المخططة التي توّطر الوجه. الظل الساقط على الرمل.

وعند الاقتراب، أخذت التفاصيل تتوالى. الحجر الجيري الأصفر الباهت، الذي أبلّته آلاف السنين من الرياح المحمّلة بالرمل. وكانت الطبقات الجيولوجية ظاهرة في الصخر. فقد نُحت أبو الهول في الجرف الطبيعي. وتتبع العمال طبقات الحجر كما يتتبع النحات عروق الخشب. وكانت الأذنان، وقد انمحتا نصف انمحاء،

تحفظان بشكلهما. وصارت العينان تجوفين الآن، لكن الحاجبين البارزين يدلان على أنهما حُفرتا عمداً.

جلس دونون في الرمل، عند أسفل الرأس، في الظل الضيق الذي يلقيه في أواخر العصر. كان المكان البارد الوحيد في الهضبة في تلك الساعة. ورسم الوجه من الأسفل، من الزاوية التي لم يصورها أي رسام بعد، زاوية من يجلس عند قدم الصرح ويرفع عينيه.

جاءه جندي من فرقة الحماية ليقول له إن الوقت قد حان للعودة إلى المعسكر. أشار بأنه سمع، ولم يتحرك. ابتعد الجندي. وكان قد بقي من الضوء ما يكفي لنحو عشرين دقيقة.

فكر فيما يحرسه أبو الهول. أو فيما يُفترض أنه يحرسه. فقد سمّاه المصريون القدماء حور م أخت، حورس في الأفق. الإله الصقر الذي كان أيضاً الشمس المشرقة. كان هذا الوجه ينظر نحو الشرق، نحو الشرق تماماً، نحو الشمس عند شروقها. لا مصادفة. بل بحساب فلكي، أنجز بدقة لن تفعل أدوات جومار سوى تأكيدها.

كل شيء هنا كان مقصوداً. لا شيء كان للزينة وحدها. كل نسبة، وكل اتجاه، وكل مادة اختيرت، كانت تستجيب لمنطق كان في رؤوس البناّين ولم يروا فائدة في شرحه لأن خلفاءهم كانوا يعرفونه أيضاً. ثم اختفى الخلفاء، واختفى المنطق معهم، ولم يبقَ إلا الحجر. كاملاً، دقيقاً، وأخرس.

وحين لم يعد الضوء كافياً، نهض ونظر إلى الوجه مرة أخرى. لم يكن الأنف الغائب يمتنع من التعبير. إن كان ذلك تعبيراً أصلاً. لعله لم يكن سكيناً. ربما هو ببساطة الطريقة التي ينظر بها وجه منحوت في الصخر إلى العالم.

كان سقوط القاهرة في 24 يوليو سريعاً على نحو مدهش. فُتحت أبواب المدينة دون قتال جدي، إذ أثرت السلطات المحلية التفاوض على مواجهة جيش رأت للتو قوة ناره. ودخل بونابرت عاصمة مصر على رأس جنوده، عابراً أزقة ظل سكانها محتمين بالبيوت في حذر.

وكان انهيار الجنود بالقاهرة شاملاً. فبعد أسابيع من الصحراء، اكتشفوا مدينة يسكنها ثلاثمئة ألف نسمة. أسواقها المكتظة، ومساجدها التي لا تحصى، وبساتينها من النخيل والبرتقال، ونوافيرها. وكانت في نظر معظمهم أكبر مدينة وأغربها رأوها في حياتهم.

طاف دونون بحي خان الخليلي مساء يوم الدخول نفسه. يرسم وهو يمشي، ويدون وهو يمر. بدت له المدينة عالمًا كاملاً متماسكًا، منظمًا وفق منطق لم يكن يملك بعد مفاتيح فك رموزه. وسيلزم شهور لبدء الفهم.

كان خان الخليلي قلب القاهرة التجاري منذ القرن الرابع عشر. متاهة من الأزقة المسقوفة تتكدس فيها محال الصاغة والنساجين وباعة التوابل والوراقين وصانعي النحاس والشبه. كان يهيم فيه منذ ساعة، ودفتره مفتوح، عاجزًا عن تثبيت رسومه لأن الحركة لا تتوقف أبدًا. الوجوه، والأقمشة، والبضائع. كل شيء يتوالى بسرعة فائقة.

لمحه تاجر عجوز للخط العربي، فأوماً إليه بالدخول إلى دكانه. قبل دونون. نشر الرجل أمامه أوراقًا مغطاة بإشارات لا يستطيع قراءتها لكنه أدرك على الفور قيمتها الجمالية. الخطوط المنحنية، ونقاط الإعجام الموزعة بدقة تجمع بين الرسم والكتابة. اشترى منها ثلاث ورقات بمبلغ زهيد. وأهداه التاجر ورقة رابعة ترحيبًا. أدهشه هذا التصرف. فبعد إطلاق النار في الإسكندرية، وبعد الريبة الملموسة في الشوارع، ها هو أحدهم يقدم له شيئًا. لم يكن ذلك تعاطفًا مع فرنسا. بل كان شيئًا أقدم. إنه الكرم كما عرفته هذه البلاد منذ آلاف السنين، قبل الفرنسيين، وقبل العثمانيين، وقبل العرب أنفسهم.

أما جومار، وكان أكثر واقعية، فاهتم على الفور بأبعاد المدينة. ثلاثمئة ألف نسمة تقارب نصف سكان باريس. لكنهم موزعون على مساحة أضيق بكثير، في أزقة ضيقة لا تتسع لأكثر من حمارين متجاورين. وكانت الكثافة طريقة أخرى لقياس حضارة. دون عروض الشوارع، والارتفاعات التقريبية للواجهات، والنسبة بين المساحات المبنية والأفنية الداخلية. وستفيده هذه المعطيات لاحقًا في تقديراته السكانية.

وأما بونايرت فقد رأى القاهرة مشكلة إدارية. ثلاثمئة ألف نسمة يجب حكمها بجيش من خمسة وعشرين ألف جندي منهكين. لم تكن النسبة في صالحه. كان يلزمه حلفاء محليون، وإدارة بالوكالة، وشرعية مستعارة. بدأ العمل مساء يوم دخول المدينة نفسه، بينما كان جنوده ينهارون من التعب.

التقى مونج وبرتوليه في فناء قصر مهجور يحتسيان القهوة المصرية التي قدمها خادم استأجرته الإدارة العسكرية في الصباح نفسه.

— ها نحن هنا، قال مونج وهو يرفع فنجانه. عبرنا البحر المتوسط، واستولينا على مالطا، وقطعنا الصحراء، وربحنا معركة الأهرام، وها نحن في القاهرة. ستة أسابيع من الإبحار، ومعركة، ونحن جالسون هنا في قصر مملوكي نشرب القهوة. — يبقى الأهم، أوضح برتوليه.

— وما هو؟

— أن نفهم ما أماننا. هذه البلاد. هذه الحضارة. كان الفتح العسكري هو الجزء السهل.

وفي الشوارع المجاورة، كان الجيش يستقر لقضاء الليل. أوامر تُصاح، وخيول، والصوت المكتوم للصدائيق وهي تُنزل. لم تكن القاهرة تنام بعد. ولعلها لا تنام حقًا أبدًا. وضع مونج فنجائه وتأمل الفناء. نخلة، وحوض من الحجر، ونجوم فوق الجدران. لقد أمضى اثنين وخمسين عامًا يعتقد أن العلم يفتح العالم. وقد كان يفتحه فعلاً. أما أن يكون الانفتاح مخيفاً إلى هذا الحد، فلم يكن قد توقع ذلك.

4 - معركة أبو قير

في الأول من أغسطس، هاجم نلسون السفن الفرنسية في خليج أبو قير. دامت المعركة ليلة كاملة. وفي الصباح كانت إحدى عشرة سفينة حربية من أصل ثلاث عشرة قد غرقت أو أسرت. أما لوريان، السفينة الأميرالية، فقد انفجرت.

كان الأسطول الفرنسي راسياً في صف واحد في خليج أبو قير الضحل منذ الأيام الأولى من يوليو، ينتظر أوامر الأدميرال برويس. ثلاث عشرة سفينة راسية جنباً إلى جنب، جانبها الأيمن نحو البحر وجانبها الأيسر نحو اليابسة. كان ذلك هو الترتيب الكلاسيكي لأسطول راس، الذي يحمي أحد جانبيه بالاستناد إلى الشاطئ. وقد اختار برويس هذا الموضع لأن ميناء الإسكندرية كان أقل عمقاً مما يلزم. وظن أن نلسون لن يستطيع الهجوم إلا من الأمام.

لكن نلسون أدرك ضعف هذا الترتيب. فإذا كان الخليج عميقاً بما يكفي لثلاث عشرة سفينة، فهو عميق بما يكفي للإبحار بين هذه السفن والساحل. لقد احتّمى الفرنسيون من جهة البحر المفتوح. وتركوا جانبهم الأيسر مكشوفاً، ظانين أن أحداً لن يجرؤ على التوغل في المياه الضحلة. فجرؤ نلسون.

بدأ الهجوم في السادسة والنصف مساءً، بينما كانت الشمس تهبط نحو الأفق. دخلت أربع عشرة سفينة بريطانية الخليج. خمس منها، وهي الأقل غاطساً، مرّت بين الخط الفرنسي والساحل. وهاجمت البقية من جهة البحر المفتوح. وجد الفرنسيون أنفسهم بين نارين، ومدافع جانبهم الأيسر لا فائدة منها لأنهم لم يتوقعوا القتال من هذا الجانب.

دارت المعركة في ظلمة متزايدة. فالسفن الفرنسية الأولى في الخط، وقد باغتها الهجوم، اجُثّحت قبل أن تتمكن من استدعاء أطقمها المتفرقة على اليابسة. ودُكت غيريبي وكونكيران وسبارتيات بالمدافع البريطانية من مسافة قريبة جداً. وفي الثامنة مساءً كان الليل حالاً. ولم يعد القتال يجري إلا على ضوء طلقات المدافع،

واللهب المتصاعد من السطوح المتضررة، والقمر الذي كان يطلع على البحر المتوسط.

كانت لوريان، السفينة الأميرالية ذات المئة والعشرين مدفعًا، في وسط الخط الفرنسي. وكانت أكبر سفينة في العالم، بُنيت في طولون عام 1791. وكان برويس يقودها من هناك، جريحًا لكنه رفض مغادرة موقعه. وفي التاسعة مساءً اندلع حريق في المؤخرة، حيث كانت أوعية الطلاء والزيت مبعثرة، وامتد إلى السطوح السفلى. وانتشرت النار حتى مخازن البارود. حاول البحارة إخمادها، لكن المضخات كانت قد دُمّرت بالطلقات السابقة.

وفي العاشرة مساءً انفجرت لوريان. كان الانفجار مرئيًا من الإسكندرية، على بعد ثلاثين كيلومترًا. ارتفع عمود من اللهب مئة متر في السماء الليلية. وتردد دوي الانفجار على امتداد الساحل كله. وتوقف القتال عشر دقائق. كَفَّ البريطانيون والفرنسيون عن إطلاق النار، مشلولين أمام عنف الدمار. وراحت شظايا ملتهبة تتساقط على البحر. وقُذفت جثث البحارة في الهواء وسقطت في الماء على بعد مئات الأمتار من السفينة. ولم يبقَ من لوريان شيء. ومن أصل ألف رجل من الطاقم، لم يُنشل إلا حفنة من الناجين.

استؤنف القتال بعد الصمت. حاولت السفن الفرنسية الناجية الدفاع عن نفسها، لكنها كانت محاصرة وقد فتك الموت بأطقمها. وعند فجر الثاني من أغسطس، كانت إحدى عشرة سفينة فرنسية قد دُمّرت أو أُسرت. ولم تتجح في الهرب نحو البحر المفتوح إلا سفينتان، غيوم تل وجينيرو. وكانتا ستقران نحو مالطا. أما البقية فقد غرقت، أو جنحت على الساحل، أو وقعت في أيدي البريطانيين.

كانت معركة أبو قير أعظم انتصار بحري لنلسون. وبلغت الخسائر الفرنسية عدة آلاف من القتلى والجرحى والأسرى. ولم يفقد البريطانيون أي سفينة. وعاد البحر المتوسط بحرًا لهم.

غيّرت تلك الليلة كل شيء. فبلا أسطول، صار الجيش الفرنسي سجين مصر. لا تعزيزات، ولا مؤن، ولا عودة. ثمانية وثلاثون ألف جندي ومئة وسبعة وستون عالمًا مقطوعون عن العالم.

بلغ النبأ بونايرت في 14 أغسطس، وهو على طريق القاهرة عائدًا من الصالحية. وما إن وصل إلى العاصمة حتى دعا إلى عقد مجلس حرب. وكان الغضب باديًا عليه.

— لقد أرسى برويس الأسطول في خليج أبو قير بدل أن يضعه في مأمن بالإسكندرية. وهاجم نلسون ليلاً. فدُمّر الأسطول. تلك هي حالنا.

كليبر — الذي جاء من الإسكندرية لهذه المناسبة، وهو في الخامسة والأربعين، ألزاسي، عملاق يقارب طوله مترين، والصرافة عنده عيب مهني — طرح السؤال الذي كان على أطراف شفاه الجميع.

— أيها الجنرال بونايرت، ما الاستراتيجية بعيدة المدى؟ إلى متى نبقى هنا؟ تردد بونايرت. فالقرار لم يكن قد اتُخذ بعد.

— نحن نسيطر على النيل يا كليبر. ومصر قادرة على إطعام جيشنا. ومالطا محتنة ما يكفينا للصمود. ونحن لا نتبع الديركتوار. فلنواصل. إن جيش الشرق مقطوع عن فرنسا. وقد صرنا مضطرين الآن إلى القيام بأمر عظيم. فإن لم نستطع العودة بحرًا عدنا برًا، عابرين سوريا وتركيا، أو مقيمين هنا حتى تتبدل الظروف. نحن أسرى هنا إلى أجل غير مسمى، قال مونج.

أما برتوليه، وكان أكثر رواقية وأشد استسلامًا من مونج، فحاول أن يهوّن من الوضع بوضعه في منظور تاريخي أوسع.

— الإسكندر بقي إحدى عشرة سنة بعيدًا عن مقدونيا يا مونج. وعملنا هنا سيبقى بعدنا. تمسك بهذا.

وبعد المجلس، وجد كليبر دونون في ممر القصر فأوقفه بيد وضعها على ذراعه. كان الألزاسي الجنرال الوحيد في الجيش الذي لا يتصنع أمام المدنيين. والوحيد أيضًا الذي لا يستأذن في طرح سؤال مزعج.

— لقد سمعت بونايرت. أعطى الأمر بالمواصلة. فما رأيك أنت؟

— أرى أنه لا خيار له. وأنه يعلم ذلك.

— ونحن؟

— نحن كذلك.

هز كليبر رأسه. لم يكن ذلك تشاؤمًا. تركه وعاد إلى ضباطه.

كان في هذا النوع من الكوارث شيء مفيد. ليس درسًا أخلاقيًا، بل درسًا في الاحتمال والمصادفة. فالمشاريع الكبرى لا تسقط دائمًا لأسباب كبرى. وأحيانًا تسقط لأن أميرًا أرسى سفنه في المكان الخطأ.

بلغ نبأ تدمير الأسطول العلماء بطرق شتى بحسب مواقعهم في تراتبية المعسكر. فبعضهم علم به من ضابط في هيئة الأركان كان يعبر الفناء. وآخرون من خادم مصري سمع الجنود يتحدثون.

في ذلك المساء، وقبل أن يعود إلى مسكنه، مرّ دونون بالملحقات الشمالية لقصر حسن كاشف حيث كانت المجموعات مخزنة. وفي يده فانوس ودفتر جرد مخطوط.

كانت الصناديق هناك: الصناديق الاثنا عشر المعنونة بخط يده، ومجموعات مونج ويرتوليه الرسمية. وفي الزاوية الشمالية الغربية، إلى جانب الجدار الخلفي، ثلاثة وعشرون صندوقاً بلا بطاقات. بلا رقم تسلسلي. بلا اسم مفوض. خشب عادي، أغلق على عجل بمسامير دُفَّت بشكل مائل. حاول أن يرفع أحدها. أثقل من أن يحمله رجل وحده. مرّت أصابعه في فرجة بين الألواح. قماش. وشيء صلب خلفه. لم يحاول فتحه عنوة. كان قد رآها ثلاث مرات منذ بداية الحملة. أولها في الإسكندرية، دون أن ينتبه إليها. كانت هناك بين صناديق أخرى. والثانية بعد معركة أبو قير، حين جاء يتفقد المجموعات على ضوء الفانوس. والثالثة صباح اليوم. لم تتحرك من مكانها، ولم يطالب بها أحد. كانت موجودة خارج المنظومة. خارج الاستثمارات والتفويضات ودفاتر الجرد. كانت ذلك الجزء من الحملة الذي لا اسم له.

دون وجود هذه الصناديق الثلاثة والعشرين في يومياته الخاصة، أسفل صفحة، مع التاريخ وعبارة: «المصدر مجهول. المحتوى لم يُتحقق منه.» ولم يحدث أحدًا عنها. فهذه الصناديق ستكون لشخص ما. سيطالب بها أحدهم، أو لا يطالب.

في عصر اليوم التالي، ذهب دونون إلى سوق التوابل في خان الخليلي ليرى إن كان الخبر قد شاع في المدينة. لم يتسرب. أو تسرب دون أثر ظاهر. كان التجار يبيعون. والمشترون يشترون. وأسعار الفلفل والقرفة لم تتغير عما كانت عليه في الأسبوع السابق.

أشار إليه تاجر أقمشة يعرفه بالنظر أن يقترب. نطق الرجل بكلمات قليلة بالعربية، مشيرًا إلى السماء، ثم إلى البحر في الشمال، ثم ضمّ يديه وفرّجهما فجأة، وهي الإشارة العالمية للانفجار.

— إنهم يعلمون، قال دونون لمت ترجمه.

— يعلمون منذ مساء أمس. الأخبار تسري بسرعة في الأسواق. يقولون إن الأسطول الفرنسي دُمر وإنكم الآن أسرى هنا.

— وماذا يظنون في ذلك؟

تبادل المترجم بضع جمل مع التاجر. ثم التفت إليه.

— يقول إن الفرنسيين ليسوا أول من وقع في الفخ في مصر، وإن المماليك أيضًا ظنوا أنهم باقون، وإن النيل سيظل جاريًا حين ترحلون، وأيضًا إنكم إن أردتم شراء قماش فهو يعرض صفقة جيدة اليوم.

اشترى دونون قطعة من قماش النيلة. لا لسبب نافع، بل لأن لونها كان جميلًا ولأنه أراد أن يكون قد فعل شيئًا ملموسًا في هذا اليوم.

أما ما شغله أكثر في الساعات التالية فكان فكرة ملموسة: كيف ستعود دفاتر جومار، ورسومه هو، ومجموعات جوفروا إلى فرنسا؟ فالعلم كان يسافر على السفن نفسها التي تسافر عليها الحرب.

في ذلك المساء، بعد مجلس الحرب، التقى العلماء في الفناء الداخلي للقصر. لم يقترح أحد أن يجتمعوا هناك. كانوا هناك، الواحد تلو الآخر، تجذبهم الحاجة نفسها إلى ألا يبقوا وحدهم مع النبأ.

وصل برتوليه بعد دقائق قليلة وفي يده ورقة حسابات. جلس ووضع الورقة على مكتبه، وقال لمونج دون مقدمة:

— لقد قدرّت المؤن المتاحة: دقيق وزيت وأرز ولحم مجفف. ويتقنين سليم يستطيع الجيش أن يصمد ستة عشر شهراً دون إمداد خارجي. لن نموت جوعاً.

— ليس الجوع ما يشغلني، قال مونج.

— أعلم. لكنه ما أستطيع أن أحسبه.

كان فوربيه جالساً بعيداً، تحت الرواق. لم ينطق بكلمة. وكان الآخرون قد تعلموا ألا يفسروا هذا الصمت على أنه لامبالاة. فقد كان فوربيه يفكر بطريقة غير طريقتهم. كان يحتاج إلى الرياضيات ليعالج ما لا تستطيع الكلمات أن تحتويه. كان فقدان الأسطول مسألة متعددة المتغيرات: المؤن، والتعزيزات، وطرق الانسحاب الممكنة. أما كتابة المعادلات التي تربط بينها فكانت تستعصي عليه. لم يكن ذلك برودة. كانت تلك طريقتة في الخوف.

— مجموعائنا. كيف ستعود؟

لم يجب أحد على الفور. كان ذلك هو السؤال الذي طرحه الجميع على أنفسهم ولم يشأ أحد أن يصوغه أولاً.

— الدفاتر تعود في جيوبنا، أضاف جومار. القياسات والملاحظات والرسوم التخطيطية. ما يُحمل في بضعة كيلو غرامات لكل رجل يمكنه أن يعبر أي شيء.

— والصناديق؟ قال دونون. عينات جوفروا. موميوات برتوليه. الفخاريات والبرديات والتماثيل الصغيرة. كل ما هو ثقیل.

وضع برتوليه ورقة حساباته.

— كل ما هو ثقیل معرض للخطر. لا بد من الإقرار بذلك. إن سيطر الإنجليز على شرق المتوسط، فكل ما نريد شحنه قد يقع في أيديهم.

عبر قطّ البلاط واختفى تحت الرواق. وفي مكان ما من المدينة بدأ المؤذن أذان الليل. صوت طويل متعرج يرتفع وينخفض على لحن كان قد سمعه كل ليلة منذ الأول من يوليو، ولم يكفّ عن أن يبدو له غريباً.

— قال بونابرت إننا سنعود عبر سوريا إن لم نستطع العودة عبر البحر، قال مونج.
— بونابرت يقول أشياء كثيرة، أجب برتوليه. وهو الليلة محق في قولها. فالجيش
بحاجة إلى أن يصدّق.

بقوا ساعة في الفناء، بلا خطة، بلا قرار، معًا فحسب.

نهضوا كلٌّ على حدة وعاد كل منهم إلى غرفته. لم يكن لديهم ما يفعلونه غير ذلك.
جلس دونون إلى طاولة عمله وكتب.

«لقد فقدنا الأسطول قبل ثلاث عشرة ليلة، دون أن نعلم. أقول “نحن” لأنها الكلمة
الصحيحة. هذه الخسارة جماعية حتى وإن لم أكن في أبو قير، وحتى وإن لم أكن
بحارًا. إن ما فقدته مع الأسطول هو اليقين بأن ما رأيته هنا لن يعود إلى فرنسا، أو
على الأقل ليس في صورة أكون قد اخترتها. دفاتري ورسومي، والتماثيل الصغيرة
والتعاويز، وهي منتان وأربعون قطعة اشتريتها من أسواق سقارة ومنف. كل ذلك
رهينة الآن لوضع عسكري لا سلطان لي عليه.»

توقف. أعاد القراءة. شطب الجملة الأخيرة. كانت شاكية أكثر مما ينبغي. وأعاد
دونون الكتابة.

«ما يشغلني هذه الليلة ليس الخوف. لا أظن أننا سنموت هنا. سيجد بونابرت شيئًا،
فهو يجد دائمًا شيئًا. ما يشغلني مسألة أكثر تجريدًا: ما جدوى الشهادة إن لم يستطع
الشاهد أن يعود؟ الرسوم التي رسمتها للأهرامات وأبي الهول والنقوش البارزة في
سقارة، لها قيمة إن رآها أحد. أما وهي محبوسة في صندوق بالقاهرة فلا قيمة لها
أكثر من الحجر الذي تصوّره.»

وضع قلمه.

كانت دفاتر رسومه كلها معًا تزن نحو اثني عشر كيلو غرامًا. أما التماثيل الصغيرة
والتعاويز في صناديقها الخشبية فنحو أربعين كيلو غرامًا. يستطيع رجل أن يحمل
اثني عشر كيلو غرامًا على ظهره في مسيرة طويلة. أما الأربعون كيلو غرامًا
فتتطلب حصانًا أو بغلاً. وخيول الجيش وبغاله لم تكن متاحة للمجموعات الشخصية
لرسام مدني.

وضع قائمة بما يمكنه أن يحمله بنفسه إن اقتضى الوضع ذلك. الدفاتر، في الأولوية
المطلقة. وأدوات رسمه — أقلام وفحم وأحبار — بضعة كيلو غرامات. ومن بين
القطع المشتراة، أصغرها وأثمنها: الجعارين من الفخار المزجج والستياتيت،
والتعاويز من اللازورد والعقيق، والأوشابتي الخشبي المطلي ذو الذراعين
المتقاطعتين. ما يتسع له جراب جلدي.

أما الباقي — الفخاريات وشظايا النقوش البارزة والأواني الكانوبية المصنوعة من المرمر — فسيبقى. فإن رحلوا سيرًا على الأقدام عبر سوريا، كما كان بونايرت يذكر، لم يكن بالإمكان تحميل فخاريات على ظهر رجل يسير في الصحراء.

علمه هذا الانتقاء القسري شيئًا لم يكن يتوقعه. منذ الرحيل كان يظن أنه بوثق مصر ليحملها إلى فرنسا. أما الآن فقد فرض الواقع نفسه. فما سيعود به سيتوقف على ما يمكن أن ينتقل فعليًا أكثر مما يتوقف على ما اختاره. إن الحكاية التي تُروى عن بلد ما هي حكاية ما أمكنه أن يعود. وما عدا ذلك لا يُحتسب.

كتب سطرًا أخيرًا:

«إن وصلتكم هذه الدفاتر ولم أصل أنا، فذلك لأنها سافرت وحدها. ولعل ذلك أفضل طريقة للسفر. فالأشياء أخف من الرجال.»

طوى الورقة ودسها في الدفتر الأول، بين صفحات طولون. ثم أطفأ المصباح وانتظر النهار.

5 - المجمع العلمي المصري

بعد ثلاثة أسابيع من أبو قير، فيما كان الجيش يهضم الكارثة البحرية، أسس بونايرت بمرسوم المجمع العلمي المصري في 22 أغسطس 1798، بعد تسعة وعشرين يومًا من الاستيلاء على القاهرة.

كانت مهمة المجمع الرسمية دراسة البلاد في جميع أبعادها — الطبيعية والتاريخية والاقتصادية — والإجابة عن الأسئلة التي لم تكن الإدارة العسكرية قادرة على حلها وحدها. وكان المجمع ينعقد في قصر حسن كاشف. وكان بونايرت نائبًا لرئيسه، ومونج رئيسًا له. وفي كل خمسة أيام كان العلماء يجلسون في القاعة الكبرى ويستأنفون أعمالهم.

ترأس مونج الجلسة الأولى.

كان قد درّس الهندسة الوصفية لأبناء حرفيين كانوا يتعلمون القراءة في الوقت نفسه الذي يتعلمون فيه المقاطع المخروطية. وقد أسست مدرسة البوليتكنيك لكي تحل الجدارة محل النسب. وبالنسبة إليه لم تكن مصر فتحًا. كانت دليلًا على أن فرنسا الثورية قادرة على أن تنتج ما لن تنتجه الملكيات أبدًا، بعثة علمية في قلب حملة عسكرية.

افتتح النقاش بكلمات قليلة:

— نحن هنا لنفهم، لا لنغزو. أطلب منكم ألا تنسوا ذلك أبدًا.

جالسًا في الصف الأخير، دَوّن دونون العبارة.

كان بونابرت يأتي كثيرًا. وكان العلماء يقدّرون أن يصغي إليهم من يمسك بالسلطة. — أيها السادة، كانت مصر أكثر بلاد العالم تحضرًا. ثلاثة آلاف سنة من التاريخ مدفونة. وستستخرجونها. قيسوا وارسموا واجمعوا. ودرسوا مصر اليوم أيضًا. فالعلم يجب أن يخدم الأحياء كذلك.

بعد أسابيع قليلة، قضى دونون عدة أيام في رسم الأهرامات من كل الزوايا. وتسلق جومار إلى قمة الهرم الأكبر. ثلاث ساعات من الصعود على الكتل الحجرية. المنظر من هناك: الصحراء في الغرب، ووادي النيل في الشرق، والقاهرة في الشمال الشرقي.

— يا له من منظر، همس للمهندس المعماري بلزاك. مصر كلها في نظرة واحدة. — نعم. ومن هناك سأتمكن من ضبط أرصادي على الأوجه الأربعة. قاسوا بقايا معبد بتاح، إله منف الخالق. وفي التراب كانت ترقد شظايا تمثال ضخم من الغرانيت الوردي، سيُنسب لاحقًا إلى رمسيس الثاني.

كان العمل شاقًا لا شكر عليه. فقد كان التمثال محطّمًا إلى قطع عدة متناثرة بين الأعشاب. وكانت استعادة القياسات تقتضي الجمع، وتعويض الثغرات، وتقدير الأجزاء المفقودة.

قراءة الظهر، جلس جومار في ظل الرأس. يبلغ ارتفاعه نحو مترين. تأمل الوجه. كان الفم يبتسم قليلًا. تلك الابتسامة الخاصة بعمالقة الدولة الحديثة، لا حانية ولا مهددة، حاضرة فحسب منذ ثلاثة عشر قرنًا قبل ميلادنا. وكان الأنف مكسورًا، ربما على أيدي جنود من القرون الوسطى ظنوا أنهم يهدمون سلطانًا بهدم الوجه. وكان الصلّ — الكوبرا الملكية على الجبهة، علامة السيادة الإلهية — قد اقتُلِع ولم يبق منه إلا الأثر. أما النمس فكان سليمًا، وخطوطه المتوازية مقروءة تحت الغبار.

على الحزام — عند مستوى الوركين، حيث ذهبت الساقان المحطمتان ببقية التمثال — لمح جومار خرطوشًا. ببضاويان مستطيلان محاطان بخط متصل: الأسماء الملكية، التي لم يكن أحد يعرف قراءتها بعد.

لم يكن ممكنًا حمل الرأس. كان يزن عدة أطنان. وقد نُحت من كتلة واحدة من الغرانيت الوردي، استخرجت من محاجر أسوان.

كان رجل عجوز يجلس القرفصاء في ظل الرأس الضخم ويراقب جومار منذ لحظة. حارس ربما، أو مجرد شخص جلس هناك قبله ولم يتحرك. أراه جومار دفتره، ومخطط الحسابات. تكلم الرجل، لكن جومار لم يفهم. ثم التقط غصنًا صغيرًا ورسم

في التراب، بجانب قدم التمثال، خطين متوازيين وثلاثة خطوط مائلة تعبرهما. مخطط. يختلف عن مخططه، لكنه مألوف: حمل يتحرك على مستوى مائل. بقيا على هذه الحال لحظة، رجلان ومخططان في التراب. كان أحدهما يملك الأدوات، وكان الآخر يملك الذاكرة. حساب ذهني. كتلة من ثمانين طنًا. على قارب. قوارب النيل معروفة. مراكب مسطحة خفيفة، لا تقوى على حمل أكثر من عشرين طنًا. فكيف تُنقل ثمانون طنًا على الماء؟

كان الجواب البديهي: ليس على قارب واحد. بل على عدة قوارب مجمعة في طوف عائم، مربوطة معًا، والتمثال موضوع على عوارض خشبية تصله بجميع المراكب. وأشار الحساب إلى أنه يلزم عشرة قوارب على الأقل من الحجم المعتاد مشدودة في تشكيل محكم.

عشرة قوارب. مئات الأمتار من الحبال. مئات الرجال. لنقل تمثال إلى معبد.

لم يكن ما أدهشه هو الإنجاز التقني، فهو صعب لكنه ممكن. كلا، كان القرار ذاته. أن يُقرَّر نقل ثمانين طنًا عبر تسعمئة كيلومتر من الماء فذلك يفترض يقينًا: اليقين بأن النتيجة تستحق العناء، وبأن التمثال سيظل قائمًا بعد ألف عام، وبأن الإمبراطورية التي أراد الفرعون تمجيدها ستدوم.

لقد أخطأ الفراعنة. فالإمبراطوريات لا تدوم. أما التماثيل فتدوم. وهذا التمثال كان ملقى في التراب، محطماً لكنه حاضر، مرئي، قابل للقياس، حقيقي.

ربما لم تكن عظمة مصر القديمة كامنة فيما أنجزته بقدر ما كانت كامنة فيما أعدته لتتركه. فهذه الصروح لم تُبن لمعاصريها. لقد بُنيت لنا.

مرّ دونون ومعه دفتر الرسوم، وتوقف حين رأى جومار جالسًا في ظل رأس التمثال العملاق.

— أتأمل؟

— أنا أقيس. والأمر سيّان.

في ديسمبر، أحصى برتوليه ما أنجز منذ يوليو. مئات الدفاتر المملوءة، وآلاف العينات، ومذكرات في الجيولوجيا والري والتحنيط والزراعة واللغات. خمسة أشهر من العمل. أغلق السجل. فالبلاذ لن تبوح بأسرارها إلا لمن يمكنون فيها زمناً طويلاً جداً.

كان ديزيه يطارد مراد بك في صعيد مصر منذ الصيف. وقرر بونابرت أن يرسل في أثره لجنة من العلماء، تتطلق في منتصف ديسمبر 1798 لدراسة آثار طيبة. وتطوع دونون.

كانت مسألة المجموعات تطرح أصلاً مشكلات لا يريد أحد حلها بوضوح. فقد كان العلماء يجمعون عيّنات طبيعية — معادن وحيوانات محنطة ونباتات مجففة — بموافقة ضمنية من بونابرت، الذي رأى فيها أسس متحف مصري مقبل في باريس. أما القطع الأثرية فكانت تدرج في فئة أخرى، أشد التباساً من الناحية الأخلاقية.

عاد جوفروا سانت هيلير من سوق السمك في إمبابية ومعه ثمانية أنواع لم يسبق له أن رآها.

كان تشريح سمكة مجهولة بالنسبة إليه حواراً. شقوق وملاحظات وتدوينات ومقارنة بما يحفظه من تشريح أنواع أوروبية. كان التنظيم الداخلي للأسماك ثابتاً على نحو لافت من نوع إلى آخر. الأعضاء نفسها في المواضع نفسها، مع اختلافات تعكس أنماط عيش متباينة. فسمكة القاع تختلف مواضع عينيها عن السمكة السطحية. لكن المخطط الكامن كان متشابهاً.

ثبات المخطط التشريحي هذا عبر تنوع الأنواع هو ما بدأ يلحظه دون أن يعرف بعد كيف يصوغه. فلو كانت الأنواع قد خلقت منفصلة، كما يقول المذهب السائد، فلماذا تشترك في مخطط بهذه الدقة؟ أما الجواب — أنها تنحدر من سلف مشترك — فكان فكرة خطيرة. وكان كوفييه، الأستاذ في المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي، سيرفضها. وكانت الأكاديمية تنتظر إليها بعين الريبة.

كانت السمكة الرابعة قيد التشريح حين دخل دونون وتوقف أمام الرائحة.

— ما زلت تعمل.

— نعم. هذه أسماك فيلية. متوطنة في النيل والكونغو. هذه الأعضاء الكهربائية تحت الذيل، وأسماك الأمازون لديها أعضاء مماثلة، نشأت على بُعد عشرة آلاف كيلومتر دون أي اتصال. هذه ليست مصادفة. إنها قيد تشريحي.

ومن بين الأنواع الثمانية التي جلبت ذلك الصباح، استوقفته إحداها فجأة. كان قد اشتراها من صياد لم يفهم لماذا يهتم الفرنسي بسمكة عادية كهذه.

ووضعت السمكة في حوض الملاحظة الخاص به، وهو طست من الفخار مملوء بماء النيل. كان طولها نحو ستين سنتيمتراً، بنية ذهبية، مكسوة بحراشف سمكية كأنها دروع مفصلية. سباحتها بطيئة، بوقار زاحف.

وما استوقف جوفروا كان الزعانف الصدرية.

لم تكن زعانف مسطحة شعاعية، كتلك التي في جميع الأسماك التي شرّحها منذ بلغ العشرين. بل كانت زوائد لحمية فصية، يحملها بناء داخلي يشبه طرفاً.

قضى الليل في دراسة السمكة وهي حيّة، ثم في تشريحها. كان البناء الداخلي للزعفة يحتوي على ما يشبه عظم العضد، عظمة طويلة مركزية تتفرع منها أشعة.

وهذه السمكة، التي سيسميتها *بوليتيروس بيشير*، لا علاقة لها بالأمريكتين. ومع ذلك فإن زعانفها تشترك في المخطط التشريحي الأساسي نفسه. كتب جوفروا إلى كوفيه ذلك المساء. كان كوفيه في باريس. فقد رُفض إبحاره إلى مصر، لشدة المخاطرة وعدم اليقين. وكانت رسائلهما تتقاطع في البحار متأخرة أشهرًا.

«صديقي العزيز، كتب جوفروا، وجدتُ هنا ما يبهر وحده رحلتنا. سمكة تبدو كأن لها ذراعين. ليست ذراعين بالطبع، بل زعنفتين. لكن لها مخططًا داخليًا يشبه مخطط طرف، وهو نفسه، تمامًا هو نفسه، في أنواع لم يكن بوسعها أن تلتقي قط. ما زلت لا أعرف ماذا أظن في ذلك. لكن لا يمكن أن يكون هذا محض صدفة.» لم يرد كوفيه على هذه النقطة طوال أشهر عدة. وحين ردّ، قال إن أوجه الشبه لا تعني أصلًا مشتركًا. وإن الله قد يكون استعمل المخطط نفسه في ظروف مختلفة.

6 - ثورة القاهرة

كان جومار قد بدأ يدوّن يوميات للمدينة. لا يوميات حميمة — فليس هذا من طبعه — بل جردًا: السكان المقدّرون في كل حي، وكثافات البناء، وعروض الأزقة، وارتفاعات الواجهات، ومساحات الأسواق. وأضيفت إليها ملاحظات عن حركة المرور، وساعات فتح الأسواق، وجغرافية الماء، والنوافير وأحواضها. في ذلك المساء، عشية ما لم يكن يعرف بعدّ أنه الثورة، خرج بفانوسه لقيس ساحة الأزبكية. كانت الساحة قلب الوجود الفرنسي في المدينة. هناك أقام بونايرت مقر قيادته، وهناك كانت تقام الأسواق والاحتفالات الرسمية والتجمعات العسكرية. وكان أهل القاهرة في أغلبهم يعبرونها دون أن يتلبّثوا، بنظرات مخفوضة وخطى سريعة.

كان يقيس زوايا الساحة، ويدوّن المسافات بحبل مُعابر، حين لاحظ مجموعة من الرجال جالسين قرب نافورة يراقبونه وهو يعمل. نهض أحدهم واقترب. نطق بكلمات قليلة بالعربية لم يفهمها جومار. ثم أشار إلى حبل القياس وقال جملة أخرى. فسرها جومار على أنها سؤال عمّا يفعل. أراه المخطط الجزئي للساحة الذي رسمه. تفحصه الرجل بانتباه، وقَلب الدفتر، وأمسكه بعيدًا عنه بذراع ممدودة. ثم قال جملة لرفاقه. فضحكوا. ضحكة لم تكن ساخرة، بل مندهشة.

لم يعرف جومار قط ما قالوه. كانوا قد تعرفوا، في ظنه، إلى ساحتهم في الرسم. ولعل هذه كانت المرة الأولى التي يريهم فيها أحد مدينتهم كما تُرى من الأعلى. أو

ربما كانوا يضحكون لأن الفرنسي الشاب بحبله يحاول قياس شيء لا يحتاج إلى قياس. يستحيل أن يُعرف ذلك.

في 21 أكتوبر 1798، انفجرت العداءة الكامنة لدى أهل القاهرة. وكانت الشرارة ضئيلة. مشاجرة بين جندي فرنسي وتاجر.

عند فجر 21 أكتوبر، اجتاح آلاف المنتفضين، المسلحين بالسيوف والرماح والعصي، شوارع القاهرة. ودُبح الجنود المعزولون وقُطعت رؤوسهم. وتحصنت الأحياء المنتفضة بالمباريس. كانت الانتفاضة قد احتاجت إلى ثلاثة أسابيع لتتضح. وانفجرت في صباح واحد.

أيقظت طلقات النار بونابرت. فأمر جميع القوات المتاحة باستعادة المدينة حيًا حيًا. — يجب سحق هذا التمرد دون إبطاء، صاح في جنراته. إن أبدنا أدنى ضعف أبعد جمعنا قبل المساء. أطلقوا النار على كل تجمع معادٍ، دون إنذار.

قصفت المدفعية الأحياء المنتفضة. وكانت البيوت المبنية من الطوب النيء تنهار في سحب من الغبار. وكان المشاة يمشطون الشوارع. واقتحم الجامع الأزهر. تدنيس روع المسلمين جميعًا في مصر.

دام القمع ثلاثة أيام. وأمر بونابرت بإعدام جميع زعماء الثورة الذين أسروا أحياء. وعلى مدى عدة ليالٍ قُطعت رؤوسهم في القلعة، وأُلقيت الجثث في النيل. لم ينتظر دونون نهاية القمع ليخرج. نصحه خادمه المصري، وقد استبد به الذعر، بالعودة. فلم يأبه.

ما رآه في طرقات الحي الذي كان يسكنه سيبقى منقوشًا في ذاكرته. مجموعات من الرجال المسلحين. دكاكين تحترق. رائحة الدخان وشيء آخر تحتها، عرفه ولم يسمه. جندي فرنسي ملقى في زقاق. ميت. نساء يصرخن من النوافذ. طفل يركض. والجيش الفرنسي، وقد باغته الأمر، يستغرق وقتًا في تنظيم رده.

— عُد إلى بيتك، بحق السماء، صاح ضابط حين رآه ومعه دفتر رسومه. ليس هذا وقت الرسم.

— بل على العكس، هذا هو الوقت بالضبط. بعد خمسين عامًا لن يعرف أحد ما جرى هنا إن لم يدونه أحد.

ثم عاد في النهاية بعد ساعة، وراقب ما تلا من نافذة طابقه الأول. جنود فرنسيون يطوقون مجموعة من المنتفضين في زقاق. وفتح مسجد أبوابه ليأوي الهاربين.

أغلق دونون النافذة. في الشوارع كانت الطلقات مستمرة. وفي المجمع، على بعد بضع مئات من الأمتار، كان بقية العلماء يعيشون الليلة نفسها على نحو آخر.

كان العلماء محبوسين. لا بقرار عسكري. فيونايرت لم يهتم بتنقلاتهم في عجلة المعارك. كانوا محبوسين بحكم الضرورة: جنود فرنسيون يُذبحون على منتي متر من هناك، ومنفقون مسلحون في كل الأحياء، وطلقات نار متواصلة منذ الفجر. استقر فوربيه في القاعة الكبرى للمجمع بدفاته وعمل على معادلاته. كان يفكر، دون أن يكون قد صاغ من ذلك نظرية، في الكيفية التي تنتشر بها الحرارة في الأجسام. إنها تنتشر وفق قوانين دقيقة لا تتبدل. أما أعمال الشغب فلا تنتشر وفق هذه القواعد. وكان ذلك سبباً إضافياً لتفضيل الفيزياء.

قراءة منتصف الليل، لحق به جومار بفانوس. دخل برتوليه نحو الثالثة صباحاً، دون سابق إعلان. جلس، وراقب الآخرين وهما يعملان برهة.

— ماذا تحسب؟ قال لفوربيه.

— كيفية انتشار الحرارة في وسط غير متجانس. لم أصل بعدُ إلى المعادلات. — مفيد. المبنى الذي على اليسار يحترق منذ الصباح. ومع شيء من الحظ سنتنبأ تأملاتك بما إذا كان مبنانا سيُصاب قبل الفجر.

— واصلوا العمل، أضاف وهو يخرج. هذا هو الشيء الوحيد الذي يميز وجودنا هنا عن احتلال عادي.

عملوا في صمت حتى الصباح الباكر، كل منهم في حساباته، بينما المدينة تحترق في الخارج.

أما مونج فكتب رسالة إلى زوجته. لم يعد هناك بريد منتظم منذ أبو قير. كتبها مع ذلك. وما كتبه في تلك الرسالة لن يعرفه دونون أبداً. والمعروف أنه ختمها بعناية وحملها بعد ذلك في سترته حتى مغادرة مصر، بعد عام.

في 25 أكتوبر، خرج العلماء بحذر من المجمع. ثلاثة أيام وهم متحصنون يصغون إلى الطلقات. وأحياء بكاملها لم تعد سوى أطلال تتصاعد منها الأدخنة.

خرج دونون إلى الشوارع المدمرة ورسم.

أو على الأقل حاول. أمامه بيت منهار، واجهته نسفتها قذيفة، وعوارض الخشب المتفحمة مطروحة عرض الطريق، وفي الغبار حذاء طفل. رسم خط قمة ما بقي واقفاً. في الجيزة كان قد رسم الأهرامات والموتى في المقدمة. وفي مالطا كان قد رسم الأعمال التي تُحمل والتي تُترك. وكان دونون يرى دائماً أن الرسم شهادة، وأن الشهادة محايدة. فالقلم لا معسكر له. ما كان موجوداً قد نُتِبَ. لا أكثر.

لكن هذا البيت بالذات هدمه جنود فرنسيون. مدفعية الجيش الذي كان يسافر في صفوفه. الجيش الذي كان يعتمد عليه في طعامه وتنقله وعمله. والوثيقة التي

سينتجها برسمه هذه الأطلال ستكون وثيقة قمع كان وجوده هنا، على نحو ما، يضيف عليه الشرعية. لم يكن ذلك كرسم الأهرامات.

رسم دونون مع ذلك. لا عن اقتناع. بل بدافع رد فعل آلي. امتلأت الصفحة. وحين أغلقها، ظل لا يعرف ما فعل. شيئاً ضرورياً، أو شيئاً مشيناً. ولعله الأمران معاً.

وأبعد في الزقاق، باب خشبي منقوش ملقى منتزحاً من مفصلاته. ودكان من دكاكين السوق مبقر البطن، رفوفه مقلوبة، وصندوق نحاسي مفتوح فارغ. كانت في أزقة هذا الحي المدمر الحركة الأساسية نفسها التي كانت في قصر حسن كاشف حين كان المفوضون يملؤون قوائمهم. ببساطة، بلا معايير، بلا تمييز. كان الجيش ينهب كما كان المجمع يجمع. اختلفت الكلمة. أما الحركة فكانت قريبة النسب.

ذلك الصباح، حين جاب الشوارع المدمرة، كان حسن يمشي أمام دونون ليفتح له الطريق. قرب جامع ابن طولون، وجدا جنديين فرنسيين منمهيكين في إفراغ دكان حائكين. كانت الأقمشة تخرج من الباب في حزم، مكدسة على عربة يد خشبية. حريريات وقطنيات مصبوغة وكتان أبيض مدخر للمناسبات الكبرى. وكان أحد الجنديين ينزع نولاً من حامله المثبت في الجدار.

كانت صاحبة الدكان في إطار الباب الخلفي، امرأة تلبس السواد. تنتظر دون كلام. لا توصل ولا صراخ. فقط عيان تتبععان كل حزمة. مرّ الجندي قريباً بالعربة فتراجعت خطوة واحدة بالضبط، لا أقل ولا أكثر.

بقي حسن في الشارع. لا ترجمة. لا شيء يُترجم. لكن دونون نظر إليه لحظة، إلى حسن الذي يراقب المرأة التي تتفحص الجنود، وأدرك أن الوسيط يرى هو أيضاً. وأن الرؤية دون القدرة على الفعل لها لون خاص على الوجه. لا تدوين لذلك. فبعض الوجوه لا تُكتب في الدفاتر.

في مساء ذلك اليوم، عاد حسن إلى بيته، في الحي القبطي حيث كان الجيش يستأجر له غرفة. لا في صف الجنود ولا في صف المنتفضين. في صف اللغة. مترجم على جانبي خط لا يستطيع عبوره. أوامر فرنسية مترجمة. توسلات عربية مترجمة. وفي بعض الأيام لم يعد يعرف بأي لغة يفكر. أما هذا المساء فلم يفكر بأي لغة.

رسم دونون الدكان المفرغ. المسامير في الجدار حيث كانت الأقمشة معلقة، والأثر الأعرق على الأرض حيث استقر النول سنوات طويلة، وإطار الباب وفيه المرأة ذات الثياب السود تنتظر. عمل سريع، بلا تعليق، بلا تاريخ. وحين انتهى كان الجنديان قد مضيا بالعربة. ودخلت المرأة إلى الدكان وأغلقت الباب الداخلي.

بعد انتهاء القمع، استدعى بونايرت الأعيان الناجين وعلماء الدين الذين لم يشاركوا فعلياً في الانتفاضة ليشرح لهم بوضوح العواقب الرهيبة لأي محاولة تمرد مقبلة.

— لقد رأيتم ما يحدث. أحياءكم المدمرة. زعماءكم المعدمون. الأزهر المقصوف. إن تمردتم من جديد فسأسوي المدينة كلها بالأرض.

— تكشف هذه الثورة عن استحالة موقفنا من أساسه، قال مونج لبونابرت في المجلس الذي أعقب القمع. لا يمكننا أن نحكم هذا البلد بالقوة العسكرية وحدها إلى ما لا نهاية. فالسكان معادون لنا وسيظلون كذلك ما دما هنا محتلين أجانب.

انتهى ذلك المجلس متأخراً. واستدعى بونابرت مونج صباح اليوم التالي. لا في القصر، بل في الفناء الداخلي لبيت مصائر قرب ساحة الأزبكية، بعيداً عن الضباط. كانت هناك قهوة ومقعدان. وكان بونابرت واقفاً.

— قلت إننا لا نستطيع أن نحكم بالقوة وحدها. أنت محق. ماذا تقترح؟

لم يكن مونج قد توقع أن يُستشار في هذه المسألة. قال ما يراه مع ذلك.

— مؤسسات. لا بيانات. مؤسسات حقيقية. محاكم تعمل وفق قواعد معروفة. مدارس. نظام ملكية عقارية يحمي الفلاحين من التعسف. ما فعلته الثورة في فرنسا، لكن هنا.

— في كم من الوقت؟

— جيل على الأقل.

— ليس لدينا جيل. لدينا ربما عامان.

— إذن لا يمكنكم أن تحكموا هذا البلد. ليس حقاً. يمكنكم أن تحتلوه. وهذا مختلف. نظر إليه بونابرت طويلاً.

— سيكفي الاحتلال لما أريد أن أفعله.

لم يسأل مونج عما يريد بونابرت أن يفعله.

وفي مساء ذلك اليوم كتب مونج في مذكراته: «يعلم بونابرت أنه لا يحكم. فالاحتلال يُدار ولا يُحكم. والفرق لا يعنيه كثيراً. أما أنا فيعنيني كثيراً. ولا أزال لا أعرف إن كان يعني المصريين».

وفي الأسابيع التي تلت القمع، عاد إلى المدينة ضرب من الحياة الطبيعية الهشة. فتحت الأسواق أبوابها من جديد. واستقبلت المساجد مصلّيها، إلا الأزهر الذي ظل مغلقاً. واستأنف الجنود الفرنسيون دورياتهم. وعاد العلماء إلى جولاتهم في المدينة بدفاترهم وأدواتهم.

عاش العلماء حضورهم في القاهرة بعد الثورة على نحو مختلف. فقد تحطم وهم التعايش السلمي مع السكان. وظلوا يعملون، ويترددون على الأسواق، ويحافظون على صلاتهم ببعض وجهاء القاهرة. غير أن عنفاً كامناً كان قادراً على أن يطل من جديد في أي لحظة.

كان دونون في أعين أهل القاهرة ما كان دائماً في أعين الآخرين. فرنسيًا، أي محتلاً، أي عدوًا محتملاً.

كانت معظم الدكاكين قد فتحت أبوابها من جديد. وكان الصنّاع يعملون. وعادت الحياة إلى مجراها.

وفي زقاق خلف الأزهر، عثر دونون على كتاب يستأنف تلاميذه دروسهم. أطفال جلسوا في حلقة حول شيخ هرم يقرأ بصوت عالٍ ويجعلهم يرددون وراءه. رفع الشيخ عينيه حين مرّ، ونظر إليه، ثم عاد إلى قراءته دون أن يتغير وجهه.

كانت أصوات الأطفال تتلو نصًّا لا يفهمونه على الأرجح بعد، بلغة ربما لم يعد أبائهم يقرؤونها. وكان فانثور دو باراديس، المستشرق الذي عمل زمناً طويلاً في موانئ المشرق وبلاد المغرب، قد قال له إن النقل يسبق الفهم. فالكلمات تدخل الجسد أولاً، ثم يأتي المعنى. أما الفعل نفسه فكان مفهوماً: أن تنقل، أن تواصل، ألا تدع الانقطاع يتحول إلى قطيعة.

لقد جُرحت المدينة. وستندمل على طريقتها، بايقاع لا يتحكم فيه الفرنسيون ولن يفهموه تماماً. لم يكن ذلك صموذاً بالمعنى البطولي. كان فقط قدرة كائن حي على مواصلة وظائفه الأساسية رغم الانقطاعات. كانت الأسواق تفتح لأن الناس جائعون. وكانت المساجد تستقبل مصلّيها لأن الصلاة لا تنقطع. وكان الأطفال يتلون دروسهم لأن النقل لا ينتظر أن ينتهي المحتلون من قتالهم.

7 - أبو الهول والمقابر

في نوفمبر، نظّم دونون بعثة إلى أبي الهول. انطلقوا قبل الفجر ليصلوا مع ضوء الصباح المائل، الضوء الوحيد القادر على إبراز تفاصيل الحجر.

بدا أبو الهول في البداية كتلة شبيهاً أشدّ ظلمة من الرمل وأكثر تماسكاً من الليل. ثم جاء الضوء من الشرق فبرز الرأس، بلا أنف، وعيناه الغائرتان تنتظران إلى الموضع الذي تشرق منه الشمس بالضبط. وكان التمثال، البالغ طوله ثلاثة وسبعين متراً وارتفاعه عشرين، لا يزال مدفوناً حتى الكتفين. وتجلّى سطح الحجر الجيري بدرجاته. رمادي مائل إلى البيج حيث صقلت الريح الصخر، وأشدّ سواداً في التجاويف حيث تراكم الرمل طبقات رقيقة. وكانت شقوق تجتاز الجبهة، تنزل من أعلى الجمجمة نحو الصدغين، بعضها عرضه عدة أصابع وبعضها بالكاد يرى. ولم يكن الحجر متجانساً. فقد تناوبت طبقات من الحجر الجيري الألين مع طبقات أصلب، راسمةً خطوطاً أفقية تخطّ الوجه وفق الجيولوجيا الطبيعية للصخر الذي نُحت فيه التمثال. وظلت آثار الأدوات مرئية على الخدين، ضربات إزميل متكررة

شكّلت المنحنيات وتركت أوجهاً منتظمة لم تمحها التعرية بعد. وكان الرمل يصعد حتى الصدر، مشكلاً منحدرًا لطيفاً تعيد الريح تشكيله باستمرار، حبة بعد حبة. وشدّت العين اليمنى انتباه دونون طويلًا. فقد نُحت الحجر الجيري غائرًا، وجُوفت المقلة لتحفر نظرة لم تعد موجودة، وبقي الجفن العلوي مقروءًا تحت التعرية. أراد أحدهم أن يكون لهذا الشيء نظرة. لا حضورًا زخرفيًا. نظرة موجهة، مسددة إلى شيء محدد.

رأس موجّه نحو الشرق. والوجه ينظر إلى هناك بالضبط، نحو الشمس عند شروقها. — ليس هذا تمامًا، قال دونون بصوت خفيض. إنه أداة. لقد نحتوا أداة قياس فلكية بحجم تلة. ساعة شمسية عملاقة وجهها هو مؤشرها. وهذه النظرة التي تثبت على الشرق عند الاعتدال ليست تعبدًا. إنها هندسة. كان فولني سيقول إن لهذا الوجه أنفًا عريضًا وشفنتين غليظتين. لا أحسم في ذلك. لكن من نحت هذا الوجه كان يعرف كيف يقيس.

وبعد أن أنهت البعثة توثيق الموقع، اتجهت نحو سقارة. كانت المقبرة تمتد على عدة كيلومترات في الصحراء، مدفئة من الدولة القديمة يرتفع فيه هرم زوسر المدرج، الأقدم بين ما شُيد من الأهرام، بدرجاته الست وبارتفاع اثنين وستين مترًا. أمضوا هناك عدة أيام. رسم دونون. وقاس جومار. وكان جوفروا يتفحص النقوش البارزة ليقرأ فيها ما لا تقوله النصوص. وكانت جدران المصابط تحتفظ بألوانها في مواضع. فالأزرق المصري، تلك الصبغة المصنوعة من النحاس والكالسيوم التي كان الصناع يحضّرونها بالصهر، ظل باقياً في التجاويف المحمية من الضوء. ولون المغرة الأحمر لأجساد الرجال، والأصفر لأجساد النساء، أعراف تصويرية تكررت على كيلومترات من الجدران الجنائزية. وكانت الكتابات الهيروغليفية محفورة غائرة ثم مطلية، كل علامة منقورة عدة مليمترات في الحجر قبل أن تُلوّن. وقد عمل الكتبة من اليمين إلى اليسار على هذه الأعمدة الرأسية، وأخطأهم ظاهرة أحياناً حيث مُحيت علامة ثم أعيد نقشها منزاحة قليلاً. وكانت مشاهد الحياة اليومية تنبسط في سجلات متراكبة: في الأعلى الأنشطة النبيلة، من استقبالات واحتفالات وقرابين، وفي الأسفل عمل الحقول والجزارة والخبز. تراتبية اجتماعية منقوشة في رأسية الجدار. وكان جوفروا قد جثا أمام لوحة تمثل صيادين يسحبون شبكة. وكانت الأسماك قابلة للتمييز بأنواعها: القشر البياض، والبلطي، والبوري.

ولأن جوفروا ظل مفتونًا بمسائل التاريخ الطبيعي، فقد انصرف إلى صور الحيوانات في هذه النقوش القديمة.

— أبو منجل وتماسيح وأفراس نهر وأسود ونعام. بعض هذه الأنواع لم يعد موجوداً في مصر. كانت لا تزال موجودة في العصر الفرعوني. تغيّر المناخ، أو الصيد.

نزلوا إلى الآبار بالمشاعل. عشرين مترًا، ثلاثين مترًا تحت الصحراء. وكان النزول عبر درجات منحوتة في الصخر، غير منتظمة، صقلتها آلاف السنين من العبور. وكانت جدران البئر تضيق كلما نزلوا، ودائرة ضوء النهار تصغر فوق رؤوسهم حتى لم تعد سوى نقطة بيضاء في العتمة. وكان الهواء يزداد كثافة. وكانت ألسنة المشاعل ترتجف في تيارات الهواء الضعيفة التي ما زالت تجري بين السطح وهذه الحجرات العميقة. وكانت الرائحة غريبة: ملح البارود، وغبار معدني، وشيء حيواني أيضًا يتعذر تحديده بدقة. وكانت جدران البئر تحمل آثار الحفر، ضربات رأسية تنزل في أشرطة متوازية. وقد احتاج حفر هذه الآبار إلى شهور، وربما إلى سنوات. فرق من العمال تعمل في الظلام، تصعد بالانقاض سلة بعد سلة. ولم تكن الحجرات الجنازية كبيرة، ثلاثة أمتار في أربعة على أبعد تقدير، تكفي بالكاد للتابوت والقرايين. وكان السقف المنخفض يجبر المرء على حني رأسه. وكانت شظايا الفخار تغطي الأرض، حطام تركه اللصوص. وفي العمق، حجرات جنازية، ونقوش هيروغليفية، ورسوم جدارية، ورحلة الميت مخطوطة على الصخر.

وبين استكشافات سقارة، كان دونون يعود إلى القاهرة. وكان يعرف في الحي القبطي ورشًا للنساجين يتردد عليها بانتظام.

كانت التقنية بسيطة وقديمة. نول يدوي، ومجموعتا خيوط رفع متناوبتان، والمكوك يمر بين الخيوط. وكان صوت النول يملأ الورشة، فرقعة منتظمة للمشط الذي يرصّ خيوط اللحمة، وصرير أدوات الرفع حين يحرك النساج الدواسات. وكان الصوف يفوح برائحة دهن الصوف حتى بعد غسله، رائحة حيوانية ممزوجة بالأصباغ النباتية التي تجفّ في جرار مصفوفة على الجدار. وكانت الشلل معلقة في عوارض السقف، مصنفة بحسب اللون: الأزرق العميق للنيلة، والأحمر القرمزي للقوة، والأصفر المخضرّ للسنا. وفي ركن، كان صبي يحضّر حمام تثبّت، يذيب الشبّ في الماء الساخن لتثبيت الألوان على الألياف. ولم تتغير العملية: نقع في المثبت، وعصر، ونقع في الصبغة، وشطف في النيل. الحركات نفسها كما في العصر الفرعوني، تنتقل من الأب إلى الابن عبر القرون. صوف وكتان منسوجان بزخارف هندسية، معينات وزخارف مُسنّنة وصلبان متفرعة، وزخارف زهرية مجرّدة.

وكان دونون قد قارن نسيجًا قبطيًا معاصرًا برسوم جداريات بني حسن التي عُرضت عليه، مقابر حكام مصر الوسطى. وكانت زخرفة المعين المنقوش داخل دائرة متطابقة، وكذلك الجمع بين الصوف والكتان وعرض النسيج، نحو ستين سنتيمترًا.

أربعة آلاف عام من الاستمرار في حركة نساج.

اشترى عدة قطع. شظايا من نسيج قبطي، بعضها لا يزال يحمل في حاشيته رسوم صيد الحيوان أو السمك. هيئات جامدة، وملامح جانبية واضحة، الأسلوب الكهنوتي للفن الشعبي المصري الذي عبر المسيحية والفتح العربي دون أن يتحول جوهرياً. وفخاراً أيضاً. أمفورات بعروتين، وجراراً ضيقة العنق، وكؤوساً ذات قاعدة، مصنوعة من طين النيل نفسه ومخبوزة في الأفران نفسها. كان الصنّاع يعيدون صنع أشكال علمهم إياها أبائهم، وقد تلقّاها هؤلاء بدورهم عن آبائهم. لم تنقطع السلسلة.

وكان برتوليه قد حصل على أربع موميאות بشرية من سقارة. لم تكن الأجساد ما يهمه، فالطب سيدرسها. كانت تهمه كيمياء راتنجات التخيط. تلك المواد السوداء اللامعة التي تتخلل لفائف الكتان كانت مزيجاً من مواد عضوية أراد تحديد مكوناتها.

أذاب عينات مكشوفة في الكحول، وحلّل الأبخرة، ودوّن درجات الانصهار. وكانت الأدوات مصفوفة على طاولة عمله: إنبيق من زجاج البندقية، وموازين حرارة زئبقية، وموازين دقيقة محمية تحت ناقوس. وكان يعمل على ضوء أربع شمعات مرتبة في مربع، ضوء ثابت لا يرتجف حين يأخذ قياساته. وكانت عينات الراتنج مصنفة بحسب المومياء، موسومة باللاتينية، محفوظة في قوارير مسدودة بالشمع. بعضها أسود عميق، وبعضها بني محمرّ، وبعضها شبه شفاف. وكان يأخذ قطعة بملقعة صغيرة، ويضعها في بوتقة، ويسخنها ببطء مدوّناً درجة الحرارة التي تغيّر عندها المادة حالتها. كان الراتنج يلين أولاً، ثم يذوب، ثم يدخل فتنبعث منه رائحة لاذعة لخشب محترق ممزوجة بشيء راتنجي. وكانت الأبخرة تُجمع في أنبوب مبرّد تتكثف فيه قطيرات زيتية. راتنج البطم، وشحم حيواني، وشمع النحل، والنطرون، وقار اليهودية. كان المزيج يختلف من مومياء إلى أخرى، لكن المنطق كان ثابتاً: خلق بيئة معادية للتحلل البكتيري.

في الثالثة صباحاً، وضع ريشته ونظر إلى الأجساد الأربعة الممددة على طاولاته. كان هؤلاء الناس قد ماتوا منذ آلاف السنين. وربما كانت أسماؤهم على نقوش توأبيتهم. وما بقي منهم هو أجسادهم المحفوظة.

كان في هذا الدوام شيء يزعجه. لا على نحو ميتافيزيقي، فبرتوليه كان مادياً. بل على نحو علمي. فقد حلّ هؤلاء المحنّطون مسألة في الكيمياء العضوية. بالملاحظة، وبالتجربة، وبنقل التقنيات عبر الأجيال. لقد سبقت الممارسة النظرية بالفين وخمسمة عام.

ودون في تقريره: «تشكل تقنيات التحنيط المصرية مجموعة من المعارف الكيميائية التجريبية بلغت درجة رفيعة من الإتقان، وقد يتيح درسها المنهجي معلومات عن خصائص حافظة لا تزال غير معروفة بما يكفي».

وفي سفارة، كان جوفروا سانت هيلير قد استكشف مع دونون محيط مقبرة الحيوانات المقدسة، حيث قيل إن ثيران أبيس المكرسة لبتاح ترقد. وكانت شظايا من الغرانيت ظاهرة في الانقراض. وتوقفوا أمام شظية من الغرانيت الأسود.

كتب دونون: «لقد ترك اللصوص القدامى هذه الكتل. وهذا هو الشبه الوحيد. هم أخذوا ما ظنوه كنزاً. ونحن نأخذ ما نظنه معرفة. وبعد ألفي عام، إن نزل أحد إلى هنا بفانوس، فسيروى الأغنية مكسورة كما هي. وسيتساءل، كما أتساءل أنا الآن، ما الفرق بين لصّ وعالم في دهليز مظلم».

وعند قدميه، بين الشظايا المنتثرة في الغبار، كانت قطعة لا تزال تحمل علامتين هيروغليفيّتين محفورّتين غائرتين، طائر وخط منكسر. التقاط. انزلاق إلى الجيب. كانت الحركة آلية، بلا قرار، قبل أن يتسنى للسؤال الذي كتبه للتو أن يبلغ يده.

في تلك الليلة، قيل أن يعود دونون إلى المعسكر، كان سوق سفارة لا يزال يعمل في العتمة. فانوسان فقط، موضوعان على الرمل بين المعروضات. وكان فلاحون من القرى المجاورة ينتظرون جاثمين خلف حُصُرهم. وكان الجنود يأتون جماعات من اثنين أو ثلاثة، بلا سلاح، وأيديهم في جيوبهم. يزنون بأيديهم، ويتجولون، وينصرفون ومعهم شيء ملفوف في سترتهم. كان هواء الليل بارداً بعد حرارة النهار. وكان الرمل لا يزال يحتفظ بشيء من الدفء، لكن ريح الصحراء كانت تحمل برد ساعات الليل العميقة. وكانت الأحاديث تدور بصوت خافت، مساومات تُجرى بعربية مكسرة أو بالإشارات. وكان جندي يزن جُعلًا في يده، يقربه من الفانوس ليفحص العلامات الهيروغليفية المنقوشة في أسفله. وكان آخر يساوم على ثمن تميمة من الفينانس، تمثال صغير فيروزي لأنوبيس برأس ابن آوى.

وكان برتوليه هناك أيضاً، جالساً على مقعد مطوي كان يأمر بحمله من الإسكندرية. وأمامه طاولة ميدانية صغيرة مغطاة باستمارات اللجنة، وكان حسن يقدم له القطع واحدة واحدة بالمصباح. وكان برتوليه يفحص ويدون في سجله الرقم والوصف باللاتينية وموضع القطعة في الأثر وحالة حفظها. ست قطع هذه الليلة: ثلاثة جعلان ملكية، ولوحة كاتب من خشب الجميز، وتمثال صغير من الغرانيت، وإناء كانوبي من المرمر بغطائه. ودون: «أثار رانتج أسود على العنق». ثم توقف، ورفع رأسه نحو حسن.

— ماذا تحوي الجرّة الأخرى، تلك ذات الغطاء على هيئة ابن آوى؟

— المعدة، قال حسن.

— أه. سادون هذا أيضاً.

وكان برتوليه قد طلب موميאות حيوانات من سفارة. فجاءه الفلاحون بست. أبوا منجل مقدسان، وقطتان، وتمساح قتي، وزبابة. ووضعا في القاعة الكبيرة التي خصصها له المجمع مختبراً.

حلل اللغائف. كتان مشرب بمادة بنية عرفها قاراً ممزوجاً براتنجات نباتية. وكانت عينات قد أخذت من حشو التجويف، نظرون وملح صخري ومساحيق معدنية. وكان النظرون هو ما شغله خاصة. كربونات الصوديوم المميّهة، الموجودة طبيعياً في بحيرات الصحراء غرب القاهرة. وكان قد قام برحلة إليها قبل مدة مع أعضاء آخرين من المجمع. بحيرات وادي النظرون. امتدادات بيضاء يتبلور على ضفافها طبيعياً هذا المسحوق القلوي الذي كان المصريون يجمعونه لتحنيط موتاهم.

وأثناء تحليله ذوبان النظرون في المياه الأجاجة للبحيرة، لاحظ أمراً غير متوقع: أن التفاعل بين ملح البحر وكربونات الكالسيوم يمكن أن يعكس بحسب الحرارة والتركيز. وكان كيميائيو عصره يظنون أن التفاعلات تسير دائماً في اتجاه واحد، إذ يطرد الحمض الأقوى الحمض الأضعف. وبدأ برتوليه يدرك أن ذلك خطأ. وأن الأمر يتعلق بتوازنات.

وستتلقى باريس هذه الملاحظات. وسيحتاج إلى أربع سنوات من التأمل ليصوغ النظرية الكاملة. وسيكون كتاب «بحث في الستاتيكا الكيميائية» الصادر عام 1803 ثمرتها. لكن البذرة كانت هنا، في البحيرات البيضاء للصحراء المصرية، في تأمل تفاعل كيميائي طبيعي كانت الطبيعة المصرية تكرره منذ آلاف السنين.

أما موميאות الحيوانات، فكانت تطرح على برتوليه سؤالاً آخر.

— طيور أبي منجل المحنطة هذه تشبه أبا منجل اليوم، قال جوفروا. أتذكرون ما كنا نقوله على ضفة النيل. أن المصريين كانوا يوقرونها لأنهم كانوا يراقبون الطبيعة؟ ها هو الدليل: لم تتغير في ثلاثة آلاف عام.

— متطابقة، صحح برتوليه.

— هذا ما يقوله كوفيه. الأنواع ثابتة منذ الخلق. والموميאות تثبت ذلك: لا تتغير البتة.

— وماذا عن لامارك؟

— يقول لامارك إن ثلاثة آلاف سنة مدة أقصر من أن يظهر فيها تحوّل. وإن الأمر يتطلب زمناً هائلاً.

تناول برتوليه إحدى موميאות أبي منجل بين يديه. كان الطائر متيبساً، محفوظاً حفظاً تاماً، وريشه لا يزال ظاهراً من خلال اللغائف.

— لن يستطيع أيّ منهما أن يثبت ذلك يوماً، أوضح برتوليه. فلن نعيش طويلاً بما يكفي. ثم أعاد مومياء أبي منجل إلى موضعها.

قضوا ليلتين كاملتين في سقارة، ينامون في أطلال مصطبة ليكونوا في المكان منذ الفجر. كانت المقبرة تمتد عدة كيلومترات في الصحراء، مدفنًا واسعًا من الدولة القديمة شيد فيه الملوك والنبلاء قبورهم. وكان هرم زوسر المدرج يقوم في وسط هذا المشهد الجنائزي.

— يسبق هذا الهرم أهرام الجيزة بقرن، أضاف جومار الذي حسب التواريخ التقريبية انطلاقًا من المعلومات المتفرقة التي كانت لدى العلماء عن التسلسل الزمني للملوك المصريين. إنه يمثل لحظة من تاريخ العمارة كان المصريون فيها لا يزالون يجربون الأشكال. وأهرام الجيزة الملساء هي ثمرة مسار بدأ هنا.

وكان للدرجات المترابكة شيء من زقورة بلاد الرافدين، كأن الحضارتين تلاقتا، كلٌّ على حدة، عند الحدس المعماري نفسه: التكديس من أجل الصعود نحو السماء.

قضى برتوليه الليلة الثانية في نسخ نقوش مصطبة أحد كبار الموظفين. كانت هذه النقوش البارزة تصوّر أنشطة الحياة اليومية: صيد الأسماك والقنص والأعمال الزراعية والجزارة وصناعة الجعة، بدقة وثائقية كانت تبهر علماء الطبيعة في اللجنة بقدر ما كانت تفتن الفنانين.

وفي عودته من سقارة إلى القاهرة، عزّج دونون على ضفاف النيل عند الغروب. كان الضوء مختلفًا في تلك الساعة. يرتقاليًا كثيفًا، كأن الشمس تسعى إلى أن تُشَبَّع الحجر قبل أن تغيب. جلس على كتلة من الحجر الجيري عند حافة الماء وحاول أن يرسم النهر في مواجهة الضوء. كان التمرين صعبًا. فالضوء يتحرك بسرعة كبيرة.

جلس جومار بجانبه وانتظر حتى ينتهي. ألا يتكلم أحد حين يرسم الآخر.

— حسبْتُ شيئًا هذا الصباح، أضاف جومار حين أغلق دونون دفتره. يعود تاريخ مدفن زوسر إلى نحو ألفين وستمئة عام قبل عصرنا. وهرم خوفو إلى نحو ألفين وخمسمئة. بين هذين الأثرين قرن واحد فقط. لكن أحدهما محاولة معمارية والآخر كمال. كيف يمكن التقدم بهذه السرعة؟

— لسْتُ متأكدًا من أن المسألة مسألة سرعة. أظن أن المصريين كانت لهم طريقة مختلفة في تصوّر الزمن. القرن بالنسبة إلينا طويل. أما بالنسبة إليهم ففعله لم يكن سوى الوقت اللازم للتعلّم.

عادوا إلى القاهرة في الظلام، تهديهم أضواء المآذن. وكانت كلاب الصحراء تنبح من بعيد. وفي مكان ما من أزقة الحي القبطي، دقّ جرس كنيسة معلنًا الساعة.

8 - المناقشات العلمية

شهدت جلسة 15 ديسمبر مواجهة بين مونج وفورييه. القياس في مقابل المعنى. أراد مونج أحجاماً وزوايا. وأراد فورييه سياقات ودلالات. ترأس بونابرت الجلسة وحسم الأمر: الاثنان معاً، دون اختيار.

— العلم الحقيقي هو القياس، قال مونج وهو يفتتح النقاش. أبعاد الهرم. حجمه. نسبه. لا الأساطير التي تحيط به. الوصف والدلالة علمان مختلفان. ونحن هنا من أجل الأول.

— الأهرام ليست مجرد أحجام تُحسب يا مونج، أجاب فورييه. إنها مقابر ملكية، وأفعال إيمان بالخلود. وإذا لم تحتفظ منها إلا بالأبعاد، فأنت تصف الصندوق لا ما يحتويه. والأخطر من ذلك: أنك تخاطر بأن تظن أنك فهمت لأنك عدت.

تدخل بونابرت، وكان يحضر الجلسة ويتابع النقاش، محاولاً التوفيق بين هذين المنهجين المتناقضين في الظاهر.

— أنتما محققان كلاكما في نقطة، قال بونابرت وهو ينظر بالتناوب إلى مونج وفورييه. وصف مصر سيحتوي على الأمرين: قياسات مونج والمعنى الذي سيجده فورييه فيها. وأحدهما دون الآخر يبقى ناقصاً.

وتميزت الجلسة نفسها بتقديم برتوليه بحثاً عن كيمياء بحيرات النطرون في الصحراء المصرية. فقد حلل برتوليه كيميائياً عينات أخذت من عدة بحيرات وحدد تركيبها بدقة.

— النطرون خليط من الأملاح: كربونات وبيكربونات وكلوريد الصوديوم. سبعون يوماً في هذا الخليط المسحوق، فُتمتص الرطوبة. ويجف الجسد دون أن يتعفن. بسيط جداً، وفعل جداً.

ثم عرض جوفروا سانت هيلير ملاحظاته عن طيور أبي منجل المحنطة، التي عُثر عليها بالآلاف في مقابر الحيوانات المقدسة قرب سقارة.

— نوعان من أبي منجل. أبو منجل المقدس الأبيض والأسود الذي نعرفه، ونوع أصغر منه، بئي اللون، يبدو أنه اندثر. فإذا كان لا يزال موجوداً في العصر الفرعوني ثم لم يعد موجوداً، فقد تغير شيء ما. لا أعرف ما هو.

وانتهت الجلسة بعرض قدمه جان جوزيف مارسيل، المستشرق ومدير المطبعة الوطنية القائمة في القاهرة، عن تقدم الطباعة بالحروف العربية. فقد صارت طباعة بريد مصر تتم الآن بالفرنسية، ولا تُطبع بالعربية سوى البيانات.

— لدينا القدرة على الطباعة بالعربية الفصحى بجودة طباعية مرضية، أعلن. بيانات، ومراسيم، وإعلانات. بإمكان السكان أن يقرؤونا بلغتهم.

وعرض فورييه في تلك الأمسية دراسة عن توزيع درجات الحرارة في الصحراء المصرية، وهو موضوع أوحى به إليه ملاحظاته خلال المسيرات العسكرية. وكان تحليله لتدفقات الحرارة في وسط غير متجانس إرهاباً بالأبحاث عن الحرارة التي سيجريها لاحقاً في فرنسا. وأصغى العلماء الحاضرون بالانتباه الذي يستحقه عرض واضح عن ظاهرة عانوها جميعاً بأجسادهم.

— حرارة الصحراء ليست مسألة درجة حرارة محيطية، شرح فورييه. إنها ظاهرة تدفق وتبادل بين الأرض والهواء والأجسام المعرضة. ليست لدي المعادلات بعد، لكنني أعتقد أنه سيمنح يوماً ما التنبؤ بكيفية انتشار هذه الحرارة في الزمان والمكان. وكان أكثر ما يهّم بونابرت في المجمع العلمي المصري هذا أن رجالاً من تكوينات مختلفة اختلافاً جذرياً — رياضيين وكيميائيين وعلماء طبيعة وفنانين ومهندسين — ينجحون في إقامة حوار علمي مشترك حول موضوع مشترك: مصر.

— ماذا يعلّمنا هذا عن المصريين القدماء؟ سأل.

— لا شيء بصورة مباشرة، أقرّ فورييه. لكنه يعلّمنا كيف كانت بيئتهم تعمل. ولكي نفهم لماذا كانوا يبنون بيوتهم على نحو معين، ويوجهون معابدهم وفق محاور معينة، ويحفرون قبورهم إلى أعماق معينة، لا بد من فهم القيود الحرارية التي كانوا يخضعون لها. فالفيزياء في عالمهم هي مفتاح عمارتهم. وفي ختام الجلسة، هنأ بونابرت جميع المقدمين بحرارة وشجّعهم على تكثيف أبحاثهم.

— أعمالكم ممتازة، تابع بونابرت مخاطباً الحضور. قريباً صعيد مصر. معابد طيبة. وسيفتح دونون الطريق.

استوقف فورييه دونون في رواق قصر حسن كاشف. وتحت ذراعه رزمة من المخططات التي أنتجتها اللجنة منذ الوصول إلى القاهرة. قياس الهرم الأكبر، ومخططات أبي الهول، ومقاطع مقابر سقارة. ثلاثة وثمانون لوْحاً.

— هذه المخططات، لاحظ فورييه. هل ستحملها معك؟

— هذا هو موضوع الحملة، قال دونون. وصف مصر لن يُنجز هنا.

— أتحدث عن القطع. عن التماثيل الصغيرة التي تشتريها من سوق سقارة. عن التماثيل في أمتعتك. نحن هنا لنفهم مصر، لا لنفرغها من بقاياها.

نظر دونون إلى رزمة المخططات بين يدي فورييه. قياسات. مخططات. زوايا. كل هذا سيبقى هنا، في الحجارة، متاحاً لكل من يأتي ليقبس بعدهم. أما التماثيل الصغير من الخشب الملون الذي اشتراه منذ الصيف، ذاك الذي تقاطعت ذراعه على صدره في هيئة أوزيريس، فلن يعثر عليه أحد هناك بعد ثلاثين عاماً. سيكون في باريس، أو ضائعاً.

— الفرق بيننا نحن الاثنين، يا فورييه، هو أنك تعتقد أن الفهم يكفي. أما أنا فأرى أن بعض الأشياء يجب أن تُرى لكي تُفهم. ولكي تُرى، يجب أن تسافر.

استعاد فورييه رزمته وعاد إلى غرفته، على بعد بابين في رواق الطابق الأول. وبقي دونون في ذلك الرواق الخالي. نام متأخرًا. وفي صباح اليوم التالي، وجد على طاولة عمله/الأوشابتي الخشبي الملون الذي كان يظنه محفوظًا في أمتعته، منصوبًا في مكان بارز، ووجهه مدار نحوه. لا بد أن فورييه دخل أثناء الليل. فقد كانت عادته أن يتجول في القصر في ساعات غير معقولة حين لا تأتيه معاداته. لكن على الأرض، أمام الطاولة مباشرة، كانت هناك حبة رمل. واحدة فقط، بارزة للعيان على البلاط اللامع. كأن فورييه أراد أن يقول له: «هذا الرمل يأتي من مكان ما.»

أو كأنه مجرد حبة رمل. ومع فورييه لم يكن المرء يعرف قط أهي النية تسبق الحركة أم العكس. وبقي/الأوشابتي على طاولته طوال اليوم.

وكانت جلسة ديسمبر 1798 نفسها قد شهدت أيضًا، على هامش البرنامج الرسمي، عرضًا غير رسمي لفانتور دو باراديس، المترجم الرئيسي للحملة، الذي كان يتكلم العربية والتركية والفارسية والعبرية بطلاقة أهلها، ويقضي نهاره في الترجمة لبونابرت وليله في كتابة قاموس عربي-فرنسي لن ينهيه أبدًا.

تناول الكلمة في آخر الجلسة.

— أودّ أن أعرض على المجمع ملاحظة. منذ خمسة أشهر ونحن في مصر، لاحظتُ أمرًا يبدو لي مهمًّا لفهم هذا البلد. إن العربية التي يتكلمها المصريون اليوم والعربية الفصحى التي نزل بها القرآن لغتان مختلفتان. ليستا لهجتين. بل نظامان متمایزان، متباعدان كتباعدا لاتينية شيشرون عن فرنسية موليير. فالفلاح في الدلتا لا يفهم النص القرآني الذي يتلوه. إنه يتلوه صوتيًا، دون أن يدرك معناه.

— ماذا يعني ذلك؟ سأل مونج.

— يعني أن الإسلام في مصر هو، جزئيًا، دين لا يفهم أتباعه نصوصه المقدسة في صيغتها الأصلية. فالإيمان ينتقل بسلطة العلماء، وبالتقليد الشفهي، وبالطقس. لا بالقرءاء المباشرة للنص. وهذا لا يختلف كثيرًا عن اللاتينية في الكنيسة الكاثوليكية قبل لوثر.

طرح بونابرت، الذي كان قد أصغى دون أن يتدخل، سؤالًا.

— والعلماء أنفسهم، هل يفهمون النص الفصيح؟

— أكثرهم علماء، نعم. أما الباقون فيتلون كذلك. إنها سلسلة نقل، كل حلقة فيها تنقل ما تلقته، لا ما فهمته بالضرورة.

دُون دونون هذه الملاحظة في دفتره. كانت تلتقي مع شيء رآه في زقاق الكتاب القرآني بعد الثورة. أطفال يتلون عبارات ما زالوا على الأرجح يجهلون معناها، لكن صوته وإيقاعها كانا قد صارا فيهم شكلاً من أشكال المعرفة. وفكر في رسومه هو. الأهرام التي نسخها قبل أن يفهمها. وأبو الهول الذي رسمه عند الغروب قبل أن يعرف اتجاهه الفلكي. لعله يعمل على هذا النحو: الخط أولاً، ثم المعنى.

— ما تصفه، لاحظ فورييه مخاطباً فانتور دو باراديس، هو نظام يسبق فيه النقل الفهم. يُحفظ النص عن ظهر قلب أولاً، ويأتي المعنى بعد ذلك. أو لا يأتي. أليس هذا شبيهاً بما نفعله مع الهيروغليفية؟ إننا ننسخ علامات لا نفهمها. وربما فهم خلفاؤنا معناها.

— الفرق، قال فانتور دو باراديس، أن الهيروغليفية لم يعد لها متكلمون أحياء. أما العربية الفصحى فلها. في مكان ما بين الشفهي والمكتوب، بين العلماء والفلاحين، بين النص والطقس، تبقى اللغة حية. تبقى على نحو مختلف عما نشأت عليه. لكنها تبقى.

انتهت الجلسة متأخرة. كانت المصاييح قد خفت. وخرج العلماء إلى فناء المجمع حيث كان هواء ديسمبر بارداً أخيراً. أول برد حقيقي منذ وصولهم إلى مصر. توقف دونون لحظة في الفناء ورفع عينيه. النجوم فوق القاهرة. هي نفسها التي كانت فوق طولون قبل سبعة أشهر، لكنها أكثر ارتفاعاً في الأفق.

غادر بونابرت المجمع بعد الجلسة برفقة برتوليه. وساروا بعض الوقت في حديقة القصر دون كلام. ثم تكلم بونابرت:

— قال لي مونج ذات يوم إن العلم يبحث عما هو حق بمعزل عما هو نافع. هل تعتقد ذلك؟

فكر برتوليه. كان سؤالاً طرحه على نفسه طوال حياته المهنية.

— أعتقد أن الفارق أقل وضوحاً مما يزعم. عملنا هنا حق. قياسات جومار، والتحليلات الكيميائية للمومياءات، ورسوم دونون. لكن ما نفعله هنا نافع أيضاً، لفرنسا، ولمعرفة أوروبا بمصر، ولك أنت سياسياً. الحقيقة والمنفعة لا تتنافيان. إنهما تسيران معاً، نادراً في الاتجاه نفسه، لكن معاً. تردد، ثم أضاف:

— الشيء الوحيد الذي أرفض قوله هو أن ما نفعله غير مؤيد. هذا ليس صحيحاً. ومونج يعرف ذلك كما أعرفه.

هزّ بونابرت رأسه.

— قال لي فورييه هذا المساء إن أبحاثه عن الحرارة لا تنطوي على أي تطبيق عسكري مباشر. ويبدو فخوراً بذلك.

— فوربيه محق في فخره. فبعد عشرين عامًا ستكون لأبحاثه تطبيقات لا يتصورها حتى الآن. هذا هو العلم. إنه يسبق التطبيقات بمسافة لا يمكن قياسها سلفًا.
— كطليعة لا تعرف بعد لأي جيش تستطلع الأرض.
— تمامًا.

توقفا عند حافة الحوض في الفناء. كان القمر ينعكس على الماء الساكن.
— واصلوا العمل، قال بونابرت. كل ما تنتجونه هنا سيبقى بعد الحملة، مهما حدث. وهذا هو اليقين الوحيد الذي أملكه في هذه اللحظة.
عاد برتوليه إلى مختبره واستأنف تحاليله.
كان قد قال لبونابرت جملة في تلك الليلة، قبل أن ينصرف. جملة تكاد تخلو من النبوة، كملاحظة كيميائي عن لون راسب.

— في إيطاليا، سنة 1796، كنا نختار ما يذهب إلى اللوفر. مونج يختار وأنا أصادق. كان لدينا وقت وقوائم ومفوضون. أما هنا فليس لدينا شيء من ذلك. حين نرحل، سيكون ذلك على عجل. ما سيكون في الصناديق لحظة الرحيل هو ما سيرحل. والباقي سيبقى. لا ينبغي أن نوهم أنفسنا بغير ذلك.
فكر دونون في إيطاليا. في سنة 1796، كانت فرنسا هي التي تحمل. أما هنا فقد لا نكون نحن من يحمل.

في الثالثة صباحًا، أشعل دونون مصباحه من جديد وتناول دفتره.
كان يقلّب الصفحات ببطء، دون أن يعيد قراءتها حقًا. والرسوم تتوالى. أشرعة الأسطول في مرفأ طولون، وميناء فاليتا من على سطح الجونون، وعمود بومبي في الإسكندرية، وظهور الجنود في الصحراء، ودخان المعركة كما يرى من داخل مربع المشاة، والأهرام عند الغروب والموتى في المقدمة.
كانت لديه أيضًا قائمة أخرى لم يكتبها. أشياء فعلها دون أن يدونها. رسم آثارًا لا يمكن حملها، ورأى جنديًا يدس جعرانًا في جيبه دون أن ينبس، ورأى فلاحًا ينظر إلى الأوشابتي وهو يرحل مفضلاً ألا يدون العبارة. كانت تلك القائمة أطول من الرسوم الـ243. وليس لها نهاية.

توقف عند أول رسم في الرحلة.

كانت صورة بونابرت. جانبه الأيمن، يضيئه نور الصباح على رصيف طولون، قبل دقائق من الإبحار. رسمه بسرعة من دون أن ينتبه الجرنال. نحو عشر ضربات من الفحم. القسمات النحيلة، والجبهة العالية، والذقن الممتد إلى الأمام في وقفة من ينظر إلى ما لم يوجد بعد.

تناول ورقة بيضاء ورسم بونابرت من الذاكرة. كما رآه في أغسطس، في المجلس الذي أعقب نياً أبو قير. الجانب نفسه، والملاح الأساسية نفسها. لكن شيئاً ما تغير ولم يعرف كيف يسميه بالكلمات. فراح يبحث عنه بالفحم.

ليست التجاعيد. فسبعة أشهر لا تشيب رجلاً في التاسعة والعشرين. وليس الهزال. فبونابرت كان نحيلًا دائماً. ربما كان ذلك في توتر العنق. أو في طريقة انطباق الفك. كان رجل طولون ينظر إلى شيء لم يوجد بعد. أما رجل ما بعد أبو قير فكان ينظر إلى شيء فقده.

وضع دونون الورقتين جنباً إلى جنب على مكتبه.

كان الرسمان متشابهين. ولم يكن مراقب متعجل ليلحظ الفرق. الجانب نفسه، والوقفه نفسها، ويد الرسام نفسها. لكن من نظر إليهما واحداً بعد الآخر لم يملك إلا أن يرى أن الأول لرجل يرحل، والثاني لرجل لم يعد يعرف إلى أين.

كانت أول مرة منذ طولون يرسم فيها بونابرت في غيابه. فحتى ذلك الحين كانت رسومه للجنرال وثائق. وقفة القيادة، وإيماء السلطة، والمشهد التاريخي الذي ينبغي تشييته قبل أن يمضي. أما هذا الرسم الليلي فكان شيئاً آخر. صورة بلا موافقة صاحبها، بلا شاهد، مستخرجة من الذاكرة لا من الواقع.

دسّ الورقتين معاً في الدفتر نفسه، إحداها بعد الأخرى. طولون، ثم أبو قير. ما بدأ، وما صار إليه.

هل كان لما تحويه هذه الدفاتر قيمة؟ بدا له السؤال الآن أقل بداهة مما كان عند الانطلاق. ففي طولون، حين صعد على متن الجنون، كان يعرف يقيناً لماذا هو هناك. ليوثق حملة تاريخية، وليرى مصر قبل أن يراها سائر الأوروبيين، وليحمل إلى فرنسا صور عالم لا يزال مجهولاً. كان ذلك البرنامج بسيطاً وواضحاً.

وبعد سبعة أشهر صار يرى الأمور على نحو آخر. فقد رأى بؤس الجنود في الصحراء، وأهل الإسكندرية ينظرون إلى الجيش الفرنسي باستسلام أناس قاسوا جيوشاً كثيرة حتى لم يعد شيء يهزهم، وثورة القاهرة وقمعها. رسم ذلك كله بالانتباه نفسه الذي أولاه للأهرامات والنقوش البارزة. والآن صار يتساءل إن لم تكن رسومه، على غير إرادته، وثائق احتلال استعماري بقدر ما هي أرشيف اكتشاف علمي.

لم يحسم هذا السؤال في تلك الليلة. ولن يحسمه كتابه رحلة في الوجه البحري وصعيد مصر هو الآخر.

أغلق دفتريه، وأطفأ مصباحه، واستلقى في الظلام. من النافذة كانت النجوم فوق القاهرة هي نفسها التي رآها هيرودوت من ضفاف النيل، ونفسها التي استخدمها فلكيو الفراعنة لتوجيه منشاتهم، ونفسها التي رصدها البحارة الفرنسيون أثناء

العبور من طولون. كان في هذا الثبات شيء مطمئن. لا لأن كل شيء متساوٍ في القيمة، بل لأن كل شيء يدوم، متحوّلاً، مجهول الملامح، لكنه حاضر. لم تكن السماء المصرية تفرّق. كانت تضيء الأهرامات ومعسكرات المبيت بلامبالاة واحدة. أغمض دونون عينيه. غداً سيرسم من جديد.

الفصل الثاني: الصعود في النيل

1 - دندرة

في 25 ديسمبر 1798، غادرت حملة ديزيه القاهرة متجهة نحو الجنوب. ثلاثة آلاف جندي لإعادة فتح صعيد مصر. وكان دونون في الرحلة ومعه دفتره.

وكان بونايرت، المقيم في القاهرة، قد استدعى ديزيه عشية الرحيل.

— مهمتك مزدوجة: عسكرية: القضاء على مراد بك. وعلمية: تمكين العلماء من استكشاف صعيد مصر. عاملهم كشركاء في العمل. ما سيعودون به لا يقل قيمة عن انتصاراتك.

كان ديزيه في الثلاثين، عملي الذهن، لا ميل خاصاً لديه إلى الآثار. لكنه كان يملك من الذكاء ما يكفي لفهم الأوامر.

— سأحامي هؤلاء الرجال كما أحمي جنودي. لكن نبيهم: مراد بك لن يمنحنا هدنة. شهور، وربما حتى أسوان. وعلى العلماء أن يتحملوا ذلك.

وبعد خروج ديزيه، استبقى بونايرت دونون لحظة. فتح درج مكتبه الميداني وأخرج منه وثيقة مطوية. القائمة ذات الصفحات الأربع التي كان قد عرضها على دونون قبل طولون، وقد استُكملت منذ ذلك الحين.

— هذا ما يجب أن يعود. ما تستحق فرنسا أن تحمله من هذه الحملة.

تصفّح دونون السطور الأولى. فئات وأوصاف: مسلات يمكن نقلها، وشظايا نقوش بارزة ذات جودة استثنائية، وبرديات موثقة، وجعارين ملكية، وبرونزيات من العصر المتأخر، وموميאות لوجهاء يمكن تحديد هويتهم. وكل فئة مشفوعة بملاحظة عن قيمتها المقدرة ووجهتها: اللوفر، المكتبة الوطنية، المعهد.

— فعلنا الشيء نفسه في إيطاليا، تابع بونايرت. مونج وبرتوليه يعرفان الطريقة. ما يعودان به مع استثمارهما يذهب إلى اللوفر. وما يأخذه الجنود في حقائبهم لا أستطيع منعه. وما تؤثقه أنت بدفاترك يبقى في فرنسا بصورة أخرى. ثلاثة مستويات. ثلاث شرعيات مختلفة.

— وإن اختلطت المستويات؟

— هي تختلط دائماً. لهذا ينبغي أن يكون المستوى الأول فوق الشبهات. فإن أدت اللجنة عملها بصرامة، صار الباقي محتملاً بالمقارنة. هذا هو منطق كل عمليات الاقتناء التي قامت بها الدول منذ عصر النهضة. فرنسا لا تنهب. إنها تنتقي وتوثق وتحفظ. الجنود هم الذين ينهبون. التمييز حقيقي وإن كان مزعجاً.

— وإن نازع فيه أحد؟

— لن يَنَازِع فيه أحد ما دَمنا نَريح الحرب. وإن خسرناها، فلن يُطرح النقاش بالطريقة نفسها.

وضع دونون القائمة في حقيته. لم يكن ذلك أمر نهب. كان أمر انتقاء. والفارق حقيقي. وكان يودّ لو كان كافيًا. لكنه لم يكن متأكدًا. غير أن بونابرت كان قد فتح باب مكتبه. فوقته ضيق. وخرج دونون من دون أن يقول ما كان يودّ قوله.

في صباح 25 ديسمبر، سلكت الحملة الطريق جنوبًا على الضفة الغربية للنيل. كان الهواء ما يزال باردًا في تلك الساعة. برد جاف بلا ضباب، برد مصر الذي سرعان ما يتراجع أمام الشمس. وكان الغبار الذي تثيره الأرتال يُرى من بعيد. وتقدّمت المدفعية محاذية الحقول المزروعة. وصهلت خيول الفرسان إذ أحسّت بالرحيل. وكان فلاحون واقفون على أسطح البيوت المستوية يراقبون مرور الرتل من دون حراك.

كان دونون يمتطي جواده إلى جانب ديزيه.

— هذه المعابد التي لا نعرفها إلا من بوكوك ونوردن. أوصاف تقريبية ورسوم غير دقيقة. سنضع أخيرًا توثيقًا صارمًا.

— حماسك تعجبني. لكن أخبرني حين ترغب في الابتعاد عن الرتل. فمراد بك لم يتخلّ بعد.

أوما دونون موافقًا، من دون أن يخفي شيئًا من الإذعان.

— مفهوم يا سيدي الجنرال. رسوم متعجلة خير من الجهل.

ارتفعت الحرارة منذ الساعة الثانية رغم أن الشهر شهر يناير. كان الشريط الأخضر على طول النهر لا يتجاوز عرضه بضعة مئات من الأمتار، ثم تبدأ الصحراء، مباشرة ومطلقة. وكان الجنود يسبّرون صامتين، القرية في أيديهم. وكان دونون يرسم وهو يسير، رسومًا سريعة، وخيالات القرى، ونخلة، ومنظرًا جانبيًا لجرف كلسي، من دون أن يتوقف، ومن دون أن يضيق الخطوة. وكان المماليك يضايقون ثم يختفون من دون أن يخوضوا معركة حاسمة. وقرب بني حسن، استكشف مقابر محفورة في الجرف الكلسي المشرف على النيل، مزينة برسوم جدارية تمثل مشاهد مصارعة وصيد وحياة يومية.

كانت الألوان صامدة. أحمر المغرة، وأزرق الفريت المصري، وأخضر الملاكيت، وأصفر الزرنيخ. وقد جففت الصحراء الهواء من حولها. فتذكّر لوحات باريس، التي سوّدتها الورنيشات وأطفأتها قرون من الرطوبة.

رسم عددًا من هذه المشاهد خلال الساعات القليلة التي منحه إياها ديزيه قبل استئناف المسير. كانت رسومه سريعة. فقد تعلّم أن يلتقط الجوهر في عشر دقائق، الجلال الشكلي الصارم، والحيوية السردية.

وهكذا انتقل من مقبرة إلى أخرى بينما كان الرتل ينصب معسكر مبيته. لم يشتك دونون قط. كان يرسم وهو يسير، ويرسم أثناء فترات التوقف، ويرسم على ضوء المشاعل في الخيام العسكرية مساءً. وكان صمود جسده يدهش الضباط الذين اعتبروا وجوده في البداية عبثاً.

— عالمك يصمد أفضل من مجنديّ، قال ديزيه يوماً لأحد مساعديه وهو يشير إلى دونون جالساً على صخرة أثناء استراحة الجيش.

— لأن لديه ما يفعله، أجاب المساعد. الرجال الذين لهم سبب للنظر حولهم ينجون أفضل من غيرهم.

في 20 يناير، كان جومار أول من رأى دندرة. كان معبد الإلهة حتحور قائماً وسط الحقول المزروعة، وكتلته ظاهرة من بعيد في هواء صعيد مصر الجاف.

— انظر، قال دونون الذي توقف خلفه.

أمر ديزيه بالتوقف. وأقام الجيش معسكره في القرية المجاورة، قنا. وكان الفلاحون يراقبون من عتبات بيوتهم دون أن يقتربوا. كانوا قد رأوا أرتالاً أخرى تمر. وهذا الرتل كان يحمل رجالاً بأدوات قياس ودفاتر. ولم يكن ذلك أدعى إلى الطمأنينة.

دخل جومار أولاً. وعند العتبة عدّ: أربعاً وعشرين عموداً يبلغ ارتفاع كل منها نحو خمسة عشر متراً، وتيجانها ذات وجه حتحور تنظر في الاتجاهات الأربعة. أخرج جهاز النيودوليت من علبته، ثم أعاده. من أين يبدأ؟ طوال أشهره الثمانية في المدرسة كان يعرف دائماً من أين يبدأ. أما هنا فكان للقاعة منطق يتجاوز ما تستطيع أدواته أن تحيط به بنظرة واحدة. أكبر من اللازم. وأشدّ تماسكاً من اللازم. كان لا بد من اختيار نقطة دخول، وبدا له هذا الاختيار فجأة اعتباطياً على نحو لم يشعر به قط أمام هرم أو عمود منفرد. وانتهى به الأمر إلى تسديد جهازه نحو أقرب عمود. كان ذلك على الأقل بداية.

— إنه أمر استثنائي، همس دونون خلفه. رقة هذه الثنيات.

قاس جومار خمسة أيام. خمسة عشر متراً لكل عمود، ووصلات دقيقة حتى إن شفرة سكين بالكاد تنفذ بينها. والسقف على ارتفاع يزيد على خمسة عشر متراً. والجدران مكسوة بالنقوش البارزة. كان يدون الأبعاد والزوايا والاتجاهات. وكان دونون يرسم في الطرف الآخر من القاعة، ويده المغطاتان بغبار الفحم لا تكادان تتوقفان.

— كيف فعلوا ذلك من دون أدواتنا الحديثة؟ أضاف جومار بصوت خافت.

— بالوقت واليد العاملة وتنظيم قادر على مواصلة جهد ثابت عقودًا. استغرق بناء هذا المعبد أجيالًا. كانوا يتوارثون المشروع من الأب إلى الابن كإرث مقدس.

— كان المصريون يعرفون النجوم أفضل مما نعرفها نحن حتى اليوم، أضاف جومار مشيرًا إلى الكوكبات المرسومة بالأزرق الداكن على خلفية السقف بلون المغرة. هذه القبة خريطة لسماء الليل في مصر القديمة.

وفي اليوم الثاني، لاحظ جومار تفصيلًا لم يدونه. كتبه في يومياته الشخصية مساءً، تحت الخيمة.

كان ثلاثة جنود من كتبية الطليعة قد قضوا بعد الظهر في القاعات الجانبية للمعبد. لم يكونوا في الخدمة. وعند عودتهم كان أحدهم يحمل في يده تمثالًا صغيرًا من الفخار المزجج الأزرق. قطعة جالسة، أذناها مدببتان، وعيناها مرصعتان بزجاج أسود. كان يريه لرفاقه. وكانوا يضحكون.

راقبهم جومار وهم يمرون. كان عمر القطعة الفخارية ألفين أو ثلاثة آلاف سنة. وكانت قد وُضعت في المعبد قربانًا نذريًا على يد حرفي لم يبقَ اسمه، لصلاة تُسي حتى مضمونها. وبعد ثلاث سنوات ستكون في مرسيليا. كانت السلسلة قصيرة. ولم تترك أثرًا. فكّر جومار في الجاذبية: الأشياء الخفيفة تسقط دائمًا إلى الأسفل. وهنا كان الأسفل هو الشمال.

وفي اليوم نفسه، في الفناء الكبير للمعبد، كان كوستاز منهمكًا في عمله. كان قد انتقى في الصباح ست قطع وفق فئات قائمة بونايرت. جعرانان، وتميمة من ذهب، وتمثال صغير لسخمت، كلها مطابقة لمعايير القائمة. لكن قطعتين خرجتا عن المألوف. لوح كاتب من خشب الجميز مع أقلامه القصية لا تزال في أغمارها المصنوعة من القصب. ولأن الخشب قلما ينجو، فقد كانت قطعة بالغة الندرة. وإناء كانوبي من المرمر بغطائه ذي رأس الصقر سليمًا، يمثل قبحسنوف، حارس الأمعاء. والقطع الست مصفوفة على الحجر، مرقمة، ملصقة عليها بطاقتها.

اقترب جومار من مدخل الفناء. كان كوستاز يملأ استمارته في ضوء النهار، من دون عجلة، ومن دون أن يختبئ. وهنا كان كل الفرق بينه وبين ما يفعله الجنود: الاستمارة.

— أيها المواطن كوستاز، قال جومار وهو يقترب. هذه القطع استثنائية. — بالفعل. لوح الكاتب فريد في التوثيق المعروف للحملات الأخيرة. الأقلام سليمة. نادر للغاية. لقد صمد خشب الجميز لأنه كان ملفوفًا في كتان وجدته في حجرة جانبية من الكوة. ألفان وخمسمئة عام من الحفظ في ظروف مثالية. واصل الكتابة دون أن يرفع بصره. كانت كتابته كتابة عالم: دقيقة، مختصرة، بلا زخرف.

— الإناء الكانوبي سيهم الكيميائيين لتحليل راتنجات التحنيط، تابع. أخذت شظية من طبقة الراتنج الداخلية. ستجد رقم هذه العينة تحت المرجع مئة وأربعة عشر ب في سجل اللجنة.

دَوْن الرقم السادس على استمارته، ووقع، ومزّق القسيمة وناولها لجومار.

— سجل اللجنة، قسم المقتنيات الرسمية. إن شئت نسخة لملف قسمك.

تناول جومار الورقة. نظر إليها. كان شكلها لا غبار عليه. وضعها في حقيبته من دون أن يجيب.

جاء رجل من القرية ليراقب جومار أثناء قياساته. وظل حسن، المترجم، بعيداً. راقب الرجل لحظات ثم مضى. وكان ذلك اللقاء قصيراً.

وفي اليوم التالي عاد الرجل، وجلس إلى جانب عمود ساعتين دون أن ينطق بكلمة، يراقب جومار وهو يعمل. ثم انصرف. وبعد ذلك بيوم جاء بشيء: إناء صغير من الفخار المحروق مملوء بماء عذب. وضعه إلى جانب أدوات جومار.

شرب جومار. كان الماء بارداً، فيه معدنية خفيفة. وقال شكرًا بالعربية. إحدى الكلمات القليلة التي تعلّمها. وتبادلاً بوساطة حسن بضع جمل.

كان الرجل يعرف أسماء الأعمدة. لا الأسماء اليونانية التي يستعملها العلماء، حتحور ونوت وإيزيس، بل أسماء عربية متوارثة من الآباء إلى الأبناء منذ أجيال. فعمود الزاوية الشمالية الشرقية كان يُسمّى في القرية «العمود الذي ينزف عند الفيضان»، لأن شفاً في الحجر الكلسي كان يسيل منه أحياناً ماء مائل إلى الحمرة محمّل بالحديد أثناء فيضانات النيل. وكان العمود الأوسط يُسمّى «عمود الصوت»، لأنه إذا ضُرب بالكف المفتوحة عند ارتفاع معين أصدر صوتاً غليظاً ينتشر في القاعة كلها.

دَوْن جومار الاسمين. كان يعلم أنهما لن يردا في وصف مصر. لم تكن لهما قيمة قابلة للقياس. لكنهما كانا يقولان ما لا تقوله قياساته: أن لهذا المعبد حضوراً متصلاً في ذاكرة القرية منذ زمن بعيد. لم يكن ظللاً. كان جازاً.

بعد ثلاثة أيام، عاد دونون وحده إلى المعبد، ومعه شمعة ودفاتره. كان يريد أن يرسم زودياك المقصورة العلوية.

كانت مقصورة أوزيريس فوق سطح المعبد، قاعة صغيرة يُصعد إليها بدرج خارجي. كان السقف منخفضاً، وكان ضوء الشمعة البرتقالي لا يكفي للإنارة. تمدّد على الحجر البارد. وفوقه، منحوتة في الحجر الرملي، خريطة السماء: قرص دائري قطره متران ونصف المتر. في وسطه الكوكبات القطبية: الدب الأكبر على هيئة ساق أمامية لثور، وإلهة فرس نهر تشهر حربة. وعلى محيطه البروج الاثنا

عشر الإغريقية ممتازةً بالتصوير المصري: الحمل والثور، وكذلك الدلو مصوِّراً في هيئة حابي إله الفيضان، وهو يحمل إناءين يتدفق منهما النيل.

لم يكن بالإمكان نقل هذا السقف كما هو. عدة أطنان من الحجر الرملي مدمجة في العقد. غير أن دونون كان قد عرض المشكلة قبل يومين على النقيب كوتيل، قائد سلاح المناطيد في الحملة، الذي أطلق منطاد المراقبة في فلوروس. وكان كوتيل أكثر مهندسي الجيش ابتكاراً. وقد جاء لرؤية الزودياك في اليوم السابق بعين التقني لا بعين الفنان.

— إنه ممكن، قال وهو يفحص الوصلات. لكن ليس بما نملكه. نحتاج إلى مناشير بأسنان من الفولاذ المقسى، ورافعات لولبية، وجير حي، وهيكِل رفع ارتفاعه عشرون متراً. ستة أسابيع من العمل على الأقل، بعشرين رجلاً. وسفينة مجهزة خصيصاً لنقل الكتلة. عدة أطنان، ولا تكفي العنابر العادية.

— وهل تستحق النتيجة هذا الجهد؟

نظر كوتيل إلى الزودياك مرة أخرى، وعيناه تجوبان القرص من كوكبة إلى كوكبة. — إنه أكمل تمثيل للسماء القديمة رأيته في حياتي. نعم، يستحق الجهد. لكن ليس الآن. ربما بعد ثلاثين عاماً، إن عاد أحد ومعه العتاد والوقت.

دَوْن دونون الحديث في مذكرة موجهة إلى هيئة الأركان العلمية. كانت أول وثيقة رسمية تذكر إمكانية انتزاع زودياك دندرة. وستسافر هذه المذكرة إلى القاهرة، وتنام في صندوق، تنتظر وسائل لم يكن الجيش يملكها.

رسم ساعتين وهو مستلقٍ على ظهره. انطفأت شمعته، فأشعل أخرى. وحين نزل كان الليل قد أقبل، وكان الجنود ينفذ صبرهم منذ ساعة.

— هل حصلتم على ما أردتم؟ سأله ملازم ثانٍ.

— رسم أولي. غير دقيق. يلزم عدة رجال لإنجاز مسح جاد.

كان دونون قد طلب من هيئة الأركان العلمية إرسال مهندسين لإتمام عمله. وسيعود شابان من خريجي البوليتكنيك، جوليو وديفيليه، بعده بثلاثة أسابيع لإنهاء المسح بأدواتهما الدقيقة.

في المساء الثاني، احتاج جومار إلى تسوية مشكلة تتعلق بمصادرة حصص التموين. فبحث عن رقيب أول يُدعى أوبير، الرجل الذي يدير مؤن كتيبة ديزيه. وجده في خيمة بعيدة عن المعسكر الرئيسي، جالساً إلى طاولة صغيرة أمامه فانوس ودفتر.

كان أوبير يمسك قائمة مقسمة إلى ثلاثة أعمدة: الغرض، والسرية، والجندي. وكانت السطور متراسة. قرأ جومار من موضعه دون أن يبدو عليه ذلك: «تمثال صغير من حجر أزرق، السرية الثانية، راسين. شظية من نقش بارز، السرية

الثالثة، دوبليسي. جعران من الفخار المطلّي، السرية الأولى، مارين. إناء فخاري ملوّن، السرية الرابعة، لوفيفر.» كان فيها عشرون سطراً على الأقل.

رفع أوبير عينيه. ولم يبدُ عليه أنه فوجئ بمن يراقبه.

— أيها المواطن العالم. هل أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلكم؟

— كنت أبحث عن حصص إضافية لأعمال القياس. الأمر ليس عاجلاً.

لم يسأل جومار عن القائمة. كان يعرف ما هي. جرد غير رسمي، لم يأمر به أحد ولم يمنعه أحد، يحتفظ به ضابط صف أدرك أن شيئاً ما يتداول في كتيبته، وقرر أن يعرفه. لم تكن القائمة رقابة تأديبية، بل احتياطاً. فلو سأل أحدٌ لاحقاً، عرف أوبير كيف يجيب. وإن لم يسأل أحد، وهو الأرجح، بقيت القائمة في دفتره وثيقةً بلا مرسل إليه.

سوى مسألة الحصص في ثلاث جمل ومضى.

في الليلة التي سبقت الرحيل، لم يعمل جومار على قياساته. انصرف إلى شيء آخر. بدأ بما يعرفه على وجه اليقين. كانت قائمة الرقيب الأول أوبير تحوي، للسرية الثانية وحدها، ثلاثة وعشرين غرضاً في يومين. أربع سرايا في كتيبة دبزيه. وكتيبتنا مشاة تنتابان على الموقع. يضاف إليهم الضباط، الذين يأخذون بطريقة مختلفة: بانتقاء أكبر وكمية أقل، لكن بقطع أعلى قيمة. ويضاف إليهم ما حصله كوستاز رسمياً: ست قطع موثقة، وربما غيرها دون توثيق رسمي.

وضع تقديرًا. تقديرًا متحفظًا: عشرون غرضاً لكل سرية في كل يوم توقف. أربع سرايا. خمسة أيام. كتيبتان. النتيجة: ثمانمائة غرض على الأقل لهذا المعبد وحده. وإذا أضيفت المشتريات من التجار وما كان الضباط يجمعونه خفية، تجاوز العدد الألف.

ألف غرض تغادر دندرة. تأمل الرقم. ثم نظر إلى المعبد، الظاهر في العتمة على بعد مائتي متر من المعسكر. كان المعبد هائلاً. وألف غرض ليست سوى جزء مما لا يزال يحويه. لكن الحساب الصحيح هو: كم توقفاً في كم معبدًا، مضروباً في ألف. كان هناك اثنا عشر موقعاً كبيراً على الأقل بين دندرة وأسوان. كتب أسفل الصفحة: «المجموع التقديري للحملة بأكملها: ما يقارب عشرة آلاف غرض. حدّ أدنى. غير قابل للتحقق.»

ثم توقف عند ما كتبه للتو. عشرة آلاف. بدا الرقم مجرداً، وما كان كذلك. كان يقابل عشرة آلاف غرض ظلت في معبد أو مقبرة مصرية منذ قرون، ولن تكون هناك بعد ستة أشهر.

وبينما كان يحمل البغال، بحث بعينه عن الجندي الذي كان يحمل القط المصنوع من الفخار المطلي في يده. لم يجده بين مئات الوجوه. الرجل موجود. والقط موجود. في مكان ما داخل رقم العشرة آلاف هذا.

قبل مغادرة دندرة، ذهب جومار للقاء كوستاز.

كان كوستاز يشرف على دق مسامير صناديقه. رفع عينيه.

— أيها المواطن كوستاز. أجريت تقديرًا للحجم الإجمالي لما أخذ من هذا المعبد. مَدَّ إليه الدفتر مفتوحًا على صفحة الحساب. قرأه كوستاز. وأخذ وقته في التحقق من الفرضيات، وأعاد العمليات الحسابية في ذهنه.

— حدِّكم الأدنى معقول، قال أخيرًا. مع تقدير ناقص قليلًا لما يخص الضباط.

— ألا ترون هذا الرقم إشكاليًا؟

أعاد كوستاز إليه الدفتر.

— أراه رقمًا دقيقًا، أو قريبًا من الواقع. إشكاليًا بالنسبة إلى من؟ إلى اللجنة؟ لا. فمقتنياتنا موثقة. إلى الجيش؟ هذا أمر يحكم فيه ديزيه. إلى تاريخ هذا المعبد؟ بالتأكيد. لكن تاريخ هذا المعبد عرف عمليات أخذ منذ الرومان والإغريق. لسنا الأوائل. ومصر نجت ممن سبقونا جميعًا.

— هذا ليس مبررًا.

— لا. ليس مبررًا. لكنه سياق. وفي هذا السياق، ما ينبغي تقريره هو ما إذا كان ما نفعله نحن، أعني اللجنة، يمكن الدفاع عنه. أظن ذلك. أما ما عدا هذا فلست شرطياً ولا قاضياً.

— أنتم عالم رياضيات. وعالم الرياضيات لا يقول إن الحساب يمكن الدفاع عنه. بل يقول هل هو صحيح.

— وحساباتنا صحيحة، أجب كوستاز دون أن يرفع عينيه. أرشيفات، وأوصاف، وقطع للوفر.

— هذا ما طلبه بونابرت. وليس ما كنت لأطلبه أنا.

في اليوم الخامس والأخير، أشار ديزيه بالرحيل. جمع جومار جهاز التيودوليت. وانتزع دونون عينيه من السقف بأسف صادق.

— إن عدنا يومًا إلى هذا البلد في سلام، أضاف جومار، فإن هذا المعبد يستحق دراسة من ستة أشهر وحده.

لن يعودوا. وستبقى رسوماتهم.

كان الطريق إلى طيبة يسير بمحاذاة النيل يومين. وفي المساء، في المعسكر، بدأ الضباط يتحدثون عن المعابد التي سيرونها. الكرنك. الأقصر. كانت الأسماء تتردد بحماسة من يقتربون مما لم يروه قط، لكنهم سمعوا عنه طوال حياتهم.

2 - طيبة

في مساء 27 يناير، نصبت الحملة معسكرها قبالة أطلال طيبة. توقف جومار على الضفة وظل هناك دون حراك، ينظر إلى الصروح السوداء في ضوء الغروب، على الجانب الآخر من النيل. كان الكرنك يفوق كل ما تحيلوه. قاعة الأعمدة في معبد آمون رع: مائة وأربعة وثلاثون عمودًا، اثنا عشر منها في الوسط يبلغ ارتفاع الواحد منها واحدًا وعشرين مترًا. عبر العتبة وتسمّر في مكانه دقائق عدة. كانت مساحة هذه القاعة نحو خمسة آلاف ومائتي متر مربع، وهي من أكبر الفضاءات المسقوفة في العصور القديمة. — يا إلهي، تمتع دونون. لا وصف يمكنه أن ينصف هذا. لا بد أن يكون المرء هنا ليفهم.

في الليلة التي تلت يومه الأول في الكرنك، جلس جومار في فناء المعبد ومعه فانوسه، وشرع يرتب الأرقام. لم تكن القاعة كبيرة لأن فرعونًا أراد إظهار قوته. كانت كبيرة لأن لها وظيفة: أن تأوي موكبًا وجمعًا وطقسًا. كل بُعد فيها يستجيب لقيد صوتي أو ضوئي أو شعائري. لم يكن المصريون بينون هدرًا. كانوا بينون بدقة.

دُون: «يوحي انتظام النسب في هذه القاعة بنظام قياس انتقل عبر أجيال عدة بدقة مطلقة. طول القاعة يساوي تقريبًا ضعف عرضها. والمسافة بين الأعمدة الوسطى تطابق قطرها. هذه النسب ليست عرضية.»

في الخارج، نبج ابن آوى في مكان ما من الصحراء. رفع جومار عينيه. كانت النجوم فوق الأعمدة شديدة اللعان.

وفجأة، وهو يدير جهاز التيودوليت ليدُون سمت نجم مرجعي، أدرك شيئًا لم يكن ينوي إدراكه. لم يأت الفهم كبرهان يكتمل. جاء دفعة واحدة، في الجسد قبل العقل. يقين جسدي، يكاد يكون دوارًا، كما حين ينتهي حساب طويل إلى عدد مستدير فيعرف المرء، قبل أن يتحقق، أنه صحيح.

كان المحور الرئيسي للمعبد، المحور الواصل بين المدخل وأعمق مقصورة مقدسة فيه، موجهاً بزاوية ست وعشرين درجة إلى الجنوب من الشرق. تحقق من الحساب مرتين. ست وعشرون درجة. كان هذا الرقم في قياساته منذ الصباح، مدوّنًا أليًا

كمعطى بين معطيات أخرى. أما الآن، في العتمة، والنجوم ظاهرة فوقه، فقد عرف ما يعنيه هذا الرقم.

كان سمت شروق الشمس في الانقلاب الشتوي عند خط عرض طيبة. بقي ساكنًا ثواني عدة مع هذه المعلومة. كان يحمل بين يديه نتيجة لم يصغها أحد بعد على هذا النحو، وأراد أن يتأكد من أنها حقيقية قبل أن يكتبها. لم يكن الكرنك معبدًا فحسب. كان آلة فلكية موجهة بحيث يدخل ضوء الشمس الطالعة، صباح أقصر أيام السنة، إلى قدس الأقداس ويقطع المحور حتى قاعة الأعمدة الكبرى. هذه الدقة كانت في البناء. لقد حسبها المصريون. وبنوا وفقًا لذلك. كتب في لهفة مذكرة من عدة صفحات في يومياته، يفصل فيها الحساب والقياسات والخلاصة. وسيرسل هذه المذكرة إلى فورييه في اليوم التالي بالبريد. كان فورييه أكثر علماء اللجنة صرامة في الرياضيات، وسيعرف كيف يتحقق. وسيصل رد فورييه بعد ثلاثة أسابيع في سطرين: «حسابكم صحيح. دونوه من أجل وصف مصر.»

في الثانية صباحًا، عاد جومار إلى المعسكر. كانت قد مرت خمس ساعات منذ غادر خيمته. كانت يدها ترتجفان قليلًا وهو يلف أوراق الدفتر. لا من البرد، بل من شيء لم يجد له اسمًا. كان معتادًا على الاكتشافات التي تؤكد فرضية. أما في هذه الليلة فقد عاش شيئًا مختلفًا: فرضية تولد من الاكتشاف نفسه، دون أن يبحث عنها. هذا لم يحدث له قط من قبل.

كرّس دونون الأيام التالية للتجول في مجمع الكرنك، عشر ساعات في اليوم، وهو يعلم أن الوقت يضيق عليه. كانت الصروح التي يبلغ ارتفاعها أربعين مترًا تحمل نقوشًا بارزة لمعارك فرعونية. وكانت المسلات من الجرانيت الوردي منتصبة مستقيمة، كتلاً واحدة نُقلت من أسوان، على بعد مائتي كيلومتر جنوبًا. وإحداها، التي أقامتها الملكة الفرعون حتشبوسوت من الأسرة الثامنة عشرة، ارتفاعها تسعة وعشرون مترًا ونصف المتر. وكانت وجوها مغطاة بأعمدة رأسية من الهبرو غليفيه المحفورة بدقة، لا سبيل إلى قراءتها.

كان الجميع يرون الكتابات في كل مكان، في الأعمدة والجدران والتوابيت، ولا يستطيعون أن يقرؤوا منها شيئًا. كان تاريخ مصر كله هناك، صامتًا.

في الفناء الكبير للكرنك، وقف جوفروا سانت هيلير أمام سجل من النقوش البارزة تمثل حيوانات تُقَدَّم جزية. أسد، وزرافة، وقرود، وظباء. كان ينسخ الأنواع بدقة عالم الطبيعة، مدوّنًا تلك التي لم تعد موجودة في مصر. وكان كل حيوان اختفى

يمثل معطًى عن التغير المناخي منذ العصور القديمة. ما كان غيره يقرؤه زخرفة، كان يقرؤه جردًا للحبوانات.

— هذا الأسد في هذا النقش، قال لجوليو الذي كان يمر، جمجمته تختلف عن أسد أفريقيا جنوب الصحراء. ووجهه الجانبي أكثر استواءً، ولبدته أطول. إما أن الرسام أخطأ، وإما أن أسود مصر القديمة كانت تولف جماعة متميزة. أميل إلى الفرضية الثانية.

نظر جوليو إلى النقش، ونظر إلى جوفروا، وأوما برأسه ومضى في طريقه. لم يكن جوفروا بحاجة إلى جواب. كان لديه سؤاله.

في وقت لاحق من الليل، بينما كان جومار يعمل على قياسات الكرنك، سمع ضجة. لم تكن أصوات قتال. كانت أصوات عمل. ضربات مكتومة منتظمة، واحتكاك شيء ثقيل على البلاطات. أخذ فانوسه.

في القاعة، كان ثلاثة جنود يعملون على ضوء مشعلين. كانوا قد أفرغوا كوة تحوي شظايا تماثيل، رؤوس آلهة وأيدي وتماثيل نصفية، وكانوا يفرزونها على البلاطات: ما يستحق الحمل في جانب، وما هو أثقل من اللازم في جانب آخر. كان أحدهم يمسك بيديه رأس صقر من الجرانيت الأسود، حورس على الأرجح، وعينه مطعّمتان بمادة داكنة لا يسمح ضوء المشعل بتبيينها. كان يقلّبه ويحاول تقدير وزنه. بقي جومار عند مدخل القاعة. كان بإمكانه أن يتدخل. فسلطة عضو في اللجنة تنتج له منع الأخذ غير المرخص. لكنه لم يفعل. كان هؤلاء الجنود ثلاثة. وفي كتاب ديزيه ألفان. وما لا يستطيع رجل وحده بفانوس أن يوقفه، لا يستحق أن يُجرب من باب المبدأ.

في اليوم التالي، في الفناء شمال المجمع، قام جوليو باكتشاف: شظايا نقوش بارزة من الأسرة الثانية عشرة، مبعثرة بين الأنقاض، تُظهر أسلوبًا مختلفًا جذريًا: أصغر وأكثر حميمية، وصورة الملك أقل جمودًا وأكثر إنسانية. وكان وجه أحد هؤلاء الملوك يحمل تعبير إرهاب لم يكن أي فرعون من الأسرات الكبرى ليتسامح معه على آثاره.

— هذا النقش البارز هو من غير شك أصدق تمثيل نفسي لفرعون رأيت، قال جوليو لدونون الذي كان يرسم منذ ساعة. انظروا إلى العينين. ثمة إعياء هنا. إعياء السلطة، لا عظمتها.

توقف دونون عن الرسم. كان جوليو محقًا. هذا الوجه لم يكن ينظر نحو الأبدية. بعد ثلاثة أيام في الكرنك، توجهت الحملة إلى الأقصر، على بعد ثلاثة كيلومترات جنوبًا. معبد أمنحتب الثالث ورسيس الثاني. وكان طريق أبي الهول الواصل بين المعبدتين قد دُفن تحت الرمل وبيوت القرية المبنية فوقه.

رسم دونون الرواق الكبير الذي يقود من فناء المدخل إلى قدس الأقداس الداخلي. أربعة عشر عموداً برديّة الشكل، ارتفاع الواحد منها تسعة عشر متراً، ذات أناقة شكلية تشهد على الرقي الجمالي للأسرة الثامنة عشرة. وكانت الجدران تحمل نقوشاً بارزة لموكب أوبت، حيث يُنقل تمثال آمون في قارب من الكرنك إلى الأقصر كل عام. ونسخ المشهد في صفحات عدة.

وصوّرت نقوشٌ بارزة أخرى معركة قادش بين رمسيس الثاني والحثيين على صرح المدخل. ستون متراً طويلاً، تغطيها من الأرض حتى ارتفاع عشرة أمتار مشاهدٌ منحوتة بحיוية لافتة. كان هذا النقش يروي معركة متنازعاً على نتائجها. فقد كاد رمسيس أن يُحاصر قبل أن ينجو. لكنّ صرح الأقصر لم يُظهر سوى النصر. هكذا كانت الدعاية الفرعونية تعمل: تنقش الرواية الرسمية في الحجر، على ارتفاع لا يقدر معه أحد على تصحيح الوقائع.

وأمام الصرح كانت تنتصب مسلتان. هما المسلتان نفسيهما اللتان سيهدي محمد علي إحداهما إلى فرنسا عام 1830. وستبحر هذه الأخيرة إلى باريس عام 1833 على متن سفينة صُمّمت لها خصيصاً، وستُقام في ساحة الكونكورد عام 1836. كان دونون ينظر إليها عام 1799 دون أن يعلم أنها ستنتهي هناك. دَوّن أبعادها ونقوشها والخراطيش التي تتكرر على أوجهها الأربعة.

مرّ ديزيه بالمسليّتين بعد ظهر أحد الأيام. رفع عينيه نحو قمة الأولى، على ارتفاع خمسة وعشرين متراً فوقه، ثم نحو دونون الذي كان يرسم إلى جانبه.

— هذه الأعمدة القائمة، أيمكن أخذها؟

— إنها مسلات. من الغرائب. وزن كل منها نحو مئتين وثلاثين طناً.

— بوجود النهر تحتها والروافع، فعل المصريون ذلك بلا شك.

— قبل ثلاثة آلاف سنة. وقد أنزلوها من الجنوب إلى الشمال مع الفيضان. ولنقلها إلى فرنسا يلزم تحميلها على سفينة تُبنى لها خصيصاً. وليس لدينا في البحر المتوسط ما يقدر على ذلك.

نظر ديزيه إلى المسلة مرة أخرى.

— سيجد أحدهم وسيلة. لكن ليس الآن.

وعاد إلى مقر أركانه.

وفي القاعات الجانبية لمعبد الأقصر، حيث سبقهم للوصول إلى العمل، وجد دونون ما تركه المنقبون المستعجلون: شظايا تماثيل صغيرة من البرونز، وأقداماً، وأيدياً، ووجهاً كاملاً لأوزيريس من البرونز المذهب بطول خمسة عشر سنتيمتراً. كان للوجه الصفاء المميّز لبرونزيات العصر المتأخر. عينان لوزيتان مائلتان قليلاً،

وفم رقيق، ولحية مستعارة مضفورة. صُبَّ المعدن بطريقة الشمع المفقود ثم عُمل بالإزميل. وكانت الحواجب وحدود العينين مرصعة بالذهب الدقيق، والحدقتان من زجاج أسود.

وقد أنتجت برونزيات من هذا النوع بالجملة منذ القرن السابع قبل الميلاد. آلاف التماثيل النذرية التي كان المتعبّدون يودعونها في المعابد مقابل حماية الإله. ولم تكن هذه القطع ملكاً لفرد قط: كانت هبات للإله، وملكاً للمعبّد. وحين أفرغ اللصوص المخازن، أخذوا تراث آمون، لا تراث إنسان. وهذه التفصيلة لم تُبسّط مشكلة الملكية. بل عقّدها. فالإله لا يستطيع أن يطالب.

النقط دونون وجه أوزيريس وقَلْبُه. على ظهره سطر من الهيروغليفية منقوش بالإزميل، هو اسم المتبرّع على الأرجح. نسخ العلامات. ثم وضع القطعة في حقيبتيه. وعندها فُكّر في قائمة بونايرت. كان وجه أوزيريس من البرونز المذهب بلا ريب قطعة من الطراز الأول. وكان ينبغي أن يُخطر به برتوليه أو مونج لإدراجه في المجموعات الرسمية. لكنه لم يفعل. فقد كان الحدّ بين ما يأخذه لحساب اللجنة وما يأخذه لنفسه يُمحي شيئاً فشيئاً منذ دندرة. نحو ثلاثين بنداً في جرده الشخصي. وهي قطع لم تكن موجودة بعد في سجل الممتلكات الأوروبية قبل ستة أشهر. لم يكن ذلك مثل السرقة. كان يكاد يقع نفسه بذلك.

في تلك الليلة، بقي جومار ساعة أخرى أمام واجهة المعبد. كان هذا المعبد قد بُني على مدى ألفي عام، يضيف كل فرعون صرحاً أو مشى أو قاعة. ألفا عام من البناء المتواصل، دون قطيعة في الأسلوب، ودون مراجعة للمشروع. لقد أنجزت مصر ما لم تحسمه أوروبا قط: نقل مشروع معماري عبر الأجيال دون أن يقرّر أحد نهايته.

والآن كان الجنود يحملون قطعاً من هذا المشروع في حقائبهم. لا للتدمير. فهم لم يكونوا مخربين عن قصد. لكن النتيجة كانت واحدة. فالشظايا المتجهة إلى باريس أو إلى المجموعات الخاصة للضباط لم تعد جزءاً من ذلك النظام المتماسك. صارت أشياء معزولة، وتحفاً غريبة، وتذكارات.

دُون جومار قبل أن يعود: «الكرنك نظام. لكل عنصر مكانه في المجموع. نقل عنصر لا يهدم الكرنك، لكنه يهدم هذا العنصر بوصفه جزءاً من النظام. سيكون في مكان آخر شيئاً آخر، تحفة أو قطعة اقتناء، ولن يكون هنا شيئاً محدداً.»

وعند خروجه من الأقصر تلك الليلة، لمح دونون رجلاً مسناً جالساً عند مدخل المعبد. كان يرتدي جلباباً أبيض ويراقب الجنود الذين يحملون الكتل في الساحة. لم يكن يبدو غاضباً. كان وجه إنسان يشاهد أمراً سبق أن رآه.

توقف دونون. نادى حسن الرجل. وتبادلا بضع كلمات.

— يقول إن أباه كان حارس هذا المعبد. وجدّه. وجدّ جدّه. لا يعرف كم جيلاً. يقول إن العثمانيين جاؤوا. وإن المماليك جاؤوا. والآن الفرنسيون هنا. وفي كل مرة يأخذون حجارة.

طلب دونون من حسن أن يترجم جواباً: إن الفرنسيين جاؤوا للدراسة لا للتدمير. ترجم حسن. فردّ الرجل بأن العثمانيين أيضاً كانوا يقولون إنهم جاؤوا لأسباب أخرى. وكانوا يأخذون مع ذلك.

لم يجد دونون ما يردّ به. رسم الرجل من الخلف. الجلباب الأبيض، وكتلة الغرانيث، والجنود في الساحة خلفه.

أما ما لم يكن دونون يراه، خلف المشهد، فهو ما كان يفعله حسن بعد ساعات العمل الرسمية.

كان حسن المترجم الرسمي للجنة. مصري من القاهرة أدرك أن منصبه يمنحه نفاذاً مميزاً إلى العالمين. كان يترجم أسئلة العلماء إلى الفلاحين. أما ما لم يكن يترجمه بانتظام، فهو ما كان الفلاحون يقولونه فيما بينهم عما يريده العلماء حقاً.

وقد فهم جومار ذلك بعد الأسبوع الأول. كان حسن وسيطاً صاحب مصلحة، يسهّل مشتريات العلماء من التجار المحليين ويأخذ عمولة. وقدرها جومار بخمسة عشر في المئة. ولم يكن البائعون ولا المشترون يعلمون أنهم يقفون عند طرفي سلسلة كان حسن حلقتها المركزية.

في ليلة بالكرنك، نهض جومار وتبع حسن عن بعد. عبر حسن المعسكر الرئيسي نحو القطاع الذي يقيم فيه كبار الضباط، وتوقف أمام خيمة، وتبادل بضع كلمات بصوت خافت مع خادم. دخل الخادم إلى الخيمة وخرج ومعه ضابطان، عقيد ونقيب من هيئة الأركان. فتح حسن كيساً من القماش. وعلى ضوء مصباح زيتي، رصّ على بساط مطويّ أربع قطع. أجمل مما كان يعرضه نهراً على صف الضباط. جعران ملكي من اللازورد، نادر وثقيل. وكأس من المرمر الشفاف. وتمثال صغير لبتاح من الفيثاس الأزرق بطول عشرة سنتيمترات. وتميمة من الذهب الخالص تمثّل باستنت جالسة.

فحص الضابطان القطع. ساوم العقيد. وتنازل حسن عن السعر بسهولة دألت على أنه أدرج الهامش منذ البداية. وانتقلت القطع الأربع من يد إلى يد. وجمع حسن المال دون أن يعدّه.

عاد جومار إلى المعسكر دون أن يراه أحد. وفي الصباح استجوب حسن مباشرة، دون موارد.

— لقد رأيت، قال جومار. السوق الليلية مع الضباط.

أوماً حسن يرأسه دون حرج.

- من أين جاءت هذه القطع؟
- من رجل من القرنة عبر النيل في الليل. يعرف مقابر لم يزرها الفرنسيون بعد. وهو يبيع ما يجده منذ سنين.
- والعمولة التي تأخذها؟
- عشرة في المئة من ثمن البيع. الضباط يدفعون أكثر من الجنود. وضباط الأركان يدفعون أكثر من ضباط الخط. هذا منطقي.
- وعلى ما تبيعه للعلماء نهاراً؟
- خمسة عشر في المئة. الكمية تعوض الثمن. أنا أيسر معاملات بين من يريدون البيع ومن يريدون الشراء. أما النهب فقد بدأ قبلي وسيستمر بعدي. أنا لا أحفر المقابر. ولا أكسر الجدران. أنا أترجم الأسعار.
- ابتعد حسن. كان قد قال ما عنده. والحقيقة بسيطة: كان من القاهرة، ابن كاتب في المحكمة الشرعية، متمكناً من العربية ومن الفرنسية بما يكفي للعمل عند هؤلاء الرجال. وقد قبل هذا العمل لأنه مجزٍ ولأن الفرنسيين لا يدومون. فالجيوش تمر. والمعابد تبقى.
- أما ما لم يقله حسن لجومار، فهو أنه دخل القاعة الكبرى في معبد الكرنك قبل يومين، وحده، عند الفجر، قبل أن ينهض العلماء.
- لم يكن قد رأى الكرنك قبل هذه الحملة. فأجداده لم يبنوا كل هذا. ولم يكن يملك مفتاحاً لهذه الهيروغليفية أكثر من دونون. لكن أحداً لم يطلب منه فك رموزها. كان المطلوب منه أن يترجم الأسعار.

3 - وادي الملوك

في 30 يناير، كان جومار أول من عبر النيل إلى الضفة الغربية. كان قد طلب الرحيل قبل الفجر، لينتقد بالموقع قبل أن يتحرك الجيش.

امتدت المدينة الجنازية الطيبة على عدة كيلومترات في الصحراء الجبلية. كان جومار يعرفها من روايات بوكوك ونوردين، لكن هذه الروايات لم تهئ عينه الخرائطية لحقيقة الأرض: وادٍ كلسي محفور في الجرف، على خمسة كيلومترات من النهر، وكل فتحة في الصخر فيه تدلّ على مدخل مقبرة. عشرات الفتحات المرئية. ولا ريب أن غيرها ما زال تحت الرمل.

تسلّق حافة صخرية تشرف على مدخل الوادي. ومن هذا الموضع كان يرى كل شيء: فتحات المقابر في الجرف، وطرق الحجارين، وآثار الاستغلال البشري القديم لهذه الصخور. كان الفراعنة قد تخلّوا عن الأهرامات إلى مقابر محفورة هنا،

يُفترض أنها أكثر تكتماً. ومع ذلك وجدها اللصوص. وقد أفرغت كلها تقريباً منذ العصور القديمة. كان جومار يقيس ما لم يستطع أحد سرقة. كان يمارس ما يسميه « التثليث الأرضي ».

وهي أن يصوب من نقطة مركزية على جميع المعالم المحددة تبعاً بالتبؤدوليت، ويدون الزوايا، ويحسب المسافات انطلاقاً من القاعدة المقيسة على الأرض. في ذلك الصباح، عمل منذ الفجر دون انقطاع. لحق به جندي نحو السابعة يحمل مؤنثته. شكره جومار. كان جوليو يعمل على نحو مختلف. فحيث كان جومار يطلب الزوايا والمسافات، كان جوليو يطلب النسب. ما يقوله يُعد عن آخر، وما تكشفه نسبة عن القصد. لم تكن في دفاتره أعمدة الأرقام التي في دفاتر جومار. كان فيها رسوم مشروحة، ونسب معبر عنها بكسور، ومقارنات بين المواقع. مهندسان تخرّجا في المدرسة نفسها، ينظران إلى الأحجار نفسها بعينين مختلفتين. أما ما لم يكن جومار يراه من حافته، فهو ما كان يفعله أدلاء القرنه بعد أن يقودوهم إلى المقابر.

كان فلاحو القرنه يعرفون كل مدخل من مداخل وادي الملوك منذ أجيال. كانت قريتهم مبنية فوق المقابر ذاتها. البيوت تقوم على المدافن الجوفية، والأطفال يكبرون فوق أموات الأسرات. وقد استغلوا المقابر في تكتّم منذ قرون، يبيعون لتجار القاهرة وللمسافرين الأوروبيين النادرين الذين يجروون على المجيء إلى هناك. كانت التجارة متواضعة، متواصلة، يوازنها خطر لفت انتباه السلطات العثمانية.

وقد غير وصول الفرنسيين هذا التوازن.

أراد العلماء أن يروا كل شيء، وفوراً. طلبوا أدلاء إلى مقابر ما كانوا ليهتدوا إليها وحدهم. وبقيادة دونون وجوليو، كشف رجال القرنه مداخل كانوا قد امتنعوا عن إطلاع السلطات عليها. وبعد مرور الفرنسيين، صارت المقابر « مكتشفة » ومعروفة ومرسومة على الخرائط. وما حافظ عليه اللصوص من تكتّم طوال قرون زال في بضعة أيام.

— نحن نخلق سوقنا الخاصة، قال جوليو. بمجيئنا إلى هنا بجيش ودفاتر، نسرّع النهب الذي نجده عند وصولنا تسريعاً كبيراً.

— لسنا نحن من ينهب، قال دونون.

— لا. لسنا نحن. لكننا نحن من يهيئ الظروف لكي يتمّ ذلك أسرع بعشر مرات. نزل دونون وجوليو إلى المقابر مع الأدلاء. كان الممر ينحدر انحداراً شديداً، وهو من الضيق بحيث وجب الزحف في بعض المواضع، والمرافق غارقة في الغبار الكلسي. وكان المشعل يلقي ظلالاً متحركة على الصخر المنحوت. وكان الهواء

يزداد برودة، ثم ثقلاً، ثم سكوناً. هواء لم يتحرك منذ قرون ويبدو أنه يقاوم الداخلين. ثم خرجا إلى قاعة أمامية جدرانها مغطاة برسوم ذات نضارة مذهلة.

كان جوليو يَحْمَنُ المشاهد التي سَيُطْلَق عليها لاحقاً كتاب ما في العالم الآخر وكتاب البوابات. كان قد قرأ كيرشر قبل الرحيل. فكل ساعة من ساعات الليل تقابل محنة، وكل محنة تقابل إلهاً حارساً. كان يرسم دون أن يفهم. ويدَوِّن التقابلات على هامش قياساته.

— هذه الرسوم رائعة وأنا لا أفهمها، قال جوليو وهو يضع مصباحه. أنوبيس برأس ابن آوى، هذا أعرفه. وإيزيس بجناحين مبسوطين. لكن الباقي، هذه الإيماءات الطقسية وهذه الرموز، موسوعة لا نملك مفتاحها.

زارا سبع مقابر في يومين. وكان أكثرها إثارة للإعجاب مقبرة رمسيس الثالث، التي زارها بروس قبل ثلاثين عاماً: ممرات طويلة تتحدر عميقاً تحت الأرض. وكانت كل قاعة تقابل ساعة من رحلة الشمس الليلية في العالم الآخر. لقد تصوّر المعماري المكان تقوياً جنانزياً.

أوقفت رسوم هذه المقبرة دونون في مكانه. كان قد رأى جداريات كنيسة السيستين، وأعمال رافائيل في إيطاليا. ولم تكن هذه الرسوم أدنى منها. كانت مختلفة. رشاقة خطية، وثقة في الخط، ولوحة من ستة ألوان تعطي الانطباع بأنها تضم كل شيء. — هذه الرسوم تضاهي أجمل ما رأينا من جداريات في أوروبا أو تفوقه، قال جوليو. والخط أثبت من كثير مما يُعَلَّق في باريس.

كانت حجرة الدفن تحتفظ بعدً بالتابوت من الغرانيت الأحمر، المنحوت بمشاهد دينية. أثقل من أن يحمله اللصوص القداماء.

— دقة الهيروغليفية، قال دونون دون أن يرفع عينيه عن التابوت. كل علامة منحوتة كأن صائغاً نحتها. كانوا يعلمون أنه آخر شيء سيراه الميت قبل الخلود.

— كان لهؤلاء المصريين تصور للموت بالغ التعقيد حقاً. فالموت لم يكن نهاية بل رحلة، وسلسلة من المحن. إنه لاهوت لا يقلّ إتقاناً عن أي لاهوت أوروبي.

— ما لا نفهمه الآن، أجاب جوليو، سيفهمه آخرون لاحقاً. وستكون نسخنا حينئذ وثائق ثمينة للتحقق من عمليات فكّ الرموز.

في المقبرة الثالثة من ذلك اليوم، وهي حجرة متواضعة، ربما لموظف من رتبة متوسطة، وجد دونون على الأرض لفافة بردي منشورة جزئياً. كان اللصوص قد تركوها: لا ذهب فيها، ولا قيمة سوقية فورية. التقطها بحذر. كان البردي جافاً، هشاً عند الحواف، لكن قلب اللفافة صمد. فردّها على ركبتها.

كانت الوثيقة تبلغ أربعين سنتيمتراً ارتفاعاً وأكثر من مترين طولاً. وكانت مغطاة بأعمدة من الهيروغليفية السوداء، ورسوم توضيحية بالحرير الأحمر والمغرة:

ميزان في إحدى كفتيه ريشة وفي الأخرى قلب إنسان؛ ورجل جاثٍ أمام اثنين وأربعين قاضياً؛ وأنوبيس برأس ابن آوى ممسكاً بصولجان واس. كان هذا ما سيُسمى لاحقاً الفصل الخامس والعشرين بعد المئة من كتاب الموتى. وزن القلب، حكم الروح.

لم يكن أيُّ منهما يعرف قراءة هذا النص. غير أن دونون عرف الرسوم التوضيحية، فقد رأى مشاهد مماثلة في مقابر أخرى. لفّ البردية بعناية وغلّفها بكتّان منديل. وفي باريس سدرسها مارسيل. لم تكن البردية قد صُنعت لهذا، لكنّ هذا ما آل إليه أمرها.

وفي المقبرة الرابعة من ذلك اليوم، وجد دونون بردية ثانية. كانت أكبر من الأولى. انحنى ليأخذها.

كان الجندي المرافق قد سبقه إليها. لم يسبقه تماماً. فقد رأيا البردية في اللحظة نفسها، لكنّ الجندي خطا خطوة بينما كان دونون لا يزال يحسب. وكانت يد الجندي قد استقرّت عليها. تبادلّا النظر لحظة. ثم انتزع دونون البردية من يدي الجندي. لا بعنف، ولكن من غير تردد أيضاً. وقال: «لجنة الفنون». فأفلتها الجندي. لم تكن لديه في الحقيقة حجة يردّ بها.

كانت لجنة الفنون سلطة مشروعة. وكان من حقه أن يأخذ الوثائق العلمية. وهذا يختلف عما كان الجندي على وشك فعله.

غادر الجندي الحجرة. وبقي دونون وحيداً مع مشعله والكوة الفارغة. كان ما فعله قانونياً. وكان سريعاً وحاسماً ومن غير تشاور. وكان ما فعله هو الحركة نفسها التي قام بها الجندي: اليد الممدودة نحو شيء لا يملكه، والتقدير الفوري للقيمة، ثم الاستيلاء. لم يكن الفارق إلا في الاسم الذي يُطلق على هذه الحركة بحسب من يقوم بها. عرف دونون ما فعله للتو، لا الحركة ذاتها، فالحركة قد انقضت منذ ثوانٍ عدة، بل ما تعنيه الحركة: ادّعاء سلطة تتيح له أن يأخذ قبل الجندي. وكانت النتيجة واحدة. خرج من الحجرة دون أن يلتفت. ودون في يومياته الخاصة سطرًا واحدًا: «أخذت البردية قبل الجندي».

أما الجندي فلم يعد خالي اليدين. عاد إلى الحجرة والتقط ما تركه دونون: ثلاث تمائم من الفخار المزجج مكسورة على الأرض، وقطعة من الكرتوناج المذهب، وشظية من الحجر الجيري المطلي تحمل عين أوجات واضحة. أشياء من الدرجة الثانية لم يرها دونون جديرة بحقيقته. وراها الجندي جديرة به. كلاهما أجرى انتقاءً، ولم يختلف بينهما إلا المعيار.

عند الظهر، نزل جومار من حافته الصخرية وانضم إلى دونون.

— مقبرتك تقع على بعد مئة واثنين وثلاثين مترًا إلى الشرق من النقطة التي قسستها قمةً للجرف.

— وهل هذا مفيد؟ سأل دونون وهو يمسح يديه المغطاتين بغبار الحجر الجيري.
— حين يريد أحدهم أن ينقب في هذا الوادي تنقيبًا منهجيًا، ستدله خريطتي على موضع البدء. أما الآن فلا أحد يعرف كم من المقابر لا يزال مخبوءًا تحت الرمال. وقياساتي ستدله على موضع الحفر.

نظر إلى أعمدة الأرقام في دفتر جومار دون أن يفهم الحسابات.

— أنت تفكر منذ الآن فيمن سيأتون بعدنا.

— أفكر فيهم منذ البداية. لا نستطيع أن نفعل كل شيء. لكن بوسعنا أن نجعل من يأتون بعدنا قادرين على استئناف العمل من حيث نتوقف.

في طريق العودة إلى المعسكر، تأمل جومار ما علمه إياه يومان في وادي الملوك.
لا عن المقابر. بل عن النهب.

لقد رأى أربعة أنماط مختلفة من المنطق تعمل في آن واحد منذ وصوله إلى الوادي: أدلاء القرنه الذين يستغلون المقابر التي كشفها العلماء، مسرّعين تجارة قديمة بفعل الطلب الجديد؛ والجنود الذين يلتقطون ما يستطيعون حمله، بلا تنظيم ولا معيار؛ والضباط الذين يشترون بتكثّم ومن مالهم الخاص؛ والمفوضون الذين يأخذون بسلطة ومنهج وتوثيق. وهو نفسه بقياساته، ودونون بدفاتره وحقائبه.

أنتجت هذه الأنواع الأربعة النتيجة نفسها: أشياء كانت في مصر لم تعد فيها. وما أقلقه لم يكن الكمية، بل غياب خط فاصل واضح بين المشروع وغير المشروع. كانت للجنة سلطة رسمية لجمع العينات العلمية. لكنّ هذه السلطة لم يكن لها تعريف دقيق. لم تكن تقول: يمكنكم أخذ هذا لا ذاك. كانت تقول فحسب: أنتم هنا من أجل العلم. والعلم هو الذي يقرر.

كتب في يومياته: «التمييز بين الجمع والنهب تمييزٌ في الوجهة لا في الفعل. نحن نجعم لباريس. وهم ينهبون لأنفسهم. ووادي الملوك لا يفرّق بين الأمرين». ثم وضع اليوميات جانبًا. لم تكن هذه خلاصة يريد أن يشاركها أحدًا.

في السهل، عند سفح الجرف، توقف ديزيه أمام تمثال رمسيس الثاني الضخم المطروح أرضًا. كان الوجه الهادئ يتطلع إلى السماء. وحمل الصدر نقوشًا تعلن ألقابه: سيّد الكون، ربّ الأرضين.

— كان رمسيس هذا يأمر عشرات الآلاف من الرجال، قال ديزيه وهو ينظر إلى التمثال الساقط. كان يشيّد آثارًا للأبد. وها هو الآن في الرمل، مكسور الأنف.

وضع جوليو سلسلة المساحة جانباً وفحص التمثال بعين مهندس.

— الغرائيت يأتي من أسوان، على بعد مئتي كيلومتر إلى الجنوب. استخرجوا الكتلة الخام، ونقلوها عائمة إلى طيبة مع الفيضان، ثم نحتوها هنا. الجبل هو الذي جاء إلى المعبد، لا العكس.

قبل فجر اليوم التالي، انتظر جومار ودونون أمام تمثالي ممنون أن تشرق الشمس. لامست الأشعة الأولى الحجر. ولم يحدث شيء. فقد كان التمثال قد كَفَّ عن الغناء منذ نحو ستة عشر قرناً. نظر أحدهما إلى الآخر.

— لم يعد يغني، أضاف جومار. يقال إنه صمت حين أمر إمبراطور روماني بترميمه. ولعل الحجر، إذ يتمدد بالحرارة المفاجئة للصباح، كان يهتز في شقوقه. ظاهرة فيزيائية محضة.

— بالطبع. لكن تخيل ما كان يشعر به الحجاج القدماء حين يسمعون ذلك دون تفسيرك الحراري. كان التمثال في نظرهم يتكلم حقاً. وكان لهذا الاعتقاد قوة دينية لا يستطيع تفسيرك، مهما بلغ من الصواب، أن يحلّ محلها.

مرّ ديزيه بالتمثالين في مطلع الصباح، ورفع عينيه إلى الوجوه الجامدة، ثم مضى. — مثير للإعجاب. لكنّ الممالك يشغلوننا أكثر في الوقت الحاضر. عودوا حين تنتهون.

بقي جومار أمام تمثالي ممنون بعد رحيل ديزيه. كان ينظر إلى الثمانية عشر متراً من الكوارتزيت الجالسة في السهل، بلا معبد حولها، وبلا سياق معماري ظاهر. هذا هو ما لم يستطع الجنود وتجار القرنة حمله. تمثال بارتفاع ثمانية عشر متراً منتصب في السهل الطبيعي، يُرى من بُعد خمسة كيلومترات، في وسط العدم. كان واقعة مكانية لا يستطيع أحد أن يزحزحها. ولم يكن للتمثال معنى إلا هناك، في ذلك المشهد بعينه.

كانت الأشياء المنقولة تقطع هذه الصلة منذ اللحظة التي تُؤخذ فيها. فالأوشابتي المصنوع من الفخار المزجج في مقبرة من وادي الملوك كان في مكانه. لقد صُنِع ليكون هناك، ليرافق ذلك الميت بعينه في تلك الرحلة بعينه.

ثم طوى دفتره وحمل أدواته ونزل عائداً إلى المعسكر. وبقي التمثالان خلفه، لا يتغيران، في سهلهما. كانت تلك ميزتهما على جميع الأشياء التي تُحمل. لم يكن في وسعهما أن يرحلا. ولأنهما لا يستطيعان الرحيل، ظلا على ما كانا عليه دائماً.

4 - أسوان

في الثاني من فبراير، أمر ديزيه باستئناف المسير. بقيت طيبة خلفهم، وظلت الصروح مرئية بعد ساعة من الانطلاق.

صعد الرتل نحو أسوان، على بعد مئتي كيلومتر إلى الجنوب. وكان المشهد يضيق: الشريط الأخضر على طول النيل، ثم الصحراء مباشرة، والتلال الصخرية تقترب أكثر فأكثر من النهر. وصارت قرى الفلاحين أبعد بعضها عن بعض. وكان الوادي يضيق.

وكلما تقدموا جنوبًا تغيّر السكان. أخذ النوبيون ذؤو البشرة الأكثر سمرة يحلون شيئًا فشيئًا محلّ الفلاحين العرب. وتغيّرت المزروعات كذلك. فالدورا، وهي الذرة الرفيعة الأفريقية، حلّت محل القمح. وصارت البيوت أكثر انخفاضًا، مبنية بالطوب اللبن، وواجهاتها بلا نوافذ. كان الجيش الفرنسي يعبر منطقة لم يبلغها أوروبي منذ زمن بعيد.

كان سكان القرى يراقبون مرور الرتل من فوق الأسطح المستوية. لم يهربوا. كانوا يراقبون. دَوّن جوليو هذا الفارق في دفتره. فقد تعلّم فلاحو صعيد مصر منذ قرون أن ينتظروا مرور الحيوش. كانوا يعرفون ما تكلفه المقاومة، وما يساوي التعاون. ولم يقدّموا هذه ولا ذاك. كانوا ينتظرون.

كان الرتل يحمل أشياء منذ البداية. أدرك جوليو ذلك تدريجيًا وهو يراقب دواب الحمل. عند الانطلاق من طيبة، كانت البغال تحمل المؤن ومعدات المعسكر وصناديق الذخيرة. وبعد أيام قليلة، صارت البغال نفسها تحمل أحمالًا إضافية. أكياسًا من القماش وصناديق خشبية مرتجلة رُبِطت فوق الحمل. وكان الجنود قد صنعوها بأنفسهم في مبيت كل مساء.

توقف جوليو ذات عصر قرب بغلة مثقلة بوجه خاص. كان كيس القماش سيئ الإغلاق. وبرزت منه زاوية من الحجر الجيري المنحوت، شظية من نقش بارز، ستون سننيمترًا على أربعين تقريبًا، تمثل الجزء الأسفل من شخصية في موكب: أسفل الثوب، والقدمين، وأسفل صولجان. عرف الطراز. العصر البطلمي، وربما كانت قطعة أعيد استعمالها في الموقع.

لاحظ الجندي الذي يقود البغلة نظرتَه. فشَدَّ الكيس دون كلمة. واصلوا المسير.

— مصر تذهب نحو الشمال على ظهر بغل، قال جوليو لدونون عند العودة من المعبد.

— جزء من مصر. الأخف.

— والأسهل حملًا. هذا ما يقرر ما يرحل وما يبقى. لا القيمة. ولا الأهمية التاريخية. بل الوزن.

تأمل جومار لحظة.

— وهذا يعني أن تاريخ مصر الذي ستراه باريس سيكون تاريخ ما كان وزنه أقل من عشرين كيلوغرامًا. وكل ما عداه سيبقى هنا. في تلك الليلة، جلس جومار قرب النيل وتأمل النهر. وقدّر عرض المجرى بعينه دون قصد: نحو ثلاثمئة متر. تيار معتدل.

كان النيل يجري نحو الشمال. وكذلك ما كانوا يحملونه. كان للجيش طرق تموينه، وقوافله النهرية، وزوارقه التي تنحدر نحو القاهرة بالتقارير والمراسلات والعتاد. وعلى متن هذه القوارب نفسها كانت تنحدر أيضًا الأشياء المجموعة، والصناديق الرسمية للجنة، والطرود غير الرسمية للضباط، والأكياس المربوطة بدواب الحمل التي تتبع الضفة.

كان النيل طريق النقل منذ أربعة آلاف سنة. فقد أنزل الفراعنة غرانيت أسوان نحو طيبة على مياهه. وأنزل الرومان المسلات نحو الإسكندرية مع التيار. والآن صار الفرنسيون ينزلون نحو القاهرة ما خلفته القرون في صعيد مصر. لا على الماء بعد اليوم، بل على ظهور الدواب. ولم يكن النهر يميّز بين البضائع. كان يحمل ما يؤكل إليه.

فكر جومار في الأعداد. كان الجيش قد عسكر في اثني عشر موقعًا تقريبًا منذ مغادرة القاهرة. وكانت كل محطة تنتج حصتها من الأشياء. وكل ما أمكن حمله انزل نحو الشمال، منجذبًا إلى السوق الباريسية، والمجموعات الخاصة، والوفور. لم يكن هناك مسؤول واحد. كان هناك انحدار، والأشياء تتبع الانحدار. في الثاني عشر من فبراير، توقفوا في كوم أمبو.

تبين جوليو المعبد قبل أن يترجل عن حصانه. كان شبه مدفون تحت الرمال. قضى جوليو يومي التوقف بسلسلة المساحة في الأجزاء المكشوفة من المعبد. كانت النقوش البارزة في غاية الوضوح. لقد حافظ الفن المصري على لغته البصرية مدة أطول من أي مدرسة أوروبية.

— هذه الأدوات على الجدار، قال جوليو وهو يتوقف أمام سجل في قاعة داخلية. مباضع وملاقط ومجسات. كان الأطباء المصريون يمارسون الجراحة. لم يذكر أي مؤلف قديم ذلك بمثل هذه الدقة.

كان دونون ينسخ الأدوات واحدة واحدة في دفتره، مدوّنًا أبعادها ووظيفتها المرجحة.

جاء جراح الكتيبة العسكري — رجل يدعى برويان، تلميذ سابق في مدرسة الجراحة بباريس — ليرى نسخ دونون. وفحص الرسوم صامتًا مدة طويلة.

— هذا الموضع المنحني، قال أخيرًا وهو يشير إلى أداة على الجدار. نستخدمه في الشقوق البطنية العميقة. يتيح انحناءه الانزلاق تحت الأعضاء دون ثقبها. كنت أظنه اختراعًا حديثًا، من السنوات العشر الأخيرة.

— وهذه المجسّات ذات الزيتون، قال دونون مشيرًا إلى أداة أخرى. هل تعرفها؟ — إنها لقسطرة الإحليل. الشكل نفسه والحجم نفسه. المعدن مختلف — برونز بدل الفولاذ — لكنّ الأداة هي ذاتها. لقد حلّ أحدهم هنا المشكلة التشريحية نفسها، على حدة، بفارق ألفي سنة.

بقي ساعة أخرى أمام الرسوم، يعرّف الأدوات واحدة واحدة ويشرح استعمالها. وكان دونون يدوّن الشروح على هوامش رسومه التخطيطية. وأنتجت هذه القراءة المزدوجة — رسم الفنان وتعليق الجراح — ما لم يكن في وسع أحدهما أن ينجزه وحده: فهم الشيء بمعرفة وظيفته.

— ينبغي أن تأتي غدًا صباحًا، قال دونون. هناك سجلات طبية أخرى في القاعات الخلفية.

وفي صباح اليوم التالي، جاب برويان ودونون معًا القاعات الداخلية للمعبد، والجراح يعرّف الأدوات ويملي استعمالاتها بينما يرسم دونون وينسخ. وسيُنتج عمل اليومين هذا إحدى أكثر اللوحات اقتباسًا في «الوصف»: فهرس الأدوات الطبية في معبد كوم أمبو، مع شروح وظيفية من ممارس معاصر.

وفي أثناء ذلك كان جوليو يقيس المعبد ويتأمل ما يعنيه بقاؤه. وكان الجواب بسيطًا: الرمل هو الذي حماه. فما دفعه هو ما صانه. وحدث ديزيه بذلك في إحدى فترات الاستراحة.

— إن أردنا حقًا أن نحافظ على هذا المعبد، قال جوليو، فينبغي تركه على حاله. ألا نكشف شيئًا. ولا نمسّ شيئًا. الرمل يحميه أفضل مما فعل نحن.

— أتنصّحني ألا أفعل شيئًا؟ قال ديزيه بلمسة من التسلية.

— أنصحك بأن تأخذ في الحسبان أن وجودنا هنا ليس بالضرورة نافعا لما جئنا لدراسته.

لم يجب ديزيه. كان عليه أن يطعم جيشًا وأن ينهي حربًا. ولم يكن لاعتبارات جوليو الأثرية أي وزن في قراراته.

راقب جوليو ما يغادر المعبد: جنودًا يخرجون من القاعات الداخلية بأكياس ثقيلة، وضباطًا يشترون قطعًا من تاجر من إسنا جاء خصيصًا، ودونون نفسه يشتري قطعتين بعد مفاوضات أجراها حسن.

وما كان يراه هنا قد حدث في دندرة وفي طيبة، وسيتكرر في أسوان. كانت البنية دائماً نفسها: جنود يأخذون مباشرة، وتجار محليون يزودون، ووسطاء ييسرون، وعلماء يشتررون بسلطة مشروعة.

كان هذا المعبد مكرّساً لإلهين — سوبك وحارويريس — بتمثال صارم: مدخلان، وقاعتان ذواتا أعمدة، وهيكلان. ولاحظ جوليو أن المحورين مزاحان قليلاً. لقد حلّت العمارة مشكلة إلهين متساويين دون تراتب ظاهر.

— هذه المشاهد لا تختلف كثيراً عن تلك التي نراها على أقواس النصر الرومانية، قال دونون لجومار وهو يشير إلى سجلات الأسرى الراكعين أمام الفرعون المنتصر. كل الحضارات تصوّر انتصاراتها العسكرية على النحو نفسه.

— ربما لأنها أيسر السبل وأوضحها لنقل ميزان القوى مباشرة. لقد كان الفن الملكي دائماً في خدمة الدعاية السياسية.

في اليوم الأخير بكم أمبو، رأى دونون ضابطي صف بكسران بالمطرقة الثقيلة نقشاً بارزاً من الجدار الداخلي للهيكل. كانت اللوحة تمثّل أدوات جراحية شبيهة بتلك التي عرّفها برويان. وكان رجل واحد يستطيع حملها.

— أوفقا هذا، قال دونون.

— لدينا الإذن. قال النقيب لاشيز إن بوسعنا ذلك.

ذهب دونون يبحث عن ديزيه. فاستدعى ديزيه النقيب لاشيز. ولم ينكر هذا الأخير. فقد رأى ضابطاً آخرين يفعلون الشيء نفسه في طيبة وفي دندرة. ولم يكن يعلم أن ذلك ممنوع.

— هذه الآثار تعود إلى اللجنة. لا تمسّوا شيئاً منها إلا بأمر كتابي مني.

انسحب لاشيز. كانت اللوحة الحجرية مكسورة عند قاعدتها، فقد أدّت ضربات المطرقة الثقيلة عملها. لم يكن في الإمكان إعادتها إلى مكانها. أمسك بها دونون بكفتي يديه ووضعها مسطحة على الأرض. لم يكن ذلك أفضل، لكنه كان أهون من تركها تسقط.

ذهب للقاء ديزيه في المساء.

— هل يحدث هذا كثيراً؟

— أكثر مما أعلم. جندي يسير منذ شهرين، ويرى حجارة مغطاة برموز لا يفهمها، فيأخذ ما يقدر على رفعه. هذا أمر إنساني. لا أستطيع مراقبة كل معبد.

— وكيف تصوغون الفرق بين ما لا تستطيعون مراقبته وما تجمعه اللجنة رسمياً؟

— لديكم استمارات. ولدى مفوضيكم تفويضات. أما الجنود فليدهم أكياس. ليس الأمر سواء.

نظر إلى دونون.

— أعلم أن ذلك لا يكفي. وأنتم تعلمون ذلك أيضًا. لكنه كل ما أملك أن أقدمه لكم من تمييز.

استأنف السير، ثم توقف مرة أخيرة.

— ذلك المعبد هناك. دخلته ذات ليلة وحدي. تأملت تلك الأعمدة في الظلام عشرين دقيقة. لا أعرف ماذا فهمت. لكنني لن أنساه. تصبحون على خير.

في صباح اليوم التالي، عاد دونون ليرى اللوحة المكسورة. كانت قد اختفت خلال الليل. شخص ما — ليس لاشيز، فالضابط المعاقب كان تحت المراقبة — حملها مع ذلك. قدّم إفادة مكتوبة إلى ديزيه. فحفظ ديزيه القضية دون متابعة. لم يكن هناك شاهد، ولا اسم، ولا دليل. كانت اللوحة في أمتعة أحدهم بين كوم أمبو وأسوان.

وفي اليوم التالي، على مسافة ساعة سير من كوم أمبو، حوّل جوليو حصانه نحو مصلى صغير من الحجر الرملي يُرى على بعد خمسين مترًا من الطريق. كان قد انكشف جزئيًا من الرمال عند مرور كتائب الطليعة.

كانت الجدران قائمة. أما السقف الخشبي فقد انهار. وفي الداخل كانت الرسوم الجدارية ظاهرة على ثلاثة جوانب. مواكب، وآلهة في مراكب، ونقوش هيروغليفية تمتد على سبيلين. كانت الكوّات قد احتضنت تماثيل صغيرة، وقد غدت فارغة. وكانت الأرض مغطاة بشظايا من الفخار المزجج، بقايا ما كان تماثيل صغيرة، تحطمت وهي تُنتزع من قواعدها.

مرّ جنود من كتبية المؤخرة عند الفجر. استنتج جوليو ذلك من الآثار: آثار أحذية حديثة في الرمل، وملاط لا يزال أبيض عند حواف الكوّات المفرغة. عمل سريع، بلا تردد. كان هؤلاء الرجال يعرفون ما يبحثون عنه.

شرع يصف في دفتره الرسوم الجدارية. وهي الوحيدة التي لم تُمسّ، لأنها أعلى من أن تُنال بسهولة. ثم شدّ انتباهه شيء ما. ففي السجل العلوي، على يمين اللوحة الثالثة، كان نقش بالديموطيقية يمتد على أربعة أسطر. نسخه علامة علامة، بدقة مهووسة، في ثلاثة أرباع الساعة من العمل تحت حرارة الصباح.

ستكون النسخة الوحيدة الموجودة. فالمصلى سينهار في السنوات التالية. وستبقى نسخته في المحفوظات، بانتظار قارئ.

انصرف جوليو ليلحق بالرتل.

ترك التقدّم نحو أسوان، بعد كوم أمبو، وقتًا ضئيلاً للتوقيفات. كان جوليو يرسم وهو على ظهر الحصان ما استطاع، فيخطّ سريعًا هياكل المعابد التي تلوح له من الطريق. وكانت لهذه الرسوم السريعة حيوية لم تكن الرسوم المساحية تملكها دائمًا. ضوء لحظة بعينها، والعلاقة بين معلم ومحيطه المباشر.

— أنت ترسم كجندي يمشي، قال ضابط شاب كان يراقب جوليو وهو يعمل. دون أن تتوقف.

— مصر لا تنتظر. يجب أن نفتنصها وهي تتحرك.

في 16 فبراير، بلغت الحملة أسوان. كان الشلال الأول يجعل الملاحة نحو الجنوب مستحيلة. وكان الحد الطبيعي لمصر منذ العصور القديمة. أقام ديزيه معسكره وترك العلماء يستكشفون.

— امنحوني بضعة أيام لفيلة. نوردن زارها عام 1737. رسوم غير دقيقة. نستطيع أن نفعل ما هو أفضل.

في أسوان، قبل المغادرة إلى فيلة، كان سوق الآثار الأنشط الذي لاحظته جوليو منذ بداية الحملة. فقد انتشر في قرى المنطقة خبر عودة الجيش نحو الشمال. وجاء البائعون من بعيد. كانوا ينصبون بضاعتهم على أطراف المعسكر منذ الفجر، بأكياسهم وصناديقهم الصغيرة. لم يعد ذلك السوق الخفي لوسيط واحد، بل صار تجارة نشطة، تتفاوت أسعارها بحسب المشتري والبائع.

راقب جوليو المعاملات مدة ساعة. رأى ينتقل من يد إلى يد/وشابتي من الخشب الملون، وتمثال صغير من الفخار المزجج تمثل حورس وإيزيس وأنوبيس، وجعارين من كل الأحجام، وتمائم حجرية، وقطعة من كرتوناج مذهب جاءت على الأرجح من تابوت، وتمثالين صغيرين من البرونز عليهما زنجار عتيق، وعدة أوانٍ من المرمر الجيري كان أحدها لا يزال بغطائه.

كانت الأسعار مرتفعة. أشد ارتفاعاً مما كانت عليه في دندرة أو طيبة. كان البائعون يعلمون أنها الفرصة الأخيرة. فيعد رحيل الفرنسيين، سيكون عليهم انتظار المرور التالي. وكانوا يدخلون هذه الندرة في أسعارهم.

كان سوق الآثار القديمة يخضع للقواعد نفسها التي تحكم أي سوق: العرض والطلب، وإدراك الطرفين أنها الفرصة الأخيرة. أراد البائعون أن يبيعوا. وأراد المشترون أن يشتروا. ثلاثة آلاف عام من التاريخ كانت تنتقل من يد إلى الأخرى في رنين القروش المعدودة.

5 - فيلة

في 17 فبراير، استقل دونون وجوليو فلوكة إلى فيلة. كان عبور الشلال محفوفاً بالمخاطر. صخور ناتئة، ودوامات. وكان الملاحون النوبيون يعرفون كل ممر. برزت الجزيرة من المياه الهائجة. أربع مائة متر في مئة وخمسين، تشغلها المعابد البطلمية بالكامل تقريباً.

— يا إلهي، تتمم دونون.

— هذه النقوش البارزة موسوعة مصورة للطقس المصري، قال جوليو وهو يُنهي قياسات قاعة جانبية. إذا فككنا النصوص المرافقة لها، عرفنا معنى كل حركة وكل قربان.

— هذا الكشك أنثوي، قال دونون مشيرًا إلى الجناح الصغير ذي الأعمدة عند طرف الجزيرة. المعابد الكبرى تسحق. أما هذا فيُقنع.

كان كشك تراجان — سُمي كذلك لأن نقوشه البارزة تمثل هذا الإمبراطور الروماني في هيئة فرعون — أخفّ بناء في الجزيرة. أربعة عشر عمودًا ذات تيجان زهرية تحمل إفريزًا من الحجر الرملي الدقيق. وكانت الزخارف الداخلية تمثل أباطرة رومان من القرون الأولى وهم يؤدّون الطقوس الفرعونية التقليدية، كأن الأشكال قد نجت ممن تبوّوها جميعًا. وكانت الكتل متواضعة الحجم، يمكن نقلها بعدد قليل من الرجال. أما النقوش البارزة فاستثنائية.

بقي دونون طويلًا أمام الكشك، يفكر في أمر لم يصغه بوضوح بعد. كان بوسعه أن يأمر بفكّ بعض الكتل المزخرفة. الحرس حاضر، والجنود قادرون على الحمل، وحسن قادر على التفاوض مع الملاحين على نقلها إلى أسوان. سيكون ذلك قانونيًا. فمعه استمارات اللجنة. وسيكون ممكنًا. فالكتل لا يزيد وزن الواحدة منها على بضعة مئات من الكيلوغرامات.

قرر ألا يفعل.

لا عن مبدأ أخلاقي. فهو لم يعد يمنح نفسه هذه الفضيلة بعد ما أخذه منذ دندرة. بل لأنه لم يرد أن تشبه فيلة المواقع الأخرى عند مروره التالي. ولأن شيئًا في هذه الخفة المعمارية، وفي هذه الأناقة على مقياس الإنسان، كان يطلب أن يبقى كاملاً. ولأنه إن أخذت كتله لم يعد ما كان — جناحًا، وحوارًا بين الأروقة والسماء — بل أطلالًا بين الأطلال.

كانت المرة الأولى منذ مغادرته القاهرة التي يتخذ فيها هذا القرار عن وعي، مسميًا الأسباب، وازنًا إياها. كتبه في يومياته مساء ذلك اليوم، لأن القرار بدا له غير معتاد ويستحق التدوين: «فيلة. الكشك. قررت ألا آخذ. لا عن ورع. بل رفضًا لتدمير ما يمستني.»

كانت الصخور المحيطة بفيلة تحمل نقوش حجاج قدماء. أسماء، وتواريخ، وصلوات. نسخ جوليو عددًا منها، مدوّنًا موضعها وحالة حفظها. ونسخ دونون الباقي. حتى أقلها وضوحًا. وحتى تلك التي محا الفيضان نصفها.

— هذه الخربشات تؤثر في أكثر من المعابد، أسر جوليو إلى دونون. إنهم حجاج عاديون. جاؤوا يصلون لإيزيس ونقشوا أسماءهم. لا للأجيال القادمة. بل فقط ليتركوا أثرًا.

— دفاترنا هي خربشاتنا. لقد مررنا من هنا. ورأينا هذا. الفرق أننا ندعي أننا نمارس العلم.

— وألسنا نمارسه؟

فكر لحظة.

— بلى. ونترك أيضًا آثارًا من نوع آخر. في الكوآت الفارغة، وفي الصناديق على ظهور البغال. هذه الآثار لا نسجلها في وصف مصر.

في 25 فبراير، غادر دونون أسوان برفقة ستين فارسًا من الحرس. قرابة تسعمائة كيلومتر في طريق العودة إلى القاهرة، نزولًا مع النيل نحو الشمال. وكان حسن يسافر معه مترجمًا. وانطلق جوليو وديفيليه في اليوم نفسه مع مفرزة أخرى.

استغرقت رحلة العودة سبعة عشر يومًا. كان الرتل ينحدر مع النهر بمعدل خمسين كيلومترًا في اليوم، متوقفًا في القرى لأخذ الماء والمؤن. وكان الطقس حارًا، قرابة ثلاثين درجة في الظل. وكانت المسيرة تجري من الفجر حتى الظهر، ثم تُستأنف بعد أربع ساعات من التوقف في ظل الخيام.

قرب قرية لم يكن أحد يعرف اسمها، انهار جندي أثناء المسير. ضربة شمس. حملوه إلى ظل نخلة. سقاه كبير الجراحين وبلل رأسه بماء النيل. أفاق الرجل بعد ساعة لكنه لم يقدر على المشي. حملوه على بغل. ومات في الليل. دفنوه عند الفجر في الرمل على بعد مئة متر من المعسكر. لا صليب ولا لوح. دون الرقيب الاسم والتاريخ في سجل السرية.

بين كوم أمبو وإدفو، تعارك جنديان على تمثال صغير من الفخار المزجج اشترى من السوق. زعم الأول أنه رآه قبل الآخر، وكان الثاني قد دفع ثمنه. تشابكا بالأيدي أمام خيمة الرقيب الأول. فخرج هذا، وفرق بينهما، وصادر التمثال، ووضع في كيسه. احتجّ الرجلان. قال الرقيب إن الشيء صار ملكًا للسرية، وإن أول من يعاود الحديث عنه ينال عشرة أيام من الخدمة الشاقة. وانتهى الأمر عند هذا الحد.

بعد أيام قليلة، عبر الرتل قرية مهجورة. ثلاثون بيتًا من الطوب اللبن، كلها خالية. لا آثار قتال. كان السكان قد غادروا المكان قبل وصول الجيش. أمر ملازم بتفتيش البيوت. عُثر على جرار مدفونة في ثلاثة أفنية مختلفة. حبوب وتمر وزيت. وأضيفت الجرار إلى المصادرات. وفي بيت رابع، عُثر على مخبأ تحت الأرض: ستة جعارين من الفخار المزجج، وثلاثة أساور نحاسية، ومراة برونزية. أعطى

الملازم الجعارين للنقيب، واحتفظ بالأساور، وترك المرأة للجنود الذين عثروا على المخبأ.

في وقت متأخر من العصر، وبينما كان الرتل يقترب من مضيق الكاب، وصل فارس يعدو من الطليعة. كان يبحث عن ديزيه. قادوه إلى رأس الرتل. تكلم بسرعة. فأشار ديزيه إلى الضباط أن يقتربوا.

— حاجز على الطريق. فلاحون مسلحون. نحو عشرين رجلاً. يسدون الممر عند المضيق.

— هل يطلبون شيئاً؟

— لا يتكلمون الفرنسية. لم يستطع المترجم الاقتراب. أطلقوا النار في الهواء.

فكر ديزيه بضع ثوانٍ.

— هل نلتفت من الشرق؟

— مستحيل. الأرض غير سالكة. سنحتاج إلى ثلاثة أيام من الالتفاف.

— حسناً. نشق الطريق بالقوة. الفرسان في المقدمة، والمشاة خلفهم. أما أنت يا دونون فابق في وسط الرتل مع البغال.

استأنف الرتل مسيره. وبعد ساعة، بلغوا المضيق. كان الفلاحون هناك، مسلحين بالعصي والرماح وبعض البنادق القديمة. كانوا واقفين عبر الطريق، لا يتحركون. تقدّم ديزيه بالفرسان بخطى متمهّلة. لم يتحرك الفلاحون. وعلى بعد خمسين متراً، رفع ديزيه يده. فتوقف الفرسان. وأشار إلى حسن أن يقترب.

— قل لهم إننا نريد المرور فقط. لن نمسّ شيئاً. ولن نصادر شيئاً في قريتهم.

تقدّم حسن ماشياً، وحده، ويداه مفتوحتان أمامه. تكلم بالعربية. فأجابه أحد الفلاحين. عاد حسن.

— يقولون إن الجيش أخذ كل حيوبهم قبل أسبوعين. لم يبقَ لديهم شيء. ويريدون أن نردّ لهم الحبوب أو أن ندفع.

— لم نأخذ شيئاً قبل أسبوعين. لم تكن نحن.

— يقولون إنهم كانوا جنوداً فرنسيين. إنهم لا يفرّقون بين المفاز.

بقي ديزيه صامئاً لحظة. ثم أخرج كيساً من سرجه ورماه إلى حسن.

— خمسة وثلاثون قرشاً. قل لهم إن هذا كل ما أملك. وإن أرادوا أكثر، فعليهم أن يدعونا نمرّ على أي حال.

مضى حسن بالكيس. وكلم الرجل نفسه. أخذ الرجل الكيس، ووزنه بيده، وتشاور مع اثنين آخرين. ثم تتحوا عن الطريق دون كلمة. مرّ الرتل. وراقب الفلاحون الجنود يَمْرُونَ في صمت. وحين مرّت آخر عربة، عاد الفلاحون إلى قريتهم.

في طيبة، توقف الرتل يومين. أراد ديزيه أن يترك الرجال يستريحون قبل المرحلة الأخيرة نحو القاهرة. نُصب المعسكر على بعد كيلومتر من الكرنك. وكان الجنود ينامون في ظل المعبد. بعضهم يصعد إلى الأسطح ليرى النيل. وآخرون يبقون تحت الخيام، أشدّ إرهافاً من أن يتحركوا.

في مساء الوصول، وقعت حادثة في المعسكر. سرق جندي من السرية الثانية حصة الخبز لجندي آخر أثناء التوزيع. انتبه المسروق، فلحق باللص، وحطّم له سنّين بلكمة. فردّ اللص وسحب سكينه. فصل بينهما أربعة جنود. جاء الرقيب، وأمر بتقييد الرجلين بالأغلال طوال الليل. وفي صباح اليوم التالي، حاكمهما النقيب. نال اللص عشرين ضربة بالعصا. وأطلق المسروق دون عقوبة.

في المساء التالي، استدعى ديزيه الضباط إلى خيمته. كان قد تلقى بريداً من القاهرة. لم تكن الأخبار طيبة. كان الجيش التركي يحتشد في سوريا. وكان بونابرت قد غادر القاهرة لتوّه إلى سوريا مع معظم الجيش. وعلى ديزيه أن يعيد فرقته إلى القاهرة بأسرع ما يمكن.

— لا توقفات بعد طيبة، قال ديزيه. نسير حتى القاهرة. عشرة أيام على الأكثر.

— وماذا عن دندرة؟ سأل ملازم. أراد العلماء العودة إليها.

— لا وقت. نمرّ أمامها دون توقف.

تدخّل دونون، وكان حاضراً.

— أحتاج إلى توقف في أبيدوس. ست ساعات. من أجل معبد أبيدوس.

— مستحيل.

— ست ساعات. هذا كل ما أطلبه.

نظر إليه ديزيه.

— ست ساعات في أبيدوس. ولا ساعة زائدة. وإن لم تعد عند الظهر، رحلنا دونك.

حين بلغ الرتل أبيدوس، ترجّل دونون ودخل المعبد مع حسن وجنديين من الحرس. توجه مباشرة إلى القاعة الداخلية، المظمورة نصفها بالرمال، في نهاية الممر الرئيسي. كانت صفوف من الخراطيش المنقوشة تغطي الجدار الغربي. عشرات من أسماء الملوك مصطفة في سجلات.

بقي واقفاً أمام الجدار ساعتين، يتأمل النقوش التي لا يستطيع قراءتها. وكان حسن قد جلس على الأرض قرب المدخل. وكان الجنديان ينتظران في الخارج.

دخل رجل القاعة. فلاح في الأربعين من عمره تقريباً، بعمامة بيضاء ونعلين من الجلد. كان يحمل صرة ملفوفة في قماش خشن. اقترب من دونون، وفتح القماش أمامه. قطعة من الحجر الجيري طول ضلعها أربعون سنتيمتراً تحمل ثلاثة خراطيش كاملة.

أشار الرجل إلى القطعة. خمسة أصابع مرفوعة.

— خمسة قروش.

نظر إلى الجدار خلفه. حفرة جديدة في الصف السابع عشر، حيث كانت هذه الخراطيش الثلاثة. كانت حواف الحجر الجيري بيضاء، مقطوعة حديثاً. كان الرجل قد اقتطع القطعة في الليل أو في الصباح الباكر.

أخرج دونون خمسة قروش من كيسه ودفعها إلى الرجل. ووضع القطعة في حقيبته الجلدية. أخذ الرجل المال ومضى دون أن ينيس بكلمة.

بقي ساعتين آخرين في القاعة، واقفاً أمام الجدار. وفي الحادية عشرة والنصف دخل أحد الجنود راكضاً.

— سيدي، الجنرال يأمر بإسراج الخيل.

خرج من المعبد. كان الرتل قد اصطف للمسير. امتطى جواده ولحق بالمقدمة عدواً. نظر إليه ديزيه وهو يمر دون أن يعلق بشيء. وانطلق الرتل.

كان الطريق إلى القاهرة يستغرق ثمانية أيام أخرى. وفي الطريق صادف الرتل ثلاث مفارز صاعدة نحو الجنوب. كانت الأخبار تتداول: بونايرت رحل إلى سوريا، والجيش التركي يتقدم، والإنجليز يحاصرون جميع الموانئ. ولم يكن أحد يعرف على وجه الدقة ما يجري.

حين بلغ الرتل القاهرة في منتصف مارس، أسكن الجنود في ثكنات القلعة. وتوجه دونون مباشرة إلى الملحق الشمالي من قصر حسن كاشف، حيث كانت أمتعة اللجنة.

كان المخزن مغلقاً. انتظر ساعة حتى جاء قِيم بالمفتاح. دخل دونون. كانت صناديقه الاثنا عشر هناك، مصفوفة بمحاذاة الجدار الجنوبي، وعليها بطاقات بخط يده. فتح أولها، وتحقق من محتواه سريعاً، ثم أغلقه. كان كل شيء سليماً. خرج من المخزن وقصد القصر.

استقبله الجنرال دوغاء، الذي كان يتولى قيادة القاهرة في غياب بونايرت، على الفور. كان واقفاً قرب طاولة تغطيها خرائط سوريا. أشار إلى دونون بالجلوس.

— هل أنهيت حملتك في صعيد مصر؟

— نعم. من دندرة إلى أسوان. جميع الآثار الرئيسية.

— هل الرسوم صالحة للاستخدام في وصف مصر؟

- نعم. ثلاث وخمسون ورقة. معابد ومقابر وتمائيل ضخمة ونقوش بارزة.
- حسناً. أصغ إليّ جيداً. لقد رحل القائد العام لصدّ الجيش التركي قبل أن يصل إلى هنا. أوامره لم تتغير: تبقى في القاهرة. تنسق أعمال المعهد مع مونج وبرتوليه. استكشافات الدلتا مستمرة. وحفريات سقارة مستمرة. وصف مصر مستمر كذلك. أتفهمني؟
- أفهمك.
- إذا نزل الإنجليز في غيابه، فأخلّ المجموعات نحو الجنوب. ديزيه سيعرف أين يخبئها. يمكنك أن تخسر كل شيء إلا هذه. هل هذا واضح؟
- واضح.
- حسناً. والآن اخرج. لديّ عمل.
- عاد دوغا إلى خرائطه. وخرج دونون من المكتب.
- كان بونابرت قد غادر القاهرة قبل شهر مع ثلاثة عشر ألف رجل متجهاً إلى سوريا. وبقي دونون في القاهرة مع مونج وبرتوليه وفورييه ونحو ثلاثين عالماً لم يتبعوا الجيش.
- في غياب بونابرت نظّم دونون عمل المعهد. أشرف مونج على استكشافات منطقة منف. وأدار برتوليه حفريات سقارة. وواصل جوفروا سانت هيلير دراساته الحيوانية في الدلتا. وتولى فورييه المراسلات مع فروع الأقاليم.
- في مايو دعا دونون إلى اجتماع. حضر جميع الأعضاء الموجودين في القاهرة. ثلاثون عالماً ومهندساً تراحموا في القاعة الكبرى. افتتح الجلسة في العاشرة.
- أيها السادة، بونابرت في سوريا منذ شهر. ليست لدينا أخبار دقيقة. والإنجليز ما زالوا يسيطرون على البحر المتوسط. أقترح أن نعدّ خطة للنقل تحسباً لسنوح فرصة.
- رفع مونج يده.
- ينبغي انتظار عودة بونابرت. هو من سيقدر.
- وإن لم يعد؟ علّق فورييه.
- لم يجب أحد. ثم تكلم برتوليه أخيراً.
- دونون محق. لنعدّ خطة. وهكذا، يوم تتوفر لنا سفينة، نكون مستعدين.
- أقرّ الاقتراح. ورُفعت الجلسة عند الظهر.
- عاد بونابرت في يونيو. كان قد رحل بثلاثة عشر ألف رجل. وعاد بأقل من عشرة آلاف. القتلى والمرضى والمصابون بالطاعون. لقد أخفق الهجوم.

بعد أيام قليلة من عودته استدعى بونايرت دونون إلى القصر. كان قد هزل. وكانت
بزته العسكرية تتدلى على كتفيه. أدخل دونون إلى مكتبه دون كلمة تحية.

— هل واصل المعهد عمله؟

— نعم. سار كل شيء على ما يرام.

— حسناً. نواصل. الإنجليز ما زالوا يحاصرون الساحل. لا نقل قبل أن يتغير
الوضع.

— مفهوم.

أشار بونايرت بيده. انتهت المقابلة. وخرج دونون.

كانت الأسابيع التالية هادئة. استمرت الاستكشافات. واستمرت الحفريات كذلك.
وصف مصر يتقدم ببطء. والقاهرة تنتظر دون أن تعرف ما سيحدث.

6 - حجر رشيد

في 15 يوليو 1799، كان ملازم في سلاح الهندسة يدعى بوشار يشرف على أعمال
حفر قرب رشيد. اصطدم معوله بشيء ما.

كان بوشار في الثامنة والعشرين، خريج مدرسة البوليتكنيك. أدرك على الفور ما
عثر عليه. لوح من الغرانوديوريت الأسود، ارتفاعه مئة وأثنا عشر سنتيمتراً،
تحمل ثلاث كتابات متوازية. أمر بنقل الحجر إلى منزله وأرسل في الحال رسالة
عاجلة إلى المجمع العلمي المصري في القاهرة.

كان منزله بعيداً عن المواقع العسكرية. وكان الحجر فيه في أمان.

أرسل جان جوزيف مارسيل وريمي ريج إلى رشيد. كان مارسيل مستشرقاً
متخصصاً في اللغات السامية. وكان ريج متخصصاً في الدراسات اليونانية، يقرأ
اليونانية القديمة بطلاقة. فحصا الحجر من جميع زواياه في 24 يوليو.

كان النص اليوناني، الواقع في الجزء السفلي من اللوح، محفوظاً حفظاً جيداً نسبياً.
قرأه ريج بصوت عالٍ بينما كان مارسيل يدون الملاحظات.

— هذا المرسوم يكرم بطليموس الخامس الفتى. إعفاءات ضريبية للمعابد، وهبات
للكهنة. من النوع الذي يُنقش بثلاث لغات ليتأكد المرء أن الجميع يعلمون به.

بلل مارسيل ورقة رقيقة جداً وضغطها برفق على السطح المكتوب بكتلة قبطية
مشبعة بحبر مخفف. والنتيجة: طبعة دقيقة، بيضاء على أرضية سوداء، لكل علامة.
وكانت العملية تستغرق عدة ساعات للسطح كله.

وصل تقرير مارسيل وريج إلى المعهد في 29 يوليو. وأثار التأكد من أن النص نفسه مكتوب بثلاث لغات، إحداها مقروءة، حماسة لم يرها دونون منذ الوصول إلى الإسكندرية قبل عام. فإذا أتاح الحجر فك رموز الهيروغليفية، عادت ثلاثة آلاف سنة من التاريخ مقروءة. الأسر الحاكمة والمعارك والآلهة والأسماء. كل ما نسخه الرحالة دون أن يفهموه منذ قرنين.

— ربما نكون على أعتاب ثورة علمية، قال دونون للمعهد الذي دُعي إلى اجتماع طارئ.

اقترح مونج إرسال بعثة إلى رشيد.

— قوالب من الجبس، وطبعات على الورق. قيل أن يلحق به أحد ضرراً أو ينقله. كان جومار حاضراً حين أنجز مارسيل وريج الطبقات الأولى.

كان حجر رشيد يبلغ ارتفاعه مئة واثنى عشر سنتيمتراً، وعرضه ستة وسبعين سنتيمتراً، وسمكه ثمانية وعشرين سنتيمتراً. ووزنه المقدّر انطلاقاً من الحجم والكثافة المعروفة للغرانوديوريت نحو سبعة وستين كيلوغراماً. أخذ هذه القياسات بنفسه، لا لأنها ستفيد على الفور، بل لأن القياس كان طريقتها في الاتصال بالشيء.

كان اللوح ناقصاً. فقد ضاع أعلاه في عصر غير معلوم. ولذلك كانت هيروغليفيات القمة جزئية. وقد فقد نحو ثلث النص المصري. وسيُقدّر هذا النقص عمل من سيفك الرموز في المستقبل. لكن القسم اليوناني كان سليماً تقريباً. وكان ذلك كافياً للعمل. — اليوناني، في الأسفل، نستطيع قراءته فوراً، قال مارسيل. إنه مرسوم من مجلس كهنة منف في السنة التاسعة من حكم بطليموس الخامس إبيفانس. سنة مئة وست وتسعين قبل الميلاد.

— والهيروغليفية؟ سأل جومار.

— على الأرجح النص نفسه. هذا ما نأمله.

— إن كان الأمر كذلك، قال جومار، فيمكننا أن نبدأ بإقامة التطابقات. لكل كلمة يونانية ما يعادلها بالهيروغليفية. بمقارنة أطوال مجموعات العلامات، وتحديد التكرارات...

— هذا بالضبط ما سنفعله. لكن هذا العمل سيستغرق سنوات.

أخذ جومار قلماً وشرع في دفتره يدوّن تواتر بعض مجموعات العلامات في الشريط الهيروغلوفي. كل علامة، تُرصد وتُعدّ وتُدرج في جدول. لم يكن التوزيع عشوائياً.

— انظر. هذه المجموعة من العلامات، المحاطة بخرطوش، تظهر ست مرات في الجزء المحفوظ من الهيروغليفية. واسم بطليموس يظهر إحدى عشرة مرة في النص اليوناني، وجزء من النص المصري مفقود.

توقف مارسيل عن العمل ونظر.

— هذا ممكن. بل هو شديد الاحتمال. لكن التطابق علامة بعلامة ليس بالضرورة مباشراً. فالكتابة الهيروغليفية ليست أبجدية على الأرجح.

— نعم. لكنها نقطة انطلاق.

لم يكن يستطيع أن يعرف بعد إلى أين يقود هذا الطريق.

ساعد جومار مارسيل على شدّ آخر ورقة طبعة على القسم الديموطيقي. كان الليل متقدماً. وكان المصباح يدخن. وفي الخارج كان ميناء رشيد نائماً.

عاد جومار لرؤية الحجر ثلاث مرات في الأسبوع التالي، في رشيد.

في المرة الأولى أحضر شريطه الجلدي وقاس كل ما يمكن قياسه. وفي الثانية أحضر دفتر التواترات وعدّ مجموعات العلامات في الشريط الهيروغليفي، وأنشأ جدول توزيع. وفي الثالثة لم يحضر شيئاً. جلس قبالة الحجر على مقعد صغير. كان الغرانديوريت بارداً معتماً. بلا لمعان ولا لون. لوح رمادي، قبيح بالمعنى المألوف للكلمة. وضع يديه مسطحتين على ركبتيه وأجبر نفسه على ألا يحسب. أن ينظر فقط. وكان السطح يحمل آثار الإزميل ظاهرة في بعض الحروف. لقد نقش أحدهم هذا حرفاً حرفاً، طوال ساعات. وذلك العمل كان حاضراً هناك. باقياً. كما ينظر المرء إلى خريطة لا يفهم لغتها بعد، لكنه يرى أن الطرق مرسومة فيها.

كان ما يراه، وهو جالس هناك، أن هذا الحجر يختلف اختلافاً جوهرياً عن سائر الأشياء التي جمعوها أو حاولوا جمعها منذ أكثر من عام، من قبيل *الأوشابتي* والجعارين وأوراق البردي وشظايا النقوش البارزة. هذه الأشياء كانت قيمتها نابعة من مادتها وأصلها. كانوا يأخذونها لأنها جميلة ونادرة وقديمة.

لم يكن لحجر رشيد قيمة جمالية. كانت قيمته كلها فيما يدل عليه: تطابق بين ثلاثة أنظمة كتابية، أحدها مقروء والآخران لا يزالان غير مقروءين. لم يكن غرضاً. كان منهجاً. وبصفته منهجاً، كان قابلاً للاستنساخ. وكانت طبعة حجر رشيد تعادل حجر رشيد نفسه علمياً بالنسبة إلى كل من يعمل على فك الرموز.

كان النقيض التام لسائر أشياء الحملة. فتمثال *الأوشابتي* إذا أخرج من قبره فقد صلته بسياقه. أما حجر رشيد، وقد استُخرج من خندق تحصين، فلم يفقد شيئاً. كان خارج سياقه منذ ألفي عام. وما يحمله مستقل عن المكان الذي يوجد فيه.

— ما زلت هنا، قال مارسيل وهو يدخل. هذه المرة الثالثة هذا الأسبوع.

— أفكر. هذا الحجر استثناء من كل ما لاحظته منذ عام. الأشياء التي نحملها تفقد شيئاً. وهذا لا يمكن أن يفقد شيئاً. لأنه ليس لديه ما يفقده.
جلس مارسيل إلى جانبه.

— إلا أن يستولي عليه الإنجليز.

— نعم. إلا ذلك. لكن إن أخذوه فستبقى الطبعات. وتبقى المعلومة. إنه الشيء الوحيد في الحملة كلها الذي لا يمكن أن يُسرق حقاً.
كان مارسيل قد اتخذ قراراً دون أن يخبر أحداً.

فضلاً عن الطبعات الرسمية المنجزة في رشيد، صنع ثلاثين طبعة إضافية، لا للمعهد ولا لوصف مصر بل لتوزيعها. أرسل خمساً منها إلى مراسلين أوروبيين: واحدة إلى لندن، واثنين إلى باريس، وواحدة إلى برلين، وواحدة إلى كوبنهاغن. خمسة علماء يعملون على اللغات القديمة وقد يتعرفون، ربما، على شيء ما.

واحتفظ بخمس وعشرين منها احتياطاً. فإن استولى الإنجليز على الحجر، وإن اقتضى الأمر أن يجري فك الرموز في لندن، فإن هذه الطبعات ستتيح للفرنسيين العمل بالتوازي. وسيكون السباق متكافئاً.

— لقد وزعت المفتاح قبل أن تفتح القفل، قال دونون حين علم بذلك.

— وزعت نسخاً من المفتاح. أما القفل فيبقى هنا. وإن أخذ الإنجليز القفل، فستبقى لنا نسخنا.

أثار إعلان الاكتشاف اجتماعاً استثنائياً للمعهد في 2 أغسطس. جاء جميع الأعضاء الموجودين في القاهرة. وترأس مونج الجلسة. وعرض دونون طبعات مارسيل والنقيرير التقني الذي أعده ريج عن النص اليوناني.

كانت القاعة ممتلئة. نحو ثلاثين من العلماء والمهندسين وعلماء الطبيعة. وبعضهم لم يحضر جلسة منذ أشهر. فقد أخرجهم حجر رشيد من مختبراتهم ومواقع عملهم وبعثاتهم في الدلتا.

تكلم برتوليه بعد العرض.

— إذا أتاح هذا الحجر فك الرموز، فسيصير في متناولنا أرشيف ثلاثة آلاف عام. قوائم الملوك وأخبار المعارك والمصنفات الدينية. وكل ما هو منقوش على جميع الآثار التي رسمناها منذ أكثر من عام سيصبح مقروءاً.

رفع جوفروا سانت هيلير، الذي لم يكن يتدخل قط في النقاشات الفيلولوجية، يده.

— كم من الوقت سيلزم لفك الرموز؟

أجاب مارسيل من آخر القاعة.

— سنوات. ربما عشر. ربما عشرون. الكتابة الهيروغليفية ليست أبجدية. وليست مجرد استبدال حرف بحرف.

— لكنه ممكن، قال جومار. لدينا التطابق. والباقي عمل.

طلب مهندس من سلاح الهندسة يدعى شابرول الكلام.

— سؤال عملي. إذا نزل البريطانيون، فسيكون هذا الحجر هدفهم الأول. إنهم يعرفون قيمته. هل لدينا خطة؟

خيم الصمت على القاعة. لم يكن أحد قد صاغ السؤال بهذه المباشرة من قبل. نظر مونج إلى دونون.

— الطبقات تسافر، قال دونون. مارسيل أرسل منها خمساً إلى أوروبا. ولدينا خمس وعشرون في الاحتياط هنا. وإن استولى البريطانيون على الحجر، فسيجري فك الرموز في باريس على النسخ.

— وإن فقدنا الطبقات أيضاً؟

— حينئذ نكون قد خسرنا.

لم يكن جواباً مرضياً. لكنه كان الجواب الوحيد الممكن. فهم لا يتحكمون في الوضع العسكري. إنهم لا يتحكمون إلا في قراراتهم العلمية.

صاغ مونج قراراً رسمياً: يُنقل حجر رشيد إلى القاهرة في أقرب وقت ممكن، ويُحفظ في المعهد تحت رقابة دائمة، ويُستنسخ بالطبع كلما اقتضت الحاجة، ويدرسه مارسيل وريج على سبيل الأولوية. وأقرّ القرار بالإجماع.

بقي دونون بعد الجلسة. كان يساعد في ترتيب الكراسي حين دخل فوربيه حاملاً رزمة أوراق.

— هل رأيت آخر رسالة من بونابرت؟

— لا.

— الأمور لا تسير على ما يرام. عاد بونابرت من سوريا بجيش منهك. وكليبر، في الإسكندرية، يطالب بالمدد منذ أسابيع. والجواب يتأخر.

وضع الكرسي الذي كان يمسه.

— ونحن نكتشف مفتاح الهيروغليفية بينما يعود الجيش من حملة سورية كارثية.

— هذا بالضبط ما يحدث. نحن نمارس العلم بينما تنهار الحملة.

لم يُقل ذلك بمرارة. كانت ملاحظة واقعية. فالحملة العسكرية كانت تُخفق. والحملة العلمية كانت قد حققت لتوها أكثر إنجازاتها إبهاراً. وكان الأمران يجريان في آن واحد، في البلد نفسه، تحت القيادة نفسها.

عاد دونون إلى الطبوعات. نشرها على الطاولة الكبرى للمعهد. أشرطة الكتابة الثلاثة: الهيروغليفية في الأعلى، والديموطيقية في الوسط، واليونانية في الأسفل. تتبّع بإصبعه سطر العلامات الهيروغليفية. طيور وثعابين وعيون وأيدٍ. أشكال نسخها مئة مرة في دندرة وطيبة وفيلة. كانت هذه العلامات صامتة على الدوام. وكانت على وشك أن تنطق.

فكر في بونايرت. العائد من سوريا منذ يونيو، المنتصر في أبو قير في 25 يوليو، المعدّ سراً لرحيله إلى فرنسا، وهو يجهل أن مهندسيه عثروا للتو على ما لم يعثر عليه أحد منذ ألفي عام.

في 5 أغسطس، قضى جومار اليوم بطوله مع الطبوعات. كان قد أحضر دفاتر مسوحاته من دندرة والكرنك. وفي كل صفحة نسخ لخراطيش رسمها في الأشهر السابقة. أشكال بيضوية تحتوي مجموعات من العلامات الهيروغليفية. كان يفترض دائماً أن هذه الخراطيش تحتوي أسماء. وكان ذلك فرضاً شائعاً بين الرحالة منذ القرن الثامن عشر.

أما الآن، ومعه حجر رشيد، فقد صار بوسعه أن يختبره.

ذكر النص اليوناني اسم بطليموس إحدى عشرة مرة. وأحصى جومار الخراطيش في الشريط الهيروغلوفي فلم يجد منها سوى ستة، غير أن الشريط كان مبتوراً. ودوّن المطابقة في دفتره: «الفرضية: الخرطوش يساوي اسماً علماً. فإن تأكدت، فإن كل الخراطيش على آثار مصر تحتوي أسماء فراعنة أو آلهة».

كان تقدماً صغيراً، لكنه كان تقدماً. فقبل عام كانت الخراطيش أشكالاً غامضة، أما الآن فقد صار لها وظيفة معروفة.

واستمرت الاستكشافات.

كان حجر رشيد اكتشافاً، لكنه لم يوقف ما سواه.

في العاشر من أغسطس، مرّ ضابط بالمعهد ليعلن الحصييلة الرسمية لمعركة أبو قير في الخامس والعشرين من يوليو. فقد سحق بونايرت الإنزال العثماني على شاطئ أبو قير. عشرة آلاف إنكشاري بين قتيل وغريق، وأسر الباقون. نصر واضح بعد إخفاق حملة سوريا. وكان جيش الشرق ممسكاً بمصر. غير أن الجميع كانوا يعلمون أن حملة سوريا كانت كارثة، وأن أبو قير، مهما بلغ بريقها، لا تغيّر شيئاً من عزلة الجيش الجوهريّة.

وعلم دونون بالخبر من كليبر، الذي مرّ بالقاهرة قبل أن يلتحق بقيادته في الإسكندرية.

— هل يعود بونايرت؟

— نعم. بعد أسابيع قليلة. وربما أقل. لم يرسل رسالة واضحة. لكن الجيش يتراجع. هذا مؤكد.

— وبعد ذلك؟

— بعد ذلك سنرى. فإما أن يوطّد أركان مصر، وإما أن يعود إلى فرنسا. لم يذكر كليبر الخيار الثالث، لكنه كان بيّنًا: أن يظل يخسر رجاله في حملات عبثية حتى لا يبقى شيء من جيش الشرق.

نظر كليبر إلى الكيسات المنشورة على طاولة المعهد.

— أهذا هو حجركم؟

— هذا هو.

— وماذا يقول؟

— مرسوم بشأن ضرائب المعابد. لا شيء عسكري.

ابتسم كليبر.

— وجدتم مفتاح مصر القديمة بنص عن الضرائب. هذا يعجبني.

وعاد إلى الإسكندرية مساء اليوم نفسه. ولن يراه دونون بعد ذلك أبدًا.

في الثاني عشر من أغسطس، وصلت رسالة من رشيد: الحجر جاهز للنقل. وكان بوشار قد أشرف على صنع صندوق مدعّم. وتُظمت القافلة العسكرية. والمغادرة مقررة في الرابع عشر.

وكتب دونون إلى بوشار مذكرة: «النقل عن طريق النهر إن أمكن. تجنّبوا هزات الطريق. وإن لزم النقل البري فليكن التعليق بأقصى ما يمكن. يجب ألا يتشقق الحجر».

وأجاب بوشار في اليوم التالي: «الطريق النهري مستحيل. فقد صودرت كل القوارب لنقل جرحى أبو قير. نقل بري مع قش مضاعف تحت الصندوق. ثلاثة أيام من الطريق. الوصول المتوقع 17 أغسطس».

وفي مساء السابع عشر من أغسطس، دخلت القافلة فناء المعهد. خمسة عشر جنديًا للحراسة، وثلاث عربات. وكان الحجر في العربة الثانية، ملفوفًا بالقماش، مشدودًا بالأحزمة على فراش من القش.

أنزله دونون ومارسيل وجومار وستة جنود. سبعة وستون كيلو غرامًا. احتاج الأمر إلى روافع وحبال ومنحدر ارتجالي. واستغرقت العملية ساعة. وفي النهاية استقر الحجر على قاعدة خشبية في القاعة الرئيسية للمعهد، عند الجدار الشرقي.

نزع مارسيل القماش. فظهر الغرانوديوريت الأسود بأشرطة الكتابة الثلاثة المحفورة عليه.

— ولا شق واحد، قال جومار وهو يفحص السطح.

ثم نُصب تحت مصباح زيتي لا ينطفئ. وحارسان يقفان ليل نهار. ولا أمر مكتوب. فقد فهم الجميع أن هذا الحجر يجب ألا يضيع.

وفي صباح اليوم التالي عاد دونون لرؤية الحجر. كان وحده. والمعهد لا يزال نائماً. وكان المصباح يلقي ضوءاً أصفر على الغرانوديوريت. وكانت الرموز الهيرغليفية ترسم ظلالاً صغيرة في تجايفها.

وضع يده على السطح البارد. كانت حركة لا جدوى منها، لكنه فعلها رغم ذلك. فلمس الحجر كان لمساً للحظة التي تعود فيها مصر القديمة إلى المتناول.

سيقرأ أحدهم يوماً هذا النص كما تُقرأ اليونانية. وستخرج الأسر الحاكمة من الصمت. وسيستعيد الفراعنة صوته.

سحب يده.

7 - مفاوضات ونصر ومقتل كليبر

في مساء الثامن عشر من أغسطس، رأى دونون مصادفةً بونايرت يعبر فناء المعهد وحده. بلا ياور، بلا حرس. كان يحمل شيئاً في يده. كتاباً، لا خرائط. وكان يمشي بسرعة، كمن لا يريد أن يراه أحد.

راقبه دونون من مدخل باب. كان في تلك الهيئة المتعجلة شيء لم يره فيه من قبل: عجلة تشبه الفرار. لا الفرار من خطر، بل الفرار من وضع صار أضيق مما ينبغي. كانت مصر له علبة جواهر، فصارت العلبة قفصاً.

دار عند زاوية الفناء واختفى.

فكر في الكتاب الذي كان يحمله. شيء عن روما غالباً، أو عن الإسكندر. فمن يرحل يحمل معه دائماً القراءات نفسها.

وبعد ساعة، جاء ياور يطلب دونون. فقد فحص بونايرت رسومه بعد الظهر وأراد اصطحابه. لفت دونون رسومه في أربعة أنابيب نحاسية، وسلّم جومار مفاتيح صناديقه، وجلس في العربة المغلقة مع مونج وبرتوليه. في تلك الليلة رأهم بعضهم يرحلون. وسمع آخرون الخيول تبتعد نحو الشمال.

وفي صباح اليوم التالي تأكد الخبر. لقد رحل بونايرت إلى فرنسا. وكان قد بعث إلى كليبر برسالة تنتقل إليه قيادة جيش مصر. ورحل معه مونج وبرتوليه ودونون.

وسيجرون من الإسكندرية في ليلة 22 إلى 23 أغسطس على إحدى الفرقاطتين، وسينزل دونون في فريجوس يوم 9 أكتوبر ومعه رسومه. ولم يُخبر أحد تقريبًا.

لم يكن أول ما خطر لجومار في ذلك الصباح بونايرت ولا فرنسا، بل الصناديق. ستة وتسعون صندوقًا مخزنة في ملحقات قصر حسن كاشف. ثلاثة وسبعون رسمية وثلاثة وعشرون بلا بطاقة في الزاوية الشمالية الغربية، لا تزال هناك، لا تزال بلا اسم. ومن غير بونايرت ليأمر بنقل عسكري، صارت هذه الصناديق تحت رحمة أي مفاوضات عسكرية قادمة.

طاف بالملحقات قبل شروق الشمس. كانت الصناديق هناك، مكدسة، مسمّرة، موسومة وفق نظامه. حرف ورقم ومحتوى موجز.

كانت هذه القطع تأتي من كل مكان: سقارة والكرنك ودندرة ووادي الملوك وسوق منف وحفريات تانيس. بعضها أخذ وفق إجراءات مقررة. وبعضها اشترى من الأسواق التي كانت تتبع الجيش. وبعضها وصل بطرق أقل توثيقًا. وكانت في مجموعها تمثل ثلاثة عشر شهرًا من النهب المنظم، والنهب العرضي، والنهب المتغاضى عنه، والجمع العلمي، وهي فئات لم يفصل بينها أحد قط فصلًا رسميًا.

وبعد رحيل بونايرت لم تعد الفروق قائمة حتى سياسيًا. فقد تبخّر معه المسوّغ لمشروع دولة كان يجعل الأخذ مشروعًا. وما بقي لم يكن سوى قطع وجنود وعلماء. وإنجليز سيقربون عاجلاً أو آجلاً.

طوى الجرد وجلس على صندوق. من حوله في شبه الظلام ستة وتسعون صندوقًا. كل هذا يريد العودة إلى فرنسا. وفي الوقت الراهن لم يكن بوسع شيء أن يذهب إلى أي مكان.

صار كليبر يقود جيش مصر الآن. ولم يرَ بونايرت ضرورة لمحادثته قبل رحيله. تقبّل مارسيل الأمر بهدوء. كانت لديه كبساته، ووجود بونايرت أو غيابه لا يغير شيئًا. وسأل جوليو فوربيه إن كانت أعمال اللجنة ستتواصل. فأجاب فوربيه بنعم. فعاد جوليو إلى دفتاره. ورفع جوفروا سانت هيلير عينيه عن تشريحه حين أُبلغ بالخبر، وأوماً برأسه، ثم عاد إلى عمله. لم تكن لامبالاة. كان تركيز من يعلو عنده الشيء الذي على الطاولة على كل ما سواه.

— لقد استخدمنا بونايرت، قال جوليو. رسومنا أضفت الشرعية على غزوه. والآن وقد نال ما أراد، رحل. أما نحن فنبقى.

وجد فوربيه جوليو وحده في مكتبه بالمعهد، بعد ثلاثة أيام من إعلان الرحيل.

— هل تعمل؟

— لا.

— كان بوسعه أن يخبرنا، قال جوليو. لي أسرة في باريس. وعدتهم بشهور قليلة. وها قد مضى ثلاثة عشر شهرًا. وقد عاد هو.

ترك الجملة غير تامة. لم يكن ذلك غير. كان أبسط وأشد إيلامًا: لقد آمن بشيء، بالعلم في خدمة الجمهورية، وبالجمهورية في خدمة العلم. واستخدم بونابرت ذلك ديكورًا. والآن رحل الديكور.

اجتمعت لجنة العلوم والفنون في المساء نفسه. لم يدعُ إليها أحد. فقد التقى العلماء في المعهد بدافع غريزة جماعية. كان هناك فوربيه ومارسيل وجومار وجوليو وجوفروا سانت هيلير ونحو اثني عشر آخرين. وكان كونتية آخر الواصلين.

كان الوضع سهل الصياغة: ماذا سيحدث الآن؟ لقد رحل بونابرت. وكليبر هو القائد. لم تكن علاقات كليبر باللجنة كعلاقات سلفه. كان جومار قد طلب منه مقابلة قبل يومين لبحث وضع المجموعات. فقال كليبر إنه سیدرس الأمر.

— دراسة المسألة تعني أنه لا يفكر فيها، قال جومار.

— لدى كليبر جيش يحافظ عليه، وعثمانيون يراقبهم، وإنجليز في البحر المتوسط، قال فوربيه. المجموعات ليست أولويته.

— إذن يجب أن تكون أولويتنا، أجب جومار. إن لم نقرر مصيرها، قرره غيرنا. كان على الطاولة الجرد العام للصناديق الستة والتسعين. وكان جومار قد أمر بتداوله. وكان كل واحد يقرؤه في صمت. أسماء المعابد وفئات القطع وتقديرات الأوزان. كانت المرة الأولى التي تنتظر فيها اللجنة إلى مجمل ما جمعته في وثيقة واحدة.

لم يقل أحد ما كان يفكر فيه الجميع: أن هذا الجرد يشبه حصيلة نهب بقدر ما يشبه فهرسًا علميًا.

— علينا أن نضع أولوية للنقل، قال جومار. في حال الإخلاء لن يمكن أن يرحل كل شيء. لا بد من تراتبية.

— البرديات والنقوش المنسوخة، قال مارسيل. لا تعوّض.

تردد فوربيه قبل أن يطرح السؤال.

— وماذا عن الصناديق الثلاثة والعشرين بلا بطاقة في الزاوية الشمالية الغربية من المخزن؟

تبادل جومار ومارسيل نظرة.

— دونّتها، قال جومار. لا أعرف لمن تعود.

— ولا أنا، قال مارسيل.

انتهى الاجتماع دون قرار رسمي في هذه النقطة. وعاد العلماء إلى أعمالهم. وبقي الجرد على الطاولة. وبقيت الصناديق الثلاثة والعشرون بلا اسم في الزاوية الشمالية الغربية من المخزن، في العتمة، تنتظر من يقرر ماهيتها. وصف كليبر سلفه بأنه «مدبر صغير للدسائس» و«فارّ جبان».

كان الوضع العسكري لا يُحتمل. فقد كان الجيش الفرنسي يسيطر على مصر لكن دون أي اتصال بفرنسا. وكان الأسطول الإنجليزي يحاصر البحر المتوسط. وكان كليبر يعلم أنه لا يستطيع الصمود إلى أجل غير مسمى ولا تلقي تعزيزات. فاتخذ القرار الذي لم يجرؤ بونايرت على اتخاذه: التفاوض على الجلاء. وفي ديسمبر 1799، أرسل كليبر مبعوثاً إلى الصدر الأعظم العثماني الذي كان معسكراً في سوريا. وبدأت المفاوضات على متن السفينة الأميرالية البريطانية «النمر»، قرب دمياط. وكان المفاوض البريطاني العميد البحري سيدني سميث، الذي قدّم نفسه مفوضاً مطلق الصلاحية عن التاج، وهي صفة سينازعه فيها الأميرال كيث عما قريب. وكان المفوضان الفرنسيان الجنرال ديزيه والإداري بوسيلغ. وكانت الشروط الفرنسية واضحة: جلاء مشرف للجيش بسلّاحه وأمتعته. وقبل سميث أن يعالج النقاط العاجلة: إجلاء الجرحى والعلماء من مصر، وهذنة ريثما يصل المفوضون العثمانيون. وطالت المناقشات. وكان كليبر يحث مفوضيه على الحسم. لكن في 24 يناير 1800، وقّعت اتفاقية العريش. وقد نصّت على الجلاء الكامل للجيش الفرنسي عن مصر في ثلاثة أشهر، بسلّاحه وأمتعته ومجموعاته العلمية. وكان على الفرنسيين أن يتخلّوا تدريجياً عن مواقعهم، بادئين بشرق الدلتا ومنتهين بالإسكندرية. وكان يجب إخلاء القاهرة في موعد أقصاه اليوم الخامس والأربعون. وبلغ الخبر القاهرة في 28 يناير. وفي ذلك اليوم أعلنت الاتفاقية رسمياً. وكان وقعها على العلماء فوراً.

— أيها السادة، قال كليبر في اجتماع استثنائي للجنة، لقد تفاوضت على عودتنا مع العثمانيين. بعد ثلاثة أشهر سنكون في فرنسا. عانقوا مجموعاتهم، فسيتعين عليكم فرزها.

قضى جولياو أياماً كاملة في الفرز والتغليف. تماثيل برونزية، وتماثيل صغيرة من الخشب المطلي والفخار المزجج، وتماثيل، وبرديات، وعملات، ومجوهرات. كل قطعة مفهّسة وموصوفة ومغلّفة بالكتان. وكان يعمل بسرعة، عالماً أن الوقت محدود. وللمرة الأولى منذ عشرين شهراً صارت العودة واقعاً. وخرجت الصناديق من المخازن. وكُتبت البطاقات. ولُفّ حجر رشيد في عدة طبقات من القماش. وعاد فوربيه، الذي تابع المفاوضات عن كُتب، إلى القاهرة بنص الاتفاقية وقرأه بصوت

عالٍ في جلسة للمعهد. وحين بلغ البند الذي يضمن المجموعات، سرى في الحاضرين همس ارتياح.

— هل يعني هذا أن حجر رشيد والبرديات والكبسات، كل ما جمعناه، سيُسمح له بالعودة إلى فرنسا معنا؟ سأل مارسيل.

— الاتفاقية تضمن ذلك، قال فورييه. وهذا، طبعاً، يفترض أن يقبل الإنجليز شروطها.

كان فورييه قد أعدّ جرداً كاملاً: مئتان وسبع عشرة قطعة مفهرسة، منها مئة وثمانية وثلاثون ذات قيمة متحفية مباشرة وتسع وسبعون ذات قيمة علمية توثيقية. ورتبها بحسب الأولوية، عالماً أنه إذا كان النقل محدوداً فسيُعتبر الاختيار الأولوية الأولى: مسوحات جومار. لا تعوّض. مئتا كيلوغرام على الأكثر، في صناديق محكمة الإغلاق. ودفاتر جوليو، في أنابيب نحاسية: خمسون كيلوغراماً إضافية. الأولوية الثانية: القطع الصغيرة — الأوشابتي والجعارين والتماثيل والبرديات. خفيفة، عالية القيمة بالنسبة إلى الكيلوغرام. الأولوية الثالثة: كبسات مارسيل. الأولوية الرابعة: المجموعات الطبيعية لجوفروا، ثقيلة، هشّة، عسيرة النقل. الأولوية الخامسة: القطع الكبيرة للمعهد، تمثال الغرانيث والتوابيت المتوسطة الحجم.

دام الأمل خمسة أسابيع. وفي مارس 1800، وصل الخبر. لقد رفض البريطانيون المصادقة على الاتفاقية. فقد صرّح الأميرال جورج كيث إفينستون، قائد الأسطول البريطاني في البحر المتوسط، بأن سيدني سميث تجاوز صلاحياته وأن الاتفاقية باطلة. وطالب كيث باستسلام بلا شروط. وعلى الفرنسيين أن يلقوا السلاح ويسلموا أنفسهم أسرى. استدعى كليبر جنرالاته. وقرأ رسالة كيث بصوت عالٍ، ثم وضعها على الطاولة.

— أيها السادة، لا يُرد على مثل هذه الوقاحة إلا بالانتصارات. استعدوا للقتال.

فُكّت الأمتعة. وعادت الصناديق إلى مخازن المعهد. وكان ثلاثة وثلاثون منها مفقوداً، ضاع أو دُمّر في فوضى الأشهر السابقة؛ وبقي منها ثلاثة وستون. وظلت البطاقات ملصقة. لم تعد هذه القطع راحلة. في الوقت الراهن. إلى حين فرصة أخرى للرحيل، أو إلى حين الاستسلام الذي سيسلمها إلى الإنجليز. وكان البريطانيون والعثمانيون يعتقدون أن جيش الشرق أضعف من أن يقاوم. فتحرك الصدر الأعظم يوسف باشا نحو القاهرة بجيش من أربعين إلى ثمانين ألف رجل بحسب التقديرات. وفي القاهرة نفسها، ثار الأهالي استجابة لندائه.

احتل ناصيف باشا، على رأس طليعة الجيش العثماني، قرية المطرية بخمسة آلاف إلى ستة آلاف من الإنكشارية وعدة آلاف من الفرسان، وحصّن موقعه بست عشرة

قطعة مدفعية. ولم يكن لدى كليبر سوى عشرة آلاف رجل. وفي ليلة 19 إلى 20 مارس 1800 عبر بهم النيل وأقامهم على الضفة اليمنى للنهر، وقد شكّل كل لواء من ألوية جيشه الصغير الأربعة مربعة الخاص. وعند فجر 20 مارس هاجم الجيش الفرنسي قرب أطلال هليوبوليس، على بعد نحو خمسة عشر كيلومتراً من القاهرة. ودامت المعركة يوماً كاملاً. صمدت المربعات الفرنسية أمام جميع الهجمات، وحطمت المدفعية الفرنسية الصفوف العثمانية. وقرب نهاية العصر تفكك الجيش العثماني. ففرّ الصدر الأعظم نحو سوريا بما بقي من جنوده. وأحصى الفرنسيون ثمانمئة بين قتيل وجريح، أما العثمانيون فتركوا تسعة آلاف في ساحة القتال. عاد كليبر إلى القاهرة وأخمد التمرد. دام القصف عدة أيام. وقضى مئات المدنيين في المعارك. وفي 21 أبريل استسلمت المدينة. وقد ثبتّ انتصار هليوبوليس الموقع الفرنسي في مصر. ووقع مراد بك، الذي بقي مماليكه معسكرين في الصحراء دون أن يشاركوا في القتال، اتفاقاً مع كليبر في أبريل جعله ما يشبه نائب الملك في صعيد مصر. وبدأت مصر أشد رسوخاً من أي وقت مضى في أيدي الفرنسيين. استأنف كليبر مهامه قائداً أعلى، واستأنف العلماء أعمالهم. وبقيت المجموعات في المخازن. ولم يكن أحد يعرف إلى متى سيدوم ذلك.

— لنعمل ما دمنا نستطيع، قال فوربيه في الاجتماعات الأسبوعية التي تلت. ما سننجزه هنا لا يمكن نقضه.

كان كليبر قد فاض العثمانيين، وحاول إعادة الجيش إلى الوطن، وأخفق، واستأنف القتال. وكان العلماء يرونه قليلاً. كان يأتي أحياناً إلى المجمع، وبصغي إلى التقارير، ثم ينصرف إلى مقر قيادته.

استقر الوضع العسكري دون أن يتحسن. كان الجيش يمسك بمصر ولكنه لا يستطيع التقدم ولا الرحيل. وكان البريطانيون يحاصرون البحر المتوسط. وكانت فرنسا بعيدة. وقد صارت الحملة حامية عسكرية.

في صباح 14 يونيو 1800 استعرض كليبر الفيلق اليوناني، ثم جاء إلى القاهرة ليلتقّد أشغالاً في قصر القيادة العامة. وقبل أن يزورها حضر غداءً عند الجنرال داماس، رئيس أركانه وصديقه الحميم. وكان بين المدعويين أعضاء من المجمع وضباط. بدا كليبر أكثر بشاشة من المعتاد. فقد أذاب النجاح الذي توجّه جهوده، ونمو المؤسسات الفرنسية، ودلائل المودة التي كان يتلقاها من السكان، جفاء المعهود. كان حيويّاً لطيفاً منبسّطاً. ولم يكن أحد ممن حوله يحس بأن هذا الغداء المرح وليمة وداع.

وفي الساعة الثانية بعد الظهر توجه الجنرال إلى قصره، ولم يرافقه سوى بروتان، مهندس الجيش المعماري. وللوصول إليه سلك رواقاً طويلاً تطلّله كرمة كثيفة، يصل بين مسكن رئيس الأركان ومسكن القائد العام. وكان يحدث بروتان عن

التحسينات التي ينوي إجراؤها، ويصدر أوامر بإصلاح القيادة العامة والحديقة، وإزالة آثار المفدوفات التي خلفها العصيان الأخير.

كان شاب سوري يُدعى سليمان الحلبي مختبئاً في حديقة القصر منذ الصباح. كان في الرابعة والعشرين من عمره، يدرس العلوم الدينية في الجامع الأزهر، ويراقب قصر كليبر منذ شهر. وقد حصل على خنجر من الجيزة. وفي ذلك الصباح تنكر في هيئة متسول واختبأ قرب صهريج مهجور.

وعندما دخل كليبر الرواق مع بروتان، خرج سليمان من مخبئه، واقترب من خلفه، وغرس خنجرًا في قلب الجنرال.

انهار كليبر صارخاً: «إليّ، لقد اغتالوني!»

انقض بروتان على القاتل بعصاه الصغيرة التي كانت في يده. حاول صد الضربات، فتلقى بنفسه ست طعنات بالخنجر. تركه سليمان مغشياً عليه، وعاد إلى كليبر الملقى على الأرض، فطعنه ثلاث مرات أخرى. وكانت الضربة الأولى قاتلة. ومات الجنرال في دقائق دون أن يستطيع الكلام.

انتشر الذعر. أحاط به الحراس والضباط، كل أولئك الذين رفع معهم كليبر نخب الجمهورية قبل ساعات قليلة، يحاولون أن ينتزعوا منه بعض الكلمات. سألوه عيباً. ونُقلت الجثة إلى مسكن رئيس الأركان.

فتش الجنود القصر والحدائق في كل اتجاه. وجاء جنديان من الحرس بشاب فاجأه مختبئاً تحت شجيرة تين شوكي كثيفة. وتعرف بروتان على القاتل، وقد أفاق رغم جراحه. وألقي سليمان في السجن مع ثلاثة من علماء الجامع الكبير كانوا على علم بمشروعه ولم يبلغوا عن الاعتداء.

استولى على الجيش ذهول عميق تحول سريعاً إلى ظمأ متقد للانتقام. وهاج كل شيء في المدينة. أغلقت المتاجر. وكان الجنود الفرنسيون، الغاضبون التائهون، يجوبون الشوارع ويلقون حولهم نظرات تهديد. وكانت الليلة عسيرة.

في صباح اليوم التالي بلغ الخبر المجمع. دعا فورييه إلى اجتماع فوري. واجتمع ستة عشر عالماً في القاعة صامتتين. ولم يكن ذلك الصمت حداداً بالمعنى المألوف. بل كان إقراراً بأن شيئاً ما قد تغير في وضعهم العسكري، وأن الرجل الذي كان يتسامح مع وجودهم في مصر لم يعد موجوداً.

تكلم فورييه دون تمهيد.

— مات كليبر. وسيتولى الجنرال مينو القيادة. نحن لا نعرفه. كان كليبر يفهم أوامر بونابرت بشأن أهمية الأعمال العلمية. أما مينو فليست له هذه الصلة بنا.

وأضاف جومار:

— مجموعتنا مخزنة، وقياساتنا مؤرشفة. فإذا قرر مينو أن تبقى في مصر أو أنها لم تعد ذات أهمية عسكرية، فقدنا عمل عامين.

فقال مارسيل عندئذ ببطء:

— عمل التوثيق شارف على الانتهاء. والمهم الآن هو أن نعيد كل شيء إلى فرنسا. فإن تفرقت القطع هنا، بيعت في الأسواق، وضاع كل ما فعلناه سدى. نهض فورييه.

— نواصل العمل. ننجز ما يمكن إنجازه.

وعاد العلماء إلى مهامهم دون أن يعرفوا شيئاً مما سيقدره مينو.

استُجوب سليمان الحلبي تحت التعذيب. واعترف بأن أغا الإنكشارية في الجيش العثماني شجعه. وكان قد أسرّ بمشروعه إلى أربعة من علماء الجامع الأزهر حاولوا تنبيهه ولم يبلغوا عنه. وحكم عليهم جميعاً مجلس حربي. أحرقت يد سليمان اليمنى، ثم خُوزق حباً. وعانى أربع ساعات قبل أن يموت. وقُطعت رؤوس العلماء الثلاثة. أما الرابع فحكم عليه غيابياً.

جرت الجنازة سريعاً. وألقى فورييه، باسم المجمع، تأبين البطل الذي كانوا يبكونه. تسابق الجنود في إلقاء أكاليل السرو والغار. وبعد الجنازة العلنية اجتمعت مجموعة صغيرة، معظمها من الضباط، في هدوء حول قبر الراحل. كانوا أعضاء في المحفل الماسوني العسكري «الأصدقاء المتحدون». وانضم إليهم عالم من اللجنة. ومع أنه لم يكن ضابطاً، فقد كان هو أيضاً ماسونياً، عضواً في المحفل الباريسي «الاتحاد الكامل». وكان المدني الوحيد الحاضر. وكان بوسع مونج أن يكون بينهم، لكنه فرّ مع بونابرت. أخرجوا مآزرهم وقلبوها إلى الجانب الأسود المخصص للمراسم الجنائزية. صفقوا ثلاث مرات بأيديهم وهم ينطقون بالصيغة الطقسية «لننن! لننن! لننن!» تتبعتها على الفور قرعة الابتهاج التقليدية «لكن لنأمل! لنأمل! لنأمل!». ووضع غصن من الأكاسيا على القبر. لقد التحق أخوهم بالشرق الأبدى. وكان الجنرال جاك فرانسوا مينو، الثاني في القيادة، قد أدار المراسم الماسونية بصفته الأستاذ المبجل. وتولى رسمياً قيادة جيش مصر.

كان مينو قد اعتنق الإسلام، وتسمى باسم عبد الله، وتزوج مصرية تُدعى زبيدة. وكان الضباط يحترمونه أقل مما كانوا يحترمون كليبر. ولم يكن العلماء يعرفونه جيداً. وسوف يعرفونه.

الفصل الثالث: زمن العلماء

1 - الحملات الأخيرة

لم يغيّر تبدّل القيادة شيئاً من أعمال المجمع. كانت الاستكشافات الأثرية متواصلة في أنحاء الدلتا والوجه البحري. وكانت المجموعات تزداد غنى وتنظيماً. وكانت المنشورات العلمية في *العشرية المصرية* تصدر بانتظام.

كان الجنرال مينو ذا شخصية تختلف جذرياً عن سلفه. وكان يزعم أنه يحكم مصر باسم تحالف فرنسي عربي لم يكن له أي واقع سياسي. وكان ضباطه يتبعونه انضباطاً لا اقتناعاً.

بالنسبة إلى العلماء كان مينو أكثر تطفلاً وأقل نفعاً من كليبر. أكثر تطفلاً لأنه كان يزعم توجيه أعمالهم نحو موضوعات تبدو له نافعة سياسياً. وأقل نفعاً لأن أولوياته كانت تباين أولوياتهم تماماً.

ابتكر فورييه استراتيجية بسيطة للتعايش مع مينو دون أن يتورط معه: أن يقرن اسمه ببعض الاكتشافات والمنشورات الصغيرة، وأن يرفع إليه بانتظام تقارير تقنية بما يكفي لتستعصي على الفهم، وأن يواصل في هدوء الأعمال الجوهرية دون إطلاع القائد الأعلى عليها.

— هذه دبلوماسية، قال جومار حين شرح له فورييه استراتيجيته.

— بل هي مسألة بقاء، أجاب فورييه.

وكان العلماء يستأنفون استكشافاتهم.

واصل المجمع العلمي المصري عقد جلساته الأسبوعية، وإن اختلف جَوْها عما كان في السنوات الأولى. فقد صارت العروض أقل حماسة، والنقاشات أقل حيوية. وكان العلماء يحملون ثقل إقامة طويلة في بلد لا يتقنون لغته الدارجة ولا دقائقه الثقافية.

وكان فورييه يحاول الحفاظ على الزخم الفكري. فكان يقترح موضوعات للتأمل الجماعي، وينظم قراءات لنصوص قديمة ليذكر زملاءه بالسياق التاريخي الذي يعملون فيه. ولم تكن هذه الجهود عبثاً. فقد صار عدد من البحوث التي قُدمت في المجمع خلال تلك السنوات العصبية مقالات علمية مهمة.

كانت جلسة المجمع في منتصف يونيو من أكثر الجلسات حيوية منذ رحيل بونابرت ومقتل كليبر.

كان فوريبه قد اقترح موضوعاً مجرداً عن عمد، هو مفهوم الذاكرة في الحضارات، وسرعان ما تجاوز النقاش الحدود الأكاديمية.

كان جومار أول المتدخلين. كان في الثانية والعشرين، وله تلك الدقة المزعجة التي يتحلّى بها الشبان الذين يكونون على حق.

— الحضارة التي تنسى مقاييسها محكوم عليها بالبدء من جديد. ولم تنسَ مصر القديمة مقاييسها طوال ثلاثة آلاف عام. وهذا على الأرجح تعريف الحضارة العظيمة. ليس عظمة آثارها، بل المدة التي تستطيع خلالها نقل المعرفة دون تشويهها.

فاعترض مارسيل.

— الآثار هي بالضبط ما يتيح النقل. فلولا الكرنك، ولولا الأهرام، لما نقلت قياسات جومار شيئاً. فالسند المادي لا يفصل عن المعرفة التي يحملها.

— لهذا نحن هنا، ردّ جومار. لنستبدل بالآثر وثيقة أقدر على السفر. إن وصف مصر سيكون محمولاً حيث لا تُحمل المعابد.

كان فوريبه قد أصغى دون أن يتدخل. كان يفكر فيما ستؤول إليه أعمالهم لو استسلم الجيش غداً.

— هل قياساتك في حال تسمح بنسخها لو اضطررنا إلى الإخلاء على عجل؟

— لدي نسخة مزدوجة منذ الإسكندرية. فإن غرقت السفينة بقيت نسخة واحدة على الأقل.

نظر إليه فوريبه صامتاً. لقد أدرك هذا الشاب أن العمل العلمي في حملة عسكرية هش بطبيعته، وأن الجواب الوحيد هو التكرار.

— عليك أن تقول هذا للآخرين.

— قلته. ووجده أغلبهم مبالغاً فيه.

— الأغلبية مخطئة.

فكر فوريبه في هاميلتون. لم يكن يعرف اسمه بعد، لكنه كان يعرف أنه موجود. شخص ما، على الجانب الآخر، يعدّ هو أيضاً قوائمه. بلد يأتي بالدفاتر خیر من بلد يأتي بالمدافع وحدها. ولم تكن نسخة جومار المزدوجة حذر مهندس، بل كانت راحة عقل.

في ذلك المساء بقي جومار وحده ينسخ دفاتر قياساته. كان القلم يجري بانتظام على الورق. وكانت المدينة تهتمس من خلف المصاريع. وكان مؤذن ينادي للصلاة. لم يكن جومار يسمع شيئاً. كان ينسخ. وكان يفكر أحياناً أن النسخ هو الشيء الوحيد المؤكد الذي يفعله هنا. وأن الرسم والقياس قد يخطئان، لكن النسخ الأمين لا يخطئ.

وأن النسخة الصحيحة تعيش بعد الأصل. وهذه هي المقاومة الحقيقية. لقد أدرك منذ أي قير أن كل قياس إما أن يوجد في نسختين وإما ألا يوجد. النسخة الأولى في دفتر الميدان، كُتبت واقفاً في الريح. والثانية هنا، على الطاولة، مراجعة ومُدققة ومقروءة. وكانت الثانية هي التي ستبقى.

في 25 يونيو 1800 انطلق جوليو من جديد مع جومار وجوفروا ورسامين اثنين نحو تانيس، في شمال شرق الدلتا، لمعاينة آثار العاصمة القديمة لفراعنة الأسرة الحادية والعشرين.

اكتشفوا حقل أطلال واسعاً. تلال متناثرة ترقد تحتها قرون من مدينة تراكتت طبقاتها. كتل من الجرانيت. شظايا تماثيل. لقد التهمت الدلتا ما حفظته رمال صعيد مصر. لا شيء يشبه الكرنك. لا شيء يشبه دندرة. كانت مصر بلا إخراجها المسرحي. المادة وحدها، مبعثرة، بلا نظام ظاهر، ومع ذلك منظمة وفق منطق لا يكشفه إلا التنقيب. وذُكر جوليو بأنه لم تُجرَ أي محاولة لمسحها مسحاً منهجياً منذ اليونانيين: فهيرودوت يذكر الموقع، وسترابون أيضاً. «ذلك لأن أحداً لم يكن يعلم أن فيه هذا القدر الكبير مما يُشاهد»، أضاف جومار. رسم جوليو ثلاثة أيام، لا يتوقف إلا عند حلول الليل، ورسم خريطة الموقع كله مدوّناً موضع كل كتلة ذات شأن.

عند مدخل الموقع كان تاجر آثار ينتظر ومعه خرجه. وكان الرجل يُدعى سليمان القباني، قدم من القاهرة بعد أن علم أن اللجنة ستتوجه إلى تانيس. وقد قطع الطريق في اليوم السابق، ولم يكن ينتظر أحداً بعينه، بل شخصاً يعرف ماذا يشترى. توقف جوليو أمام القطع. كان اثنان من *الأوشابتي* أصيلين، وقد تبين له ذلك من قَدَم سطحهما ونقوشهما. فاشترى واحداً.

ومن تانيس توجهت البعثة إلى بوباستيس، على بعد يومين غرباً. مدينة باستت المقدسة، الإلهة القطه. كانت أطلال معبدها تثير الإعجاب بأبعادها. وقد وصفه هيرودوت بأنه من أروع معابد مصر، وكان العيد السنوي يجذب جموعاً غفيرة، وهو ما يمكن تصديقه حين يرى المرء اتساع الموقع.

كانت أعمدة من الجرانيت الوردية يبلغ ارتفاعها عشرة أمتار ملقاة على الرمال، وقد تحطمت جذوعها الأسطوانية إلى عدة قطع بفعل الانهيار. وكانت شظايا النقوش البارزة تغطي الأرض، مواكب كهنة ومشاهد أعياد وآلهة منمطة. أسلوب العصر المتأخر.

وحول المعبد مقبرة للقطط المقدسة. آلاف الموميالوات في أروقة من الحجر الجيري. العناية نفسها التي تُبذل للبشر، نظرون ولفائف وتوابيت من الخشب أو البرونز.

وعند فتح إحدى المومياوات اكتشف جوفروا أن الجسد محفوظ بصورة رائعة، الجلد والشعر والعظام والأوتار سليمة بعد ألفي عام من الدفن. قط منزلي عادي الحجم.

كان اللصوص قد سبقوهم إلى العمل. حفر مقبرة، ومومياوات مبعثرة، وقطع من اللفاف مشتتة على الأرض الكلسية كأنها تلج بني.

وكان ما يبحث عنه اللصوص في مقابر القطط هو التماث من الفخار المزجج أو الذهب الموضوع مع المومياوات، والتوابيت البرونزية الصغيرة على شكل قط جالس ذي أذنين منتصبين وعينين مرصعتين بالزجاج. وكانت لهذه التوابيت قيمة تجارية فورية. فتجار الإسكندرية كانوا يبيعونها للمسافرين الأوروبيين منذ قرن. أما المومياوات نفسها، التي لا قيمة لها متى جُردت من تماثيلها، فكان اللصوص يتركونها، وكذلك التوابيت الكلسية العادية، الثقيلة والشائعة أكثر من أن تبرد نقلها.

اختار جوفروا ست مومياوات قطط في حالة جيدة. لُقها في كتان نظيف وسجّل هويتها. كانت في نظره عينات حيوانية، أي حيوانات مصر القديمة، تُقارَن بالأفراد الحية في حديقة حيوانات المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي. فُكر فيما سيقوله كوفييه حين يراها: دليل على ثبات الأنواع، فالقط لم يتغير في ألفي عام. وفيما سيقوله لامارك: إن ألفي عام لا تُحسب في سلم التحوّل. المومياوات نفسها تخدم أطروحتين متعارضتين. كانت هذه خاصية العلم، فالوقائع لا تختار معسكرها. أما عند اللصوص الذين تركوها فهي نفايات بعد انتزاع التماث منها. وأما عند كهنة باستت الذين دفنوها فهي قرايبين للإلهة، فُدر لها أن تبقى هناك إلى الأبد. الشيء نفسه له ثلاث حكايات لا تلتقي.

عثر جوليو في الجبّة، شبه مطمور في التراب، على تابوت برونزي صغير على هيئة قط جالس. الارتفاع: عشرون سنتيمترًا. الذيل مثنيّ على القائمتين في الوضعية المميزة لقطط مصر. وتحت ضوء المساء المائل، برزت ملامح الوجه بدقة لم يحجبها الزنجار: عضلات الخدين، وقصبة الأنف، وخط الشفتين المطبقتين. كان التابوت فارغًا. قَلَب جوليو البرونز بين يديه. على القاعدة، محفورًا بالإنجليزية، سطر من الهيروغليفية. اسم صاحب الإهداء على الأرجح، المرأة أو الرجل الذي قدّم هذا القط إلى باستت لقاء نعمة أو عن تقوى عادية. اسم سيقروه غيره لاحقًا، إن وصل هذا البرونز يومًا إلى باريس. اسم ظل ينتظر هناك في التراب منذ الأسرة السادسة والعشرين.

وضعه في حقيبتة. الوزن: ثلاثمائة غرام. القيمة التجارية في الإسكندرية: ربما عشرون قرشًا، إن وُجد مشتري إنجليزي مولع بالبرونزيات المصرية. القيمة العلمية: لا تُقدّر بثمن، إن كان البرونز يحمل اسم صاحب الإهداء وأمكن يومًا أن يُقرأ هذا الاسم. القيمتان لا تتطابقان. فما هو ثمين لعالم الآثار ليس ثمينًا للتاجر. وكون

جوليا هو الاثنان معًا، عالم آثار يضع في حقيبتة ما وجده، لا يحلّ التناقض. إنه يجسده.

التحق جوفروا بجوليا مساءً في المخيم ومعه موميائاته الست في صندوقها. كان الليل يهبط سريعًا. جلسا أمام النار ووضعوا مكتشفاتهما بينهما. المومياءات الست. والبرونز. فحص جوفروا المومياءات قبل أن يغلق الصندوق. كان قد أمضى النهار يقرر ما يمكنه حمله وما يجب أن يتركه.

— ماذا ستفعل به؟ سأل جوفروا وهو ينظر إلى البرونز.

— سأخذه معي. سأرسمه. سأصفه. وسأسلمه إلى اللوفر حين يكون له قسم مصري.

— وإن أخذ البريطانيون منك عند الاستسلام؟

وضع جوليا البرونز في حقيبتة تحت دفاتره. لم يجب. كان كلاهما يعرف. إن جاء الاستسلام فسيذهب البرونز إلى لندن. إلى واجهة عرض في المتحف البريطاني. عادت البعثة إلى القاهرة في 12 أغسطس بعد سبعة أسابيع في الدلتا. جلبت معها رسوماً لتانيس وبوباستيس، مواقع مخيئة من الناحية الأثرية، لكنها موثقة.

— لقد جعل كونتيه من مصر مختبره، قال جوليا لفورييه. أينما ذهبنا يلاحظ ويجرب ويحسن. وربما كان هو من سيجني أدوم فائدة عملية من هذه الحملة.

فرض نيكولا جاك كونتيه نفسه مخترعًا للحملة. المناطيد والطواحين وورش التصنيع. هذا المنطادي السابق لم يكن يرسم المعابد، بل كان يحلّ المشكلات التي يطرحها استكشافها.

أما سائر العلماء، الأقل صمودًا أمام الإحباط، فقد خفّضوا نشاطهم إلى الحد الأدنى. وأصيب بعضهم بالمرض. فقد فتك الزحار المزمن والحمى والتهابات العيون التي يسببها الرمل والشمس في صفوف اللجنة. ومات عدد منهم في مصر قبل العودة.

في خريف 1800، نظّم جوليا استكشافات جديدة في الصحراء الشرقية. مواقع تختلف عن تلك التي جابها من قبل. وأراد هذه المرة أن يستكشف الأديرة القبطية الضائعة في جروف الصحراء، بين النيل والبحر الأحمر.

في 15 سبتمبر 1800، انطلق جوليا شرقًا مع جومار وثلاثين فارسًا للحراسة. ثلاثة أيام في الصحراء الشرقية، القاحلة الصخرية.

وفي صباح 18 سبتمبر، بلغت البعثة دير القديس أنطونيوس، المأهول منذ القرن الرابع.

استقبل الرهبان الأقباط الزائرين بتوجّس وفضول. نحو خمسين ناسكًا في ثياب سوداء، يعيشون في فقر نسكي مدقع، كانوا ينظرون إلى هؤلاء العلماء الباريسيين كما ينظر المرء إلى كائنات جاءت من عالم آخر.

— يا أبت، قال جوليوا للرئيس بواسطة حسن، لم نأتِ لناخذ مخطوطاتكم. نريد فقط أن ننسخها. كل شيء سيبقى هنا.

أصغى الأب الرئيس وانسحب ساعة. ثم عاد بشرط. يمكنهم رؤية المكتبة، لكن لا شيء سيخرج من الدير دون إذنه.

شغلت مكتبة الدير قاعة صغيرة معقودة. كانت المخطوطات القبطية، وبعضها يعود إلى قرون عدة، محفوظة في صناديق خشبية. سمح لهم الأب الرئيس بفحصها لكن لا بحملها.

— انظر إلى هذا، همس جومار. كتاب مزامير ثنائي اللغة، اليونانية على اليسار والقبطية على اليمين. سطرًا بسطر. إن أمكن مقارنة العمودين، بدأنا نقرأ.

تصفح المخطوط. الحروف القبطية، المستديرة، المشتقة من اليونانية، مع سبع علامات إضافية مستعارة من الديموطيقية، كانت تقول شيئًا عن هذه الحضارة. لا هي يونانية ولا فرعونية، بل الالتئان معًا. كانت اللغة تحمل هذا التاريخ.

— هل تقبلون أن تتبعوه لنا؟ قال جوليوا. أو أن نتركونا ننسخه؟
هزّ الأب الرئيس رأسه.

— هذا المخطوط ملك ديرنا منذ قرون. حفظه أبائنا عبر القرون. لن يغادره.

قال الأب الرئيس ذلك بهدوء من لا يحتاج إلى رفع صوته.

قبل جوليوا الشروط وأمضى ثلاثة أيام في نسخ كتاب المزامير القبطي اليوناني. عمل دقيق، حرفًا حرفًا، على نص لا يفهم منه إلا لغة من اثنين. وغادر ومعه نسخته وبقين بأن أحدًا، فيما بعد، سيعرف ما يفعل بها.

وبينما كان ينسخ كتاب المزامير، كان جومار يستكشف الجروف المحيطة. اكتشف كهوفًا كانت مساكن لنسائك القرون الأولى، جدرانها مغطاة بكتابات محفورة بطرف مدبب: أسماء وتواريخ وصلوات.

— هذه الكهوف تُقلّقتني، أضاف جومار. رجال عاشوا هنا سنوات، وحدهم، في الصلاة. لا شيء آخر. يالها من نظرة إلى الوجود...

وضع قلمه لحظة. كان يفكر في تلك الكتابات، هذه الأسماء المحفورة في الصخر على أيدي نسائك لم يتوقعوا أن يقرأها أحد. كان جومار قد أمضى ثلاث سنوات يدون قياسات. الفرق في الدافع مطلق. الفرق في الفعل أقل.

— كان لهؤلاء الرجال اتساقهم الخاص. زهدهم لم يكن جنونًا. كان رهائنًا على الخلود. ونحن نخوض الرهان نفسه على العلم. الوسائل تختلف، لا الحدة.

في 21 سبتمبر، غادرت البعثة مجدداً نحو دير القديس بولس، على بعد نحو ثلاثين كيلومتراً إلى الجنوب. مكتبة أكبر. نسخ جوليو. وقاس جومار.

عادت البعثة إلى القاهرة في 29 سبتمبر، حاملةً نسخاً من مخطوطات قبطية وعدة قطع من الفن المسيحي وافق الرهبان على بيعها: أيقونات على الخشب، وصلبان من البرونز، ومباخر من الفضة. فهرسها جوليو.

— هذه القطع القبطية هي الحلقة المفقودة. الأقباط ينحدرون مباشرة من قدماء المصريين. ولغتهم مشتقة من المصرية الفرعونية. ودراسة القبطية هي الاقتراب من الهيروغليفية من الأسفل.

2 - بعثات الصحراء

بدا مينو أكثر ودًا تجاه العلماء في الظاهر. فقد خُلف موت كليبر في أروقة القصر غيباً كان نشاط العلماء يملؤه، على السطح على الأقل. كان مينو يوقر الحراسات ويخصص الأموال ويشارك أحياناً في جلسات المجمع.

بلغ القاهرة في أغسطس نبأ موت ديزيه في مارينغو. تلقاه جوليو في مكتبه. كان ديزيه خير رفيق في هذه الحملة. ذاك الذي ترك العلماء يعملون دون أن يضايقهم، والذي نظر بنفسه إلى المعابد باهتمام لم يره جوليو عند أي جنرال آخر.

وصل النبأ مع ساع عثمانى، بعد شهرين من الواقعة. مات ديزيه في مارينغو في 14 يونيو 1800. في اليوم نفسه الذي مات فيه كليبر، على بعد مئات الكيلومترات، وهو يقود الهجوم على رأس فرقته ليقب مجرى معركة ظلّها بونابرت خاسرة. أصابته الرصاصة في صدره. مات في الحال، وهو في الحادية والثلاثين من عمره.

بقي جوليو طويلاً في مكتبه دون أن يضيء مصباحاً. كان الضوء يخفت. تركه يخفت. في الخارج واصلت القاهرة ضجيج أواخر العصر. أصوات الباعة، وأذان مؤذن بعيد، والصوت المنتظم للسواقى التي تدور في البساتين. بحث في دفاتره عن الملاحظات المدونة أثناء حملة صعيد مصر مع ديزيه. دفتران ونصف دفتر، مليئة صفحاتها على الوجهين. دندرة، وطيبة، ووادي الملوك، وفيلة. وفي الهوامش، أحياناً، كان ديزيه قد علّق. لا تعليقات جمالية، بل أسئلة عملية. كم من الوقت للتقيب في هذا الموقع، وكم من الرجال لتحريك هذه الكتلة، وما مقاومة هذا النوع من الحجر الرملي للرطوبة.

كانت هذه التعليقات قد أغاضت جوليو في حينها. جنرال يطرح أسئلة لوجستية أمام دندرة، فرأى ذلك اختزالاً. وما هو يعيد قراءة هذه الصفحات على ضوء المصباح، والأوراق تحف برفق في تيار الهواء من النافذة المفتوحة. كان خط ديزيه صغيراً منتظماً مانلاً إلى اليمين. ولأن صار يقرأها قراءة مختلفة. لقد نظر ديزيه إلى

الأشياء نفسها التي نظر إليها هو، بالعينين نفسيهما، وطرح على نفسه سؤال مستقبلها المادي. ماذا فعل بهذه الحجارة. كيف نحملها. وكم من الزمن ستصمد إن لم نفعل شيئاً.

وفكر كذلك في الدفاتر الشخصية لديزيه. كان الجنرال يدون يوميات حملة منذ مغادرة طولون. رآه جوليو يمسكها بيده عدة أمسيات، بعد التخييم، على ضوء فانوس. لم يكن يعرف ما كتبه ديزيه فيها. ولن يعرف أبداً. دفاتر الميت ملك للميت. لا بد أن هذه الدفاتر عادت إلى فرنسا مع أمتعته الشخصية. أو بقيت في ساحة المعركة. أو أخذها أحد. كان لدى جوليو، في أمتعته، سكين جيب أعارها إياه ديزيه في ديسمبر 1798 ولم يفكر قط في ردّها. سكين عادية، بمقبض من الخشب وشفرة قصيرة. استعملت في بري الأقدام منذ سنة ونصف. لم يكن يعرف ماذا يفعل بها الآن. الاحتفاظ بها يبدو عادلاً. ورميها يبدو مستحيلاً.

لم يكن أحد يعرف ما يُفعل بدفاتر رجل مات في القتال. لم تكن لدى ديزيه مجموعة. لا حقيبة ملأى بالـ *أوشابتي* والجعارين. دفاتر ديزيه تتبّع مصير الأشياء الأخرى. تُسترد أو تضيع أو تُباع أو تُحرق. الحروب لا تميّز بين أوراق ضابط وهيرو غليفيه معبد.

واصل جوليو تنظيم استكشافات جديدة. مواقع من غرب الدلتا هذه المرة، تختلف عن تلك التي جابها في مطلع الصيف. سايس، وبوتو. تلال منبسطة، وقليل من الآثار الظاهرة.

في 15 أغسطس انطلق مع جومار وجوفروا سانت هيلير. اثنا عشر يوماً في السهول المزروعة، يبحثون عن آثار المدن الفرعونية الكبرى في الشمال، وعن الأنواع الحيوانية التي تصورها النقوش البارزة أيضاً. كانت لديه منهجية عالم الطبيعة: ألا يفترض شيئاً من وراء المكتب. أن يرى أولاً. وكل ما عدا ذلك يأتي بعد.

بعد يومين من السفر بلغوا سايس. كان الهواء مختلفاً هنا، أكثر رطوبة وثقلاً، برائحة الحقول المغمورة وضوء أبيض لا جفاف الصحراء فيه. لم يبقَ شيء من العاصمة العظيمة لفراغة الأسرة السادسة والعشرين. بضع كتل من الغرانيت مبثرة في الحقول، أعاد الفلاحون المحليون استعمالها دعامات لقنواتهم.

— هذا التل تبلغ مساحته كيلومترين مربعين، قال جومار. ألفا عام من الاستيطان المتراكم طبقات. ليس موقعاً منقّباً. إنه مدينة كاملة مضغوطة في تلة.

لم يكن ثمة ما يُرسم. لا أثر ظاهراً، ولا معبد قائماً، ولا مسألة. فقط سطح التلة وأبعادها وارتفاعاتها المقاسة بالبارومتر. وفي الحقول حولها، وفي القنوات، وفي جدران بيوت القرية، في كل مكان، كتل غرانيت أعيد استعمالها. شظايا أعمدة،

وقطع أعتاب منحوتة، وأجزاء من عوارض الأعمدة. كان فلاحو القرية يستعملونها منذ أجيال في بناء بيوتهم وشق قنوات حقولهم.

توقف جومار أمام حافة قناة. كانت الكتل من الغرانيت الوردي من أسوان، مصقولة على وجه وخشنة على الباقي.

— لا يمكننا حمل هذه الكتل، قال جوليو وهو ينظر إلى رسومه التخطيطية. إنها جزء من بيوت الناس. لا يمكن هدم قرية لاسترداد حجارته.

— هؤلاء الفلاحون هم الحُماة الحقيقيون لسايس. إنهم لا يعلمون ذلك. لكن لولا بيوتهم لاندثرت هذه الكتل منذ زمن بعيد. لقد حموها بإعادة استعمالها.

نظر إلى رسومه التخطيطية. الكتل في الجدران. والنقوش المنسوخة سطرًا بسطر. لقد فعل الشيء نفسه الذي فعله الفلاحون، أخذ ما استطاع أخذه من سايس، على الوسيط الذي يناسبه. هم في الغرانيت. وهو في الورق.

عادت البعثة إلى القاهرة في 27 أغسطس. اثنا عشر يومًا. مواقع مخيبة، لكنها موثقة.

في أكتوبر ونوفمبر فهرس جوليو المجموعات. عدة آلاف من القطع تراكمت في عامين. تماثيل، وتماثيل، وبرديات، وعمليات، وحلي، وعينات طبيعية. كان يعدّ البطاقات ويتحقق من الأوصاف ويصحح نسبة القطع. عمل أمين أرشيف بعد أشهر من العمل الميداني.

كان جوليو قد اكتشف مصادفًا ورشة قبطية في حي مصر القديمة يُزعم أنها لا تزال تصنع البردي بالتقنيات القديمة. رجل عجوز وابناه. كانوا يصنعون أوراقًا تُباع للتجار الذين يعيدون بيعها لعلماء اللجنة بوصفها عينات أصيلة. وقد اشترى جوليو من هناك عدة دفعات.

في صباح ما طلب أن يبقى ليراقب عملية الصنع.

كانت صناعة البردي تجري وفق عملية محكمة الإتقان. قطع السيقان إلى شرائط طويلة رقيقة، وترتيبها في طبقات متقاطعة، والترطيب، والطرق، والكبس أيامًا عدة. وضع جوليو إصبعه على سطح ورقة طازجة، خشنة قليلًا، دافئة بعد، برائحة نباتية لم يشمها في أي مكان آخر. وكانت النتيجة ورقة لينة بيضاء كريمية، لا تقل جودة عن أفضل الورق الأوروبي. أما التقنية، التي ظن جوليو أنه يتعرف إليها في النقوش البارزة في سقارة، فكانت تدّعي أنها تعود إلى أربعة آلاف عام دون أن تتغير فيها حركة واحدة.

كان يرسم يدي الصانع العجوز. كانت يداه تعرفان هذا العمل منذ الطفولة. أبوه علّمه إياه، وكان أبوه قد ورثه عن أبيه. لم يكن بحاجة إلى الشرح. يداه كانتا تعرفان.

— هذه التقنية، قال جوليو للمترجم، منذ متى يمارسونها؟
 طرح المترجم السؤال. أجاب الصانع العجوز دون أن يرفع عينيه.
 — يقول إن أباه علمه إياها. وإن أباه تعلمها من شخص كان يقول إنه تلقاها عن
 القدماء.

— القدماء، في هذا السياق، هم الفراعنة؟
 سؤال جديد. جواب موجز.

— يقول إنه لا يعرف. ويقول إن ذلك لا أهمية له. المهم أن اليدين تعرفان.
 دون جوليو ذلك. ما تعرفه اليدين. الانتقال الجسدي، الحركة قبل الكلمات، التقنية
 قبل النظرية. الصانع القبطي لم يكن يعرف اسم مخترع البردي. ولم يكن بحاجة
 إلى ذلك. كان يعرف كيف يصنع. نظر جوليو إلى يديه، إلى بقع الحبر في ثنايا
 المفاصل، والجلد الغليظ في إبهامه اليمنى الذي صنعتها سنوات من الفحم. يده أيضاً
 كانتا تعرفان أشياء لا تقولها دفاتره.

كان ذلك ضرباً من الذاكرة لم يكن بوسع وصف مصر أن تستنسخه. فاللوحات
 المحفورة سئظهر شكل البردي، أما حركة اليدين — الضغط الدقيق، وزاوية
 الشرائح، ومدة التجفيف التي تُقدَّر بالعين — فلن تنتقل إلى أي مكان. ستموت مع
 هذا الرجل وأبنائه، إلا إذا كان لأبنائه أبناء يريدون أن يتعلموا.
 تفحص يدي الابن الأكبر. كانتا تأتيان بالحركات نفسها التي تأتي بها يدا الأب تماماً.
 لقد تم الانتقال.

عاد ومعه ثلاث ورقات جديدة ورسم اليدين الذي سيضعه لاحقاً في إطار في شقته
 بشارع سان دومينيك. وفكر في تاجر الخط العجوز في خان الخليلي الذي أهداه
 ورقة رابعة هدية ترحيب في أول مساء له بالقاهرة. وكانت تلك الحركة أيضاً انتقالاً.
 أن تُقدَّم شيئاً لمن يصل لتوه. هذان الرجلان لا ينتميان إلى العالم نفسه، لكن حركتهما
 واحدة.

كان مينو يُبدي اهتماماً شخصياً متزايداً بالأعمال العلمية للجنة. اهتمام كان
 مرسومه يجدونه مرهقاً أحياناً، لأنه كان يتجلى في تدخلات في تنظيم الأعمال
 وفي ادعاء الحق في تقرير ما يستحق الدراسة.

— يودّ الجنرال مينو أن نخصص وقتاً أطول لآثار العصر الإسلامي على حساب
 الآثار الفرعونية، أخبر جوليو فوربيه. ويزعم أن مصر الإسلامية أكثر أهمية من
 الناحية السياسية لعلاقتنا بالسكان المحليين.

— ليس مخطئاً تماماً في الجوهر، قال فوربيه. لكن علينا نحن أن نقرر أولوياتنا
 العلمية، لا هو.

توصلوا إلى حل وسط: فقد كرس بعض العلماء، ومنهم شابرول ولانكريه، جزءاً من وقتهم لدراسة العصر الإسلامي، فوثقوا مساجد القاهرة من العصور الوسطى والتقنيات المعمارية لدى البنائين العرب. وهذه الدراسات، التي ضُمَّت إلى الوصف، جعلت منه أحد أوائل الأعمال الأوروبية الجادة عن العمارة الإسلامية في الشرق الأوسط.

وفي الأثناء، واصل جوليو توثيق الآثار الفرعونية. فقد طوّر على مرّ السنين منهجاً دقيقاً في العمل: أولاً رسم تخطيطي عام لإدراك النسب العامة، ثم مخططات مفصلة للعناصر المهمة، وأخيراً نسخ للنقوش الهيروغليفية بكل ما فيها من عيوب ظاهرة، كي تتيح مقارنة لاحقة بين النسخ المختلفة للنص الواحد.

— الهيروغليفية التي تنسخونها بشقوقها وثغراتها أثمن من الهيروغليفية التي تُضفون عليها المثالية، كان يشرح لمساعديه الشباب. ما ترونه هو الواقع. وما تتخيلون أنه ينبغي أن يكون ليس سوى إعادة بناء من عندهم. لا تخلطوا بينهما.

في صباح من أيام مارس، وبينما كان يجوب القاهرة الإسلامية القديمة ليرسم واجهات البيوت التي تعود إلى العصور الوسطى، رأى جوليو تفصيلاً لم ينسه. جندي فرنسي — في العشرينيات من عمره، بزّته بالية، وبندقية على كتفه — كان واقفاً أمام كوة خارجية في بيت من الحي القبطي. وفي الكوة تمثال صغير من البرونز، ربما بطول عشرين سنتيمتراً، لإيزيس جالسة. قديم، بلا شك. وكانت الزنجرة سميقة وغير منتظمة.

نظر الجندي إلى التمثال. ثم أخذه. من دون تردد، ومن دون أن ينظر حوله. دسّه في جعبته ومضى في الزقاق. خمس عشرة ثانية في المجموع. وأصبحت الكوة فارغة.

بقي جوليو حيث كان من دون أن ينبس بكلمة. لا سلطة له على هذا الجندي، فهو ليس ضابطاً. وحتى لو كان ضابطاً، فماذا كان سيقول؟ أن هذا الشيء ملك للبيت؟ أن صاحبه سيعود؟ لم يكن يعرف من يسكن هناك ولا إن كان البيت لا يزال مسكوناً. كان يعرف أن التمثال ظلّ في تلك الكوة زمناً كافياً ليترك على قاعدته دائرة من الحجر أنظف من سائره.

أخرج دفنقه ورسم الكوة الفارغة. حدود الغياب. البقعة الأفتح حيث استقرت قاعدة التمثال سنين طويلة. كان ذلك كل ما في وسعه. أن يوثّق ما اختفى للتوّ. ربما تضمّن وصف مصر رسماً لإيزيس مشابهة، مأخوذاً من مجموعات اللوحة. لكن ليس تلك الإيزيس بالذات. تلك ستظلّ في جعبة الجندي حتى الإسكندرية، ثم في سوق، ثم في صالون مرسيلّي إن اشتراها أحدٌ في الميناء.

بقي هناك لحظة أخرى، ودفتره مفتوح على رسم الكوة الفارغة. ثم عاد إلى القصر عبر أزقة الحي القبطي. وفي الدكاكين التي لم تفتح أبوابها بعد، كان أطفال يلعبون على العتبات. مشى من دون أن يُخرج دفتره، ومن دون أن يرسم. أحياناً كان لا بدّ من العبور من دون أخذ شيء.

3 - الزراعة والري

خلال شتاء 1800-1801، انصرف مهندسو اللجنة وخبرائها الزراعيون إلى الزراعة المصرية، وهو ميدان كان الافتتان بالآثار قد حجبته حتى ذلك الحين. وما أدهشهم هو مدى نجاح هذا النظام. عرض كورنتيه أعماله في الهيدروليكا على المجمع منذ أول جلسة في الشتاء.

— الزراعة المصرية تُلخّص في جملة واحدة: فيضان النيل يخصّب الحقول كل صيف. وكل ما عدا ذلك — القنوات والأحواض والأجهزة الميكانيكية — ليس سوى الإدارة المنظمة لهذه الحقيقة الطبيعية.

ووصف أجهزة الري: الشادوف، وهو رافعة بسيطة ذات ثقل موازن لاستخراج الماء؛ والساقية، وهي عجلة يديرها ثور لكميات أكبر. ألتان يعرف أي فلاح كيف يصنعهما ويصلحهما بالخشب المحلي والحبل.

— الشادوف والساقية تبدوان بدائيتين. لكنهما ليستا كذلك. خشب محلي، وحبل من ألياف نباتية، وطين. إنها هندسة صُنعت للظروف الفعلية، لا لكتبنا المدرسية.

وما كان كورنتيه يفهمه بالتجربة هو أن آلة بسيطة حسنة التصميم تعادل مئة آلة معقدة سيئة الملاءمة. وقد تعلّم المصريون ذلك قبله بألف عام.

وعرض رسوماً تقنية لشبكة القنوات التي توزع ماء النيل على كامل الوادي المزروع. شجرة مائبة متفرعة على مئات الكيلومترات، تتعاهدها جماعياً عشرات القرى.

— القناة التي لا تُكسح تموت في ثلاث سنوات. يسدّها الطمي. وهنا، هذا عمل الشتاء. مئات الرجال في الماء إلى الخصر. لا تستطيع قرية واحدة أن تصون قناة كبيرة. ولهذا السبب بالتحديد أقام المصريون دولة مركزية. الهيدروليكا هي التي أنتجت البيروقراطية الفرعونية، لا العكس.

وبالتوازي مع الري، كان عدد من العلماء يدرسون النباتات المزروعة والممارسات الزراعية. وكان جوليو يقضي أيامه في الحقول، يرصد الدورات الموسمية وتقنيات الحرث والأصناف المحلية.

— الزراعة المصرية اليوم تشبه زراعة الدولة القديمة، خلص جوليا. النباتات نفسها، والأدوات نفسها، والحركات نفسها. أربعة آلاف عام لم تغيّر شيئاً من الجوهر.

— لم يكن المصريون بحاجة إلى السماد، قال كونتيه. كان النيل يأتيهم به كل عام من جبال الحبشة. كانوا يوجهون الماء إلى الحقول، وينتظرون الرواسب، ثم يتركونه ينسحب قبل البذار.

أما مارسيل، الذي لم يكن مهندساً، فقد اكتشف في هذا الشرح مفتاحاً لفهم عمارة المعابد الفرعونية. فالهيكل الكبرى كانت موجهة في الغالب عمودياً على النيل، ومحاورها الرئيسية متجهة نحو النهر أو نحو الجهات الأصلية بحسب التقويم الزراعي. وكان علم الفلك الديني المصري لا يفصل عن التقويم الزراعي، المضبوط بدوره على دورات النيل.

— ترون أن المعبد ليس بناءً منفصلاً عن العالم الطبيعي. إنه مندمج في المشهد الزراعي والمائي. والتوجه نحو النهر يعبر عن مصدر الحياة. والشمس تغرب من جهة الصحراء، حيث يُدفن الموتى. الديانة المصرية علم كونيّات مائي.

— إذا طُبق هذا النظام على أنهار أخرى طمبية — النيجر مثلاً، أو السند — فستكون النتائج مماثلة. ليست هذه تقنية محلية. إنها تقنية عالمية لم يتح الوقت لإتقانها إلا للمصريين.

كان عبد الله بن يوسف وكيل ترعة الجيزة منذ ست عشرة سنة. كان يشرف على الكسح السنوي لسبعة كيلومترات من الترعة الرئيسية وفروعها، وينسق عمل أربع عشرة قرية، ويفصل في النزاعات حول توزيع الماء بين الفلاحين.

في ذلك الصباح، كان مهندسان من اللجنة قد اتخذا لهما مكاناً على ضفة ترعته الرئيسية. الطويل النحيل بأدواته. والآخر ذو اليدين الملطختين بالحبر. كانا يرسمان وقيسان ويتحدثان فيما بينهما. والمترجم الذي جاء به لم يكن جيداً. كان ينقل الكلمات لا المعنى. وكان عبد الله يعرف ذلك من الطريقة التي يتردد بها أمام المصطلحات التقنية. فالمترجم الجيد لا يبحث عن كلماته.

راقبهما ساعة كاملة من الضفة الأخرى، مستتراً بين القصب الذي يحفّ بالترعة. أراد أن يفهم ما الذي يبحثان عنه. كانا يقيسان عرض الترعة وارتفاع الضفاف وانحدار القاع. كان يرى ذلك من حركات الطويل النحيل بأداة التسديد التي معه. لم يكونا جديين. فالجنود كانوا سينظرون إلى ما حولهم، لا إلى الترعة. أما هذان الرجلان فلم يكونا ينظران إلا إلى الترعة.

اقترب منه الطويل النحيل. وسأله عبر المترجم كم يوم عمل يمثل الكسح السنوي، وكم رجلاً يلزم، وكيف تُنظّم الفرق بين القرى. أسئلة وكيل.

أجاب عبد الله بعناية. كان يعلم أن هؤلاء الفرنسيين يكتبون كل شيء. وكان الطويل النحيل يدون أجوبته بسرعة تدل على أنه يفهم ما يُقال له، حتى لو تعثر المترجم. وحين شرح عبد الله نظام أدوار الكسح — كل قرية مسؤولة عن قطعة، بالتناوب على ثلاث سنوات — أو ما الطويل النحيل برأسه كما يومئ المهندسون حين يجدون ما يؤكد ما كانوا يفترضونه من قبل.

لم يكن ما يزجج عبد الله فضول الفرنسيين، بل كونهم يعاملون التربة كشيء. كشيء يمكن قياسه ووصفه ووضع في كتاب، ثم فهمه. وكان عبد الله قد أمضى ست عشرة سنة يتعلم أن التربة لا تنحصر في قياساتها. لها أمزجة. ففي سنة الفيضان العالي كانت تفيض من مواضع لم تفيض منها قط. وفي سنة الانخفاض كانت تظهر ممرات عسيرة لم يرها أحد منذ ثلاثين سنة. ولضبط ذلك كان لا بد من الذاكرة — الذاكرة التي نقلها إليه أبوه والتي سينقلها هو إلى ابنه —، لا من أدوات التسديد.

تركهم يعملون. لم يكونوا يأخذون شيئاً. ولم يكونوا يكتبون بشيء. وفي نهاية الصباح، أراه الطويل النحيل رسمه للتربة، مقطعاً عرضياً دقيقاً، بالمقاسات مكتوبة بالأرقام. نظر إليه عبد الله من دون أن يقول شيئاً. كان دقيقاً. كانت هذه هي التربة. لكن الرسم لم يكن يقول لماذا كانت الضفة اليسرى عند الكيلومتر الثالث أضعف من اليمنى، ولا كيف يُستشف من لون الماء إن كان طمي هذه السنة جيداً أم رملياً أكثر مما ينبغي. الرسم كان يُظهر التربة. أما هو فكان يعرف التربة.

دلهم، عبر المترجم، على نقطتين من التربة تكون القياسات فيهما أجدى. نقطتان أراه إياهما أبوه ولم يكن يعرف كيف يشرح أهميتهما. كان يحسّ بها، وهذا كل شيء. ذهب إليهما الطويل النحيل بلا تردد. لا بد أنه وجد فيهما ما يستحق الاهتمام، لأنه أمضى ساعتين عند كل منهما.

في أواخر فترة ما بعد الظهر، قبل أن يرحل، سأله الطويل النحيل — دائماً عبر المترجم — كم يستغرق تعلّم الوكيل. أجاب عبد الله: العمر كله. ترجم المترجم ذلك. وكان عبد الله يودّ أن يضيف أن التعلّم لا ينتهي لأن التربة أيضاً لا تنتهي من التغير، وأن حكمة الوكيل هي أن يعلم أن ما لا يزال يجهله أعظم مما يعرفه.

عاد جوليو إلى القاهرة ومعه اثنان وسبعون كيساً من الطمي وصفحات من القياسات الهيدرولوجية. كان يفكر في ذلك الوكيل الذي يتولى التربة، وفي نظرتة إليهم وهم يعملون من الضفة الأخرى، وفي دقته حين أجاب عن الأسئلة، وفي إشارته إلى النقطتين من التربة. لم يكن رجلاً يكتفي بتحمل الفرنسيين. كان رجلاً يحسب. وفكر في طريقته هو في رؤية هذا البلد: بالقياسات، وبالمقاسات، وبالمقاطع العرضية. ليست مختلفة كثيراً، في العمق.

— والرجل الذي يدير هذه التربة منذ ست عشرة سنة، ماذا قال لك؟ سأل كونتيه بعد يوم، أثناء عرض النتائج.

— قال إن التعلّم يدوم العمر كله. وإن ما لا يزال يجعله أعظم مما يعرفه.

وضع كونتيه قلمه. نظر إلى أكياس الطمي المصفوفة على الطاولة. اثنتان وسبعون عينة أخذت على امتداد أربعين كيلومتراً، موسومة ومرقمة، جاهزة للسفر إلى باريس. الأرض المصرية في أكياس من القماش الفرنسي. وفكر في الطريقة التي أخذ بها جوليو كل عينة، راکعاً على حافة التربة، وأصابه في الطمي الرطب بعد، يحسّ ملمسه قبل أن يقيسه. هذا الإحساس لن يكون في الأكياس. سيبقى هنا، على حافة التربة، في اليدين اللتين أدتا الحركة.

— إننا نفعل بأراضيهم ما نفعله بتمائيلهم، قال. نأخذ منها ما يهمنا ثم نطلق عليه اسم العلم.

لم يجب جوليو. لم يكن الفرق بين أخذ الطمي وأخذ /وشابتي واضحاً كما كان يتمنى. ففي الحاليتين، كان شيء ما يغادر مصر.

— الفرق، قال أخيراً، أن بالإمكان أخذ الطمي من دون إفقار الحقل. فالفيضان يعيده كل عام. أما التماثيل فلا يعيدها النيل.

— هذا حدّ عملي. لا أخلاقي.

صمتا. في الخارج، في الفناء، كان يُسمع صوت الخدم المصريين، والدقّ المنتظم في الهاون، وأصوات بالعربية، وكانت تفوح رائحة الكمّون. وهؤلاء الرجال أيضاً تعلموا مهنتهم عن آبائهم. لن يسافروا إلى باريس في أكياس من القماش.

بدأ كسح التربة الرئيسة في الأسبوع الثالث من ديسمبر. طلب جوليو من عبد الله أن يسمح له بالمراقبة. قبل عبد الله بوجه لا يفصح عن شيء.

كانت الفرق تعمل بحسب القرى، كل منها على قطعتها المخصصة. رجال في الماء إلى الخصر، ينتزعون الطمي من القاع بمجارف خشبية عريضة، ويحملونه في سلال مجدولة يحملها آخرون إلى الضفاف. وكان الطمي المكوّم على الضفاف سيورّع على الحقول. لا شيء كان يضيع.

بقي جوليو خمس ساعات يراقب. عدّ الرجال، وقاس حجم الطمي المستخرج في الساعة، ودوّن عمق القطع قبل الكسح وبعده. كانت الإنتاجية منتظمة. لا هدر في الحركة، ولا فوضى بين الفرق. كان هؤلاء الرجال يفعلون ذلك منذ الطفولة. وكانت لحركاتهم سلاسة ما يتعلّم مبكراً إلى حد أنه لا يعود يُميّز عن الجسد الذي يؤدّيه.

عند منتصف النهار، جاء عبد الله وجلس إلى جانبه على الضفة. نظر إلى جوليو يدوّن أرقامه بلا كلام بضع دقائق. ثم تكلم، وترجم المترجم بجمل قصيرة.

— يقول إن جدّه أراه موضعاً، أسفل من هنا، يكون فيه قاع الترعة من صخر حيّ. وحين يكون القاع من صخر حيّ، تصمد الترعة صموداً أفضل في سنوات الفيضان العالي. أبوه كان يعرف ذلك. وهو يعرفه. أراد أن يعرف إن كنتم تعرفونه. نظر جوليو إلى المترجم، ثم إلى عبد الله. لم يكن السؤال عابراً. كان يحمل، وراء الكلمات، سؤالاً آخر: هل تعرفون ما تقيسون؟

— لا، قال. لم أكن أعرف. أروني هذا الموضع.

نهض عبد الله بلا عجلة. ساروا معاً على طول الترعة عشرين دقيقة. توقف عبد الله أمام مقطع يبرز فيه القاع. صخرة داكنة، صقلتها قرون من التيار، مخططة بخطوط من الرواسب المعدنية. جثا جوليو. أخرج سكينه وكشط السطح برفق. حجر جيري متماسك. لقد حُفرت الترعة هنا تبعاً للنتوء الطبيعي. أحدهم، قبل ثلاثة آلاف سنة، اختار هذا الموضع لهذا السبب.

دَوّن جوليو الموضع، ورسم الصخرة بخطوطها. كان عبد الله يراقبه وهو يفعل. وحين انتهى جوليو، قال شيئاً احتاج المترجم إلى لحظة ليترجمه.

— يقول إن الفرنسيين يكتبون ما يفعله المصريون منذ الأزل. وربما كان ذلك نافعاً. لكن الكتابة لا تغني عن أن يكون المرء قد فعله ألف سنة.

أغلق جوليو دفتره. كان الكلام صائباً. ولم يجد ما يجيب به.

في المساء رافق عبد الله جوليو إلى طرف القرية حيث نصب الرتل الفرنسي معسكره. سارا جنباً إلى جنب دون كلام، والمترجم يتبعهما على بعد خطوات. كانت الشمس منخفضة فوق الصحراء الغربية، والضوء طويلاً أصفر على الحقول التي كشفها انحسار المياه.

توقف عبد الله. نظر إلى الحقول هنيهة، ثم قال شيئاً نقله المترجم على هذا النحو: إن في ركن الحقل الأقرب — وكان يشير إليه بإصبعه — كومة من كتل الحجر الجيري وجدها وهو ينظف القناة في الشتاء الماضي. كتل منقوشة. وهو لا يعرف قراءة العلامات. وقد وضعها هناك لأنه لم يدر ماذا يصنع بها.

ذهب جوليو إلى ركن. أربع كتل من الحجر الجيري الأبيض، في حجم الشام، مكدسة في زاوية من الضفة. كانت كل منها تحمل كتابات هيروغليفية بارزة، حسنة الصنعة. نقش إداري على الأرجح، أو صيغة نذرية، من عصر الدولة الحديثة. جاءت من معبد فُكك، وأعيد استعمالها في جدار، ثم سقطت في القناة.

رسمها جوليو. ثم دَوّنّها في سجله، مع موضعها الدقيق ووصف العلامات. وأخذ أصغر الكتل الأربع — ثلاثة كيلوغرامات، وجه منقوش وثلاثة أوجه خام — ووضعه في حقيبته الميدانية.

راقبه عبد الله وهو يفعل. لم يقل شيئاً. كان قد دلّ على الكتل لأنها بدت له مهمة، لا لأنه توقع أن تُحمل. غير أن الفرنسي رسم أولاً. وكان ذلك مختلفاً أصلاً عن الجندي الذي يأخذ دون تردد.

— سيبقى الرسم حتى لو ضاعت الكتلة، قال جوليوا عبر المترجم. وأنا أخذ الكتلة لأدرسها في باريس. وإن لم أخذها فستحملها القناة العام القادم، ولن يبقى شيء لا من الكتلة ولا من الرسم.

أصغى عبد الله إلى الترجمة وهزّ كتفيه — الإيماء العالمية لمن لم يقتنع لكنه لا يملك الطاقة للجدال — ثم عاد إلى القرية.

4 - الوقت الذي يضيق

في 8 مارس 1801 نزل نحو ستة عشر ألف جندي بريطاني في أبو قير وزحفوا نحو الإسكندرية. وكانت الحرب التي طُنَّ أن اتفاقية العريش قد حسمتها قد اندلعت من جديد. وأدرك علماء اللجنة، المجتمعون في القاهرة، أن رحيلهم عن مصر سيتوقف من الآن على استسلام عسكري.

حشد مينو قواته. لكن رجاله كانوا مبعثرين بين الإسكندرية والقاهرة وصعيد مصر. وكان تجميعهم في الوقت المناسب مستحيلاً. ودارت معركة غير حاسمة في 21 مارس قرب الإسكندرية. قاتل الفرنسيون جيّداً. لكن البريطانيين كان لديهم ستة عشر ألف رجل وسفن. ولم تكن الحرب لتُخسر في يوم واحد. كانت تُخسر منذ الأول من أغسطس 1798.

وكانت تبلغ من الشمال أنباء مقلقة: جيش عثماني كبير يتقدم بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا. عشرون ألف جندي عثماني، يعززهم المماليك. كان الطوق يضيق. وأدرك العلماء أن الاستسلام لا مفر منه. لم يعد السؤال هل، بل متى، وبأي شروط سنتنحو مجموعاتهم.

دعا فورييه إلى اجتماع استثنائي للجنة مساء 14 مارس. حضر جميع العلماء الموجودين في القاهرة. نحو عشرين رجلاً جلسوا حول المائدة الكبرى في مكتبة المجمع. وكان يُسمع في الخارج نداء التجار وهم يغلقون حوانيتهم.

— أيها السادة، بدأ فورييه، علينا أن نعدّ الدفاع عن مجموعتنا. فمعاهدات الاستسلام تنص عادة على أن للمنتصرين أن يصادروا الأملاك العائدة إلى الدولة المهزومة. فإذا عُذّت مجموعتنا ملكاً للدولة الفرنسية، كان للبريطانيين حق المطالبة بها.

ساد صمت. ثم تكلم جومار.

— علينا أن نحملهم على الاعتراف بها ملكًا علميًا دوليًا، لا ملكًا عسكريًا فرنسيًا.
 إن أعمالنا تنتمي إلى العلم الكوني، لا إلى حكومة بعينها.
 — عند البريطانيين علماء طبيعة، قال جوفروا. ومفوض اسمه هاميلتون يعرف
 الآثار. سيعرفون بالضبط ما لدينا.
 تدخل مارسيل.

— سيكون التمييز بين الملكية المؤسسية والملكية الشخصية حاسمًا. فما اشترى
 من جيبنا الخاص يمكن الدفاع عنه على هذا الأساس. أما ما جُمع باسم اللجنة
 فحمايته أصعب.

استمر النقاش ثلاث ساعات. ورسم العلماء الخطوط العريضة لاستراتيجيتهم. لن
 يعارضوا المصادرة بالقوة. فلا الوسائل لديهم ولا السلطة لذلك. لكنهم سيمسكون
 بحقوقهم أمام المفوضين البريطانيين. وسيعرضون حججهم. وسيفاضون قطعة
 قطعة إن لزم الأمر.

قضوا ليلة 15 مارس في إعداد جرد موازٍ. جرد رسمي لكل ما تملكه اللجنة، وجرّد
 شخصي لما يحوزه كل عالم باسمه الخاص. عمل مارسيل حتى الخامسة صباحًا.
 فتح سجله على الصفحة السابعة والثمانين. وأعاد قراءة القيود الأخيرة. تمثال
 صغير لأتوبيس من البرونز، ارتفاعه اثنان وعشرون سنتيمترًا، اشتراه من خان
 الخليلي في 3 سبتمبر 1799 بثمانية قروش من التاجر يوسف بن خليل. بردية
 جنائزية مجزأة، خمسة عشر سنتيمترًا في عشرين، اشتراها من فلاح في سقارة
 في 17 نوفمبر 1799 بثلاثة قروش. جعران من الستياتيت الأخضر، من العصر
 البطلمي، اشتراه من سوق الأريكية في 2 فبراير 1800 بقرش ونصف. لكل قطعة
 تاريخها. وكل صفقة يمكن التحقق منها. كانت تلك حمايته.

بلغ سجل مشترياته مئة واثنيتي عشرة صفحة، ومئة واثنين وستين قيدًا منذ أول
 سوق في الإسكندرية، قبل نحو ثلاث سنوات. وكانت كل قطعة اقتناها باسمه مدونة
 فيه بتاريخها ومكانها والتمن المدفوع، واسم البائع إن كان يعرفه. وقد ظل هذا
 السجل يُمسك منذ البداية بدقة كاتب عدل، لأن مارسيل أدرك منذ الإسكندرية أن
 هذا التمييز سيغدو ذا شأن في نهاية المطاف.

— هل يصمد هذا السجل؟ سأل فورييه وهو يقرأ من فوق كتفه.

— يصمد في ما هو مؤكد. أما الباقي فيصمد إن لم يتشدد هاميلتون. فالمفوض
 الذي يريد أن يأخذ كل شيء سيجد دائمًا ذريعة. والمفوض الذي يريد أن يكون
 معقولًا سيقبل هذا السجل دليلًا كافيًا.

— إذن كل شيء رهن بهاميلتون.

— نعم، كل شيء رهن بهاميلتون.

كانت مسألة حجر رشيد تشغل العلماء بوجه خاص. فهو أهم قطعة عثروا عليها. وإن ذهب إلى لندن صار فك رموز الهيروغليفية نصرًا بريطانيًا. لكن مارسيل كان قد اتخذ احتياطاته. فقبل عام أرسل إلى باريس نسخًا خطية من الطبقات الحجرية التي أخذها في رشيد. وقد وصلت تلك النسخ. وصارت في يد سيلفستر دو ساسي، كبير المتخصصين الفرنسيين في النصوص الشرقية. وحتى لو ذهب الحجر إلى لندن، فإن الطبقات ستبقى في باريس. ويمكن فك الرموز انطلاقًا من النسخ.

— المعلومة والشيء ليسا أمرًا واحدًا، قال مارسيل. المعلومة تسافر. أما الشيء فلا. لقد ربحنا هذه المعركة فعلاً.

وفي الأسابيع التالية انصرف العلماء إلى نسخ أعمالهم نسخًا منهجيًا. وتحولت مكتبة المجمع إلى ورشة نسخ. نُصبت طاولات على امتداد الجدران، خُصصت كل منها لنوع من الوثائق. طاوله لنسخ الرسوم بالشفاف. وأخرى لإعادة كتابة القياسات الطبوغرافية. وأخرى لنسخ النصوص القبطية. وأخرى للأوصاف النباتية والحيوانية.

كان العمل دقيقًا ومرهقًا. أشرف جوليو على إنجاز مئة وثلاث وثمانين نسخة شفافة من أهم رسومه. معابد صعيد مصر، وأهرام الجيزة وسقارة، ومقابر وادي الملوك. وكان قد جند ثلاثة رسامين شبان من الجيش يحسنون إمساك القلم وتتبع الخط. كان يريهم رسمًا أصليًا ويطلب منهم نسخة سريعة بالشفاف، الخطوط الخارجية فقط، دون ظلال ولا تفاصيل زائدة. كان لا بد أن يمر جوهر المعلومة المعمارية. أما الباقي فيمكن التضحية به من أجل السرعة.

لُفّت هذه النسخ في أنابيب من الخيزران وأودعت لدى تاجر يوناني تعهد بإرسالها إلى باريس على أول سفينة محايدة. دفع له جوليو خمسين قرشًا سلفًا ووعد به خمسين أخرى إن بلغت الأنابيب وجهتها.

— أتنق به؟ سأل جومار وهو يرى القافلة تنصرف.

— لا. لكن لا خيار لي. الحماية الوحيدة هي مضاعفة الإرساليات. فإن ضاعت واحدة، فلعل أخرى تصل.

أما جومار فنسخ من جهته جميع قياساته الطبوغرافية على مجموعة ثانية من الأوراق. واستغرق العمل منه تسعة أيام. كان يعمل في المساء على ضوء مصباح، ينسخ رقمًا رقمًا، وزاوية زاوية. وكان كل قياس يُراجع مرتين. فرقم واحد خاطئ يمكن أن يبطل سلسلة كاملة من الحسابات. وكانت دفاتره تمتلئ بأعمدة الأرقام والرسوم الهندسية والهوامش. وسُحفظ هذه النسخ بمعزل عن الأصول. فإن ضاع صندوق نجا الآخر.

لم يكن جوفروا يستطيع نسخ مرطبات أسماكه. فالعينة المحفوظة في الكحول لا نسخة لها. لكنه رسم كل عينة بدقة تكفي لكي يتعرف عالم طبيعة إلى النوع من الرسم وحده. مثنتان وأربعون نوعاً، واحداً واحداً، مع ملاحظات مفصلة عن المصدر والحجم والخصائص التشريحية المميزة. لم تكن هذه الرسوم فناً. كانت وثائق علمية، باردة، دقيقة، خالية من التعبير. لكنها احتوت كل المعلومات اللازمة لتحديد النوع. فإذا حُطمت المرطبات، أتاحت الرسوم على الأقل حفظ المعرفة التي كانت تحويها.

في 25 مارس بلغ القاهرة خبر مقتل. كان الجيش العثماني للصدر الأعظم يوسف باشا يتقدم من سوريا. وكان التحامه بالقوات البريطانية النازلة في أبو قير وشيخاً. وسُطِّق القاهرة عما قريب.

دعا فوربيه العلماء في المساء نفسه.

— أيها السادة، علينا أن نسرّع برنامج النسخ. كل ما يمكن نسخه يجب أن يُنسخ سريعاً. بعد ذلك سيكون الألوان قد فات.

اشتد الإقاع. صار العمل من الفجر حتى منتصف الليل. وكانت مصابيح الزيت تحترق بلا انقطاع. وملأت رائحة الحبر والورق الأروقة. وكان العلماء يعملون مثني مثني، أحدهما يملئ والآخر يكتب.

في 8 أبريل قطع حادث سير العمل. كان جومار ينسخ سلسلة من القياسات الزاوية المأخوذة في دندرة حين اصطدم مرفقه بالمحبرة. انسكب الحبر على الورقة. ضاعت ثلاث ساعات من العمل. نظر إلى الصفحة التالفة، والسواد الذي ابتلع الأرقام. ثم أخذ ورقة جديدة وبدأ من جديد. رقمًا رقمًا. وزاوية زاوية. رفع جوفروا، على الطاولة المجاورة، عينيه. تبادلا نظرة. دون كلام. مجرد إدراك أن العمل سيستمر مهما حدث. وسُخِّر الكتبة العسكريون للمساعدة في نسخ الوثائق الإدارية.

كانت المكتبة أشبه بغرفة نسخ في دير من القرون الوسطى. صوت الأقلام على الورق، وخشخشة الصفحات التي تُقلب، وهمسات النساخ. وأحياناً شتيمة مكتومة حين تقصد بقعة حبر صفحة كادت تكتمل. فكان لا بد حينئذ من البدء من جديد.

في أبريل أرسل جوليوا دفعة ثانية من النسخ الشفافة مع قافلة تجارية متجهة إلى الإسكندرية. ودفع من جديد خمسين قرشاً سلفاً لزعيم القافلة. كان ذلك حذراً، لا هوساً. فالسفن تغرق. والصناديق تسقط من العربات. والحرائق تدمر المخازن. واللصوص يجوبون الطرق. والحماية الوحيدة هي تعدد النسخ وتوزيع سبل الإرسال. وبالتوازي مع النسخ كان العلماء يضعون استراتيجيتهم القانونية لمواجهة المفوضين البريطانيين. وضعوا قائمة بالقطع التي سيدافعون عنها بالأولوية. حبر رشيد في الطليعة، يليه التوابيت الكبرى، والتمائيل الضخمة، ومجموعات جوفروا

الطبيعية، والمسوح الخرائطية لجومار، ودفاتر جوليو. وأعدوا لكل فئة حججًا تقوم على التمييز بين الملكية المؤسسية والملكية الشخصية، وبين الأشياء المجموعة والأعمال المبتكرة.

صاغ مارسيل المبدأ الذي سيوجه دفاعهم: دفاتر الرسم ليست غرائب، بل أدوات عمل. والطبعات الحجرية ليست آثارًا، بل ورق وحبر أنتجها العلماء أنفسهم. والأدوات العلمية أدوات مهنية، لا غنائم حرب. والعينات الطبيعية تنتمي إلى عالم الطبيعة، لا إلى دولة بعينها.

— لقد كتبوا في المعاهدات أن المنتصرين أن يصادروا الغرائب الطبيعية والصناعية، قال مارسيل. وعلينا أن نبرهن على أن أعمالنا ليست من الغرائب. إنها نتاج علمي.

— سيريد البريطانيون أخذ كل شيء، أجب جومار. ولن تكفي حججنا.

— ستصنع حججنا مناطق رمادية، قال فورييه. وفي هذه المناطق الرمادية تغدو المفاوضة ممكنة. فالمفوض المعقول سيقبل أن يترك بعض الأشياء. وهنا ينبغي أن نركز جهودنا.

— وإن لم يكن هاميلتون معقولًا؟ سأل جوفروا.

— عندئذ سنخسر كل شيء. لكننا على الأقل نكون قد حاولنا. وستبقى النسخ.

ونوقشت أيضًا المسألة الأخلاقية للسلب. ففي اجتماع في أبريل أثار جومار المشكلة التي كانت تشغل بالهم جميعًا دون أن يجرؤ أحد على صياغتها بوضوح.

— لقد جمعنا أشياء من ثلاثة أنواع مختلفة. أولاً، ملاحظات علمية. قياسات ورسوم ومذكرات أنتجناها بأنفسنا. وهذه الملاحظات ملك لنا بلا جدال. ثانيًا، عينات طبيعية جمعناها من الطبيعة. أسماك ونباتات ومعادن. وهذه العينات لا تخص أحدًا بعينه، وجمعنا لها لا يحرم أحدًا. ثالثًا، أشياء استخرجت من مواقع أثرية. مقابر ومعابد ومدافن. وهذه الأشياء كانت ملكًا لمصر. وقد أخذناها.

تدخل جوفروا.

— التمييز واضح من الناحية النظرية. أما في الواقع فهو أعقد. فالفلاحون الذين ينهبون المقابر ليبيعونها ما فيها، كانوا سينهبونها على أي حال. وما فعل وجودنا سوى أن عجل عملية كانت قائمة من قبل.

— هذه ليست تبريرًا، أجب جومار. إنها تخفيف. وليس الأمران سواء.

أما جوليو، الذي ظل صامئًا طوال النقاش، فتكلم أخيرًا.

— المسألة ليست أخلاقية فحسب. إنها عملية أيضًا. فإن سلمنا بأن هذه الأشياء تعود إلى مصر، فلا حجة لنا للدفاع عنها في وجه البريطانيين. وإن ادعيناها لنا،

فعلينا أن نتحمل ما يعنيه ذلك. لقد أخذناها. وسنحتفظ بها. وسننشر أعمالنا لتبرير هذا الأخذ. هذا هو انسجامنا الوحيد الممكن. أو ما فوربييه موافقاً.

— إن المسألة، قال فوربييه، ليست معرفة ما إذا كنا أصبنا أم أخطأنا في أخذ هذه الأشياء. فذلك نقاش أكاديمي. المسألة هي: ماذا نفعل الآن؟ هذه الأشياء بين أيدينا. والبريطانيون سيطالبون بها. هل يرى أحد منكم أن علينا أن نتخلى لهم عنها طوعاً، باسم مبادئ أخلاقية؟

لم يجب أحد. كان السؤال قد طرح، لكن الجواب كان بديهيًا. فما من عالم في هذه القاعة كان مستعداً للتخلي طوعاً عن ثلاث سنوات من العمل.

— إذن نحن متفقون، قال فوربييه. سندافع عن مجموعتنا. لكننا سنفعل ذلك ونحن نعرف لماذا نفعله. لا لأنها مجموعتنا فحسب. بل لأننا نعتقد أن العلم الفرنسي سيحسن استعمالها أكثر من العسكريين البريطانيين. أضاف مارسيل نقطة حاسمة.

— وماذا لو أحسن البريطانيون استعمالها أكثر منا؟ إن المتحف البريطاني مؤسسة جادة. وعلماءهم أكفاء. وحجتنا في التفوق العلمي لا تصمد إلا إذا نشرنا أعمالنا فعلاً. فإن انتهت مجموعتنا في صناديق في باريس عشرين سنة، كان البريطانيون محقين في أخذها منا.

— هذه نقطة مهمة، أقر فوربييه. وصف مصر يجب أن يُنشر. سيكون تبريراً لكل ما فعلناه هنا.

في 12 مايو وصل رسول من الإسكندرية. جاء ضابط فرنسي في إجازة بأخبار: لقد طلب البريطانيون رسمياً من الجنرال مينو القائمة الكاملة بالآثار التي جمعها المجمع العلمي المصري. قرأ فوربييه الرسالة مرتين. لم يعد الأمر فرضية. فالمفوضون البريطانيون سيأتون بمطالبهم المحددة. وربما كان هاميلتون قد أعد جرده بالفعل.

في مايو اتضحت الأخبار العسكرية أكثر. فالبريطانيون، بعد أن ثبتوا موقعهم في الإسكندرية، كانوا يتقدمون ببطء نحو الداخل، والعثمانيون يزحفون من الشمال الشرقي. وكان التفاوض عند القاهرة أمراً لا مفرّ منه، ولم يعد إلا مسألة أسابيع.

وضاعف العلماء جهودهم. فقد ضاق الوقت حقاً. وكان كل يوم يأتي بقيود جديدة، وبمهام عاجلة جديدة، وبقرارات جديدة لا بد من اتخاذها. ماذا ينبغي نسخه أولاً؟ وماذا يُترك؟ وكيف تُوزّع الموارد المحدودة — الورق والحبر والوقت والانتباه — على مشاريع تبدو كلها على القدر نفسه من الاستعجال؟

وفي مثل تلك اللحظات كان الفرق بين العلماء يظهر جلياً. فبعضهم كان يُصاب بالدعر ويريد إنقاذ كل شيء، فيشرع في عشرة مشاريع نسخ في وقت واحد دون أن يُتمَّ أيّاً منها. وآخرون، مثل جومار، كانوا يحافظون على منهجهم، ويضعون أولويات واضحة، ويلتزمون بها دون تشتت.

كان فوربيه يراقب ذلك كله باهتمام خاص. وكان يدوّن ملاحظات. لا عن الأشياء، بل عن الرجال. كيف يتصرف كل واحد تحت الضغط. من يحتفظ بصفاء ذهنه. ومن يفقده. ولم تكن هذه الملاحظات لتفيد يوماً في وصف مصر. لكنها ستعينه، بعد سنوات، على كتابة مقدمة الوصف بدقة: فهو لم يقس مصر فحسب، بل راقب أيضاً من كانوا يقيسونها.

في أواخر مايو، مرّ فوربيه بالمشغل بعد منتصف الليل. كانت المصابيح لا تزال مشتعلة. وكان ثلاثة نسخ يعملون في صمت، منحنين فوق أوراقهم. أحدهم ينسخ قياسات طبوغرافية، والثاني ينقل رسم معبد بورق الشفاف، والثالث يدوّن أوصافاً نباتية. توقف فوربيه عند إطار الباب. وفكر فيما يجري في تلك الغرفة. إن استولى البريطانيون على كل شيء، فهذه النسخ هي ما سيبقى. وستنجو المعلومة من الأشياء. وربما كان هذا، في نهاية المطاف، هو النصر الحقيقي.

في مطلع يونيو، دُعي إلى عقد اجتماع أخير. لم تعد الجيوش المعادية تبعد عن القاهرة إلا مسيرة بضعة أيام. وكان الاستسلام وشيئاً. وكان على العلماء أن يتخذوا ترتيباتهم الأخيرة.

أجرى جوليو الجرد النهائي لأنابيه في 20 يونيو. ثلاثة وعشرون أنبوباً من النحاس تحتوي على ألفين وسبعة وثمانين رسماً. ومئتان وسبعة وثلاثون دفتر ملاحظات. ومئة وثلاثة وثمانون نسخة شفافة أرسلت من قبل. ودوّن القائمة على ورقة طواها أربع طيّات ودسّها في سترته.

— أيها السادة، قال فوربيه، لقد فعلنا ما في وسعنا. أعمالنا منسوخة. وجرّدنا مكتمل. وحجبتنا جاهزة. سيصل البريطانيون بقوائمهم، ولدينا قوائمنا. وما سيحدث بعد ذلك رهّن بالمفاوضات. لكننا مستعدون بقدر ما يمكن أن يكون المرء مستعداً. تكلم جوليو.

— سندافع عن مجموعتنا حتى النهاية. لا كبرياء، بل لأن ثلاث سنوات من العمل لا يجوز أن تضيع في مخازن متحف بريطاني دون أن تكون قد خدمت العلم. كان التوتر محسوساً. فقد كان العلماء يعلمون أن الأيام التالية ستحسم مصير مجموعاتهم. لكنهم كانوا يعلمون أيضاً أنهم بذلوا أقصى ما يستطيعون لحمايتها.

في الأيام الأخيرة من يونيو، كانت القاهرة مدينة معلقة. القوات الفرنسية تنتظر. والعلماء ينتظرون. والسكان ينتظرون. وكان كل واحد يعلم أن شيئاً ما سيحدث، لكن لا أحد يعرف بالضبط ما هو ولا متى.

5 - هزيمة القاهرة

في 27 يونيو 1801، كان الوضع العسكري لا يُحتمل. فمينو، المحاصر في الإسكندرية، لم يكن قادراً على نجدة القاهرة. أما الجنرال بيلار، قائد الحامية، فقد فتح مفاوضات الاستسلام مع الصدر الأعظم يوسف باشا. جرى التفاوض على اتفاقية. وكان فيها بند، دُسَّ أول الأمر في المشاريع البريطانية، قد يشمل مجموع مجموعات اللجنة. وستوقع الاتفاقية في سبتمبر في الإسكندرية، وسيحمل البند الرقم ستة عشر.

كان البند قصيراً. يتألف من جملة واحدة: المخطوطات العربية والتماثيل وسائر المجموعات التي جُمعت لحساب الجمهورية الفرنسية تُعدّ ملكاً عاماً، موضوعاً تحت تصرف قادة جيش الحلفاء. هذه الجملة، التي تلاها فوربيه بصوت عالٍ لأول مرة في الجلسة الاستثنائية يوم 28 يونيو 1801، من المشروع الذي نقله البريطانيون، أعقبها صمت شبيه جوليو لاحقاً، في يومياته، بالصمت الذي يلي نبأ وفاة. ثم تكلم الجميع في وقت واحد. جوفروا. مارسيل. جومار. أصوات تعلو أصواتاً. رفع فوربيه يده. وعاد الصمت.

— سائر المجموعات، قال جوفروا. هذا يشمل قواريري. ثلاث سنوات من المجموعات الطبيعية. كامل حيوانات النيل. مئتان وأربعون نوعاً لم يصفها أحد بعد.

— وسائر المجموعات تشمل دفاتري، قال جوليو. مئتان وسبعة وثلاثون دفترًا. الرسوم المسحية الكاملة الوحيدة لمعابد صعيد مصر التي أنجزت على الإطلاق. — والتماثيل تشمل حجر رشيد، قال مارسيل. المفتاح الوحيد لفك رموز الهيروغليفية الذي عثرنا عليه منذ ثلاثة آلاف عام.

كان فوربيه قد أعاد قراءة البند. المخطوطات العربية والتماثيل وسائر المجموعات. كان يبحث عن ثغرة في الصياغة. لفظ «التماثيل» يشمل المنحوتات العملاقة والتوابيت. ولفظ «المجموعات» يشمل البرديات والعملات وقواريري جوفروا والأعشاب المجففة والعظام. أفكانت دفاتر الرسم مجموعات صنّعت لأجل الجمهورية؟ وهل يمكن عدّ دفتر عمل لفنان مجموعةً بالمعنى الوارد في معاهدة استسلام؟ وضع فوربيه النص. ثم أعاد قراءته.

حجر رشيد: لا جدال فيه. أما نسخ مارسيل المطبوعة بالحبر — على ورق وحبر صنعهما مارسيل بنفسه — فهل هي مجموعة أم عمل فكري؟

— البند غامض عن عمد، قال فورييه. كتبوا «سائر المجموعات» ليتمكنوا من أخذ كل شيء. وعلينا نحن أن نجد ما لا تشمله هذه الكلمات.

كان ذلك بداية الاستراتيجية القانونية التي ستشغل العلماء طوال الأيام الخمسة التالية. لا مقاومة عسكرية. فلم يكن لديهم سلاح، ولم يكونوا ليحسنوا استعماله. بل مقاومة نصّية. أن يجدوا في كلمات الاتفاقية الشقوق التي يمرّون منها مجموعاتهم. فالدفاتر ليست طرائف. والنسخ المطبوعة ليست آثارًا. والأدوات العلمية أدوات مهنية، لا غنائم. ولكل فئة من الأشياء خط دفاعها.

في الأيام التي تلت قراءة البند، حدث أمر غريب في الأزقة المحيطة بالمجمع. فقد بدأ تجار خان الخليلي يقتربون. لا التجار العاديون للأقمشة والتوابل. بل الآخرون، الذين يبيعون الآثار منذ سنوات، والذين يعرفون كيف يقرّؤون في حركات الزبائن الأوروبيين ما يريدون شراءه قبل أن يعرفوه هم أنفسهم.

سليمان القباني — هو نفسه الذي جاء إلى تانيس قبل عام بكيسه القماشي — حضر إلى باب المجمع صباح 30 يونيو بصندوق خشبي. وكان في داخله اثنان وعشرون *أوشابتيًا* من الحجر الجيري الملون، وخمسة جعارين من الفايئس الأزرق، وثلاث تعاويذ ذهبية من العصر المتأخر. وضع الصندوق على طاولة الحارس وقال، بواسطة فتى كان يعمل مترجمًا: «السعر المعتاد. قبل أن يأخذ الإنجليز كل شيء.» أما مارسيل، الذي كان يمرّ من هناك مصادفة، فقد تأمل محتوى الصندوق. كانت *الأوشابتي* أصيلة، من العصر الطيبي، من الأسرة الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة، من حجر جيري ملون بأصباغ لا تزال زاهية. والجعارين من فايئس جيد. والتعاويذ الذهبية حقيقية.

— من أين جاءت هذه الأشياء؟ سأله.

ترجم الفتى. وأجاب سليمان القباني دون تردد: من طيبة، من مقبرة موظف عثر عليها في الشتاء الماضي فلاحون كانوا يحفرون لتوسيع سردابهم. كان قد اشتراها. وهو يعيد بيعها الآن لأنه يعلم أن اللجنة تغادر مصر، وأن البريطانيين، وهم أقل خبرة، سيدفعون مبلغًا أقل.

اشترى مارسيل الصندوق كله. بأربعين قرشًا. وحرّر إيصالًا مؤرخًا في 30 يونيو في سجله الشخصي. وهكذا دخلت *الأوشابتي* الاثنان والعشرون في جرد مارسيل الشخصي — لا في مجموعات المجمع — وبذلك ستقلت، نظرًا، من بند المادة السادسة عشرة. وهكذا كان السوق المحلي يعمل، يستيق ثغرات المعاهدات ويتكيف معها قبل أن تُعرف.

أما ردّ جوفروا فكان مختلفاً. فهو لم يبحث عن ثغرة قانونية. بل بحث عن ميزان قوى.

كتب جوفروا إلى الجنرال بيلار رسالة من صفحة واحدة. رصينة، خالية من الغنائية. شرح فيها أن مجموعاته الطبيعية تمثل ثلاث سنوات من العمل الميداني لا نظير لها، وأن منتين وأربعين نوعاً من حيوانات النيل والدلتا لم يصفها العلم الأوروبي بعد، وأنه إن صادرها المفوضون البريطانيون فهو مستعد لإتلافها بدل أن يسلمها.

— ليس هذا تهديداً عاطفياً، قال لفورييه حين قرأ المسودة. إنها معلومة. أنا أنبئهم إلى ما سيحدث إذا طُبّق البند بحذايره على مجموعاتي.

— أيصّدقونك؟

— سأكون قد أحرقتها قبل أن يقرروا هل يصدقونني أم لا.

طوى فورييه المسودة. لم يكن جوفروا ممن يلجؤون إلى الخدعة. فقد أمضى ثلاث سنوات في هذا البلد يخرج من السرايب زاحقاً على ركبتيه، ويداه في الطين، ويحمل بنفسه قواريره المملوءة بالكحول في الحر. وكان قد فكّر في هذا التهديد قبل أن يكتبه. لم يكن اندفاعاً، بل قراراً. فلو ذهبت هذه القوارير إلى لندن لرقدت في قبو، يفتحها شخص لا يعرف لماذا يهّم *البوليتيروس* بيشير. فالأولى ألا توجد. وإن أخذت مجموعاته أحرقها. لأن ذلك هو الجواب الوحيد المتسق مع ما يراه في عمله: أنه ملكه هو، لا ملك الجيش الذي مؤله.

— أرسل الرسالة، قال فورييه.

منذ الليلة التي احترق فيها الأسطول الفرنسي وغرق في أبو قير، كان العلماء يعلمون أنهم مقطوعون عن باريس. لا سفن فرنسية في الموانئ. وكان البريد ينطلق عبر طرق برية غير مأمونة، مروراً بالقسطنطينية وفيينا، ويستغرق ستة أشهر ليصل.

ومنذ عام 1799، كان بعضهم قد بدأ يرسل الطرود على متن سفن محايدة — دانماركية وسويدية وأمريكية — ترسو في الإسكندرية لتجارة الحبوب. ولم يكن البريطانيون يفتشون هذه السفن، فهم يسيطرون على البحر لكن لا حق لهم بعدُ في الاستيلاء على سفن المحايدين.

أرسل فورييه على هذا النحو، على متن سفينة شراعية دانماركية في أكتوبر 1799، لفافة ورق تحتوي على ثلاثين ورقة من الملاحظات اللغوية عن اللغة القبطية. محاولته الأولى في وضع قواعدها. وحين عاد إلى باريس عام 1801، كانت الأوراق الثلاثون في انتظاره في المعهد، متعفنة قليلاً لكنها مقروءة.

أما مارسيل فقد تصرفت بطريقة مختلفة. ففي مارس 1800 كلف مالطياً يعرفه بإعداد نسختين خطيتين من نسخ حجر رشيد المطبوعة. لا النسخ الأصلية التي رفض أن يدعها تغادر، بل نُسخاً خطية منقولة عن النسخ المطبوعة. وصلت هاتان النسختان إلى باريس في يوليو 1800، حيث أطلع عليهما فوراً سيلفستر دو ساسي. وكانت تلك أول مرة يرى فيها مستشرق أوروبي نسخة آمنة من نقش حجر رشيد. وحاول جوليا إرسال رزمة رسوم على متن سفينة أمريكية في يناير 1800. فاعترضت فرقاطة بريطانية السفينة قبالة كريت وفشتتها. وصودرت أوراق جوليا وفُحصت ثم رُدَّت. وخلص البريطانيون إلى أنها مخططات فنية لا أهمية عسكرية لها. لكن الدرس كان واضحاً: الإرسال عبر السفن المحايدة غير موثوق. فاعتمد جوليا حينئذ طريقة مختلفة. فكل الوثائق الأساسية — أهم رسومه، ومخططات مارسيل، وقياسات جومار — نُسخَت مرتين. أصل يبقى مع العالم. ونسخة تنطلق مع أول فرصة متاحة. فإن وصلت النسخة فحسناً. وإن اعتُرضت نجا الأصل.

وقد لخص جومار المنطق في مذكرة إلى فوربيه: إن اللجنة في موقف الجنود الذين يدفنون ذخيرتهم في عدة أماكن قبل المعركة. فإن أخذ المستودع الأول بقي آخر. والوثائق هي ذخيرتهم. وثمن الاستيلاء هو خسارة عام من العمل بدل خسارة العمل كله.

نجح النسخ المزدوج في معظم الشحنات. لكن ليس في كلها. فدفتران لجوليا أرسلتا على متن سفينة سويدية عام 1800 لم يصلتا قط إلى باريس. ونجت نسختاهما. ولم يُعرف أبداً ما آلت إليه الأصول. أغرقها البحر، أم صودرت، أم ضاعت في دهاليز التجارة الشرقية.

كان هذان الدفتران المفقودان يضمّان نحو مئتي رسم لمنطقة الدلتا. مواقع سايس وبوباستيس وتانيس، التي زارها جوليا في صيف 1800 والتي لن يراها ثانية. أما نسختها، الأقل دقة، فستظهر في وصف مصر مع إشارة موجزة: عن نسخ، والأصول مفقودة.

كان ذلك الأثر العلني الوحيد لتلك الخسائر. ولم يتحدث عنها جوليا قط في مذكراته. كان هناك، وفوربيه يراه، اختلال جوهري بين ما أخذه الفرنسيون من مصر وما سيأخذه البريطانيون من الفرنسيين. فالفرنسيون أخذوا أشياء — حجارة وبرونزيات وبرديات — ونسخاً من هذه الأشياء. والبريطانيون، حين يحين الاستسلام، سيأخذون الأشياء. لكن ليس النسخ. فالنسخ ورق وحبر. ولا قيمة لها في جرد معاهدة صلح. ولا تزيّن قاعات متحف. ولا تُودع في الواجهات الزجاجية. وقد صاغ فوربيه هذا الاختلال بوضوح في إحدى جلسات المجمع:

— سيأخذون الأصول. ونحن سنحتفظ بالنسخ. النسخ هي الغنيمة الحقيقية.

قال ذلك واقفاً، أمام الصناديق، دون تردد. أما ما لم يقله — وسيصوغه بعد سنوات في ملاحظاته عن الوصف — فهو أن هذا الاختلال لم يكن عرضياً. إنه حيلة المهزوم، اتخذت قبل الهزيمة. وكانت على الأرجح الشكل الوحيد من الذكاء الاستراتيجي الذي مارسه العلماء فعلاً منذ البداية. لكنه تساءل وهو يجلس بعد ذلك: أهذا صحيح، أم أنه مجرد ما يرويه المرء لنفسه ليحتمل ما لم يستطع منعه. كانت لديهم خمسة أيام.

خمس أيام بين توقيع الاستسلام ورحيل الرتل. وهي لا تكفي، ولا أحد يقول ذلك. ما فعله هؤلاء الرجال في تلك الأيام الخمسة لم يشبه ما أعدوه. كانوا قد أعدوا حججاً — قوائم ومذكرات وفروفاً قانونية بين الطرفة والعمل، وبين الملكية الشخصية ومجموعة المجمع. أما ما فعلوه حقاً فهو أنهم عملوا دون كلام. لا جلسات. لا نقاشات. كل واحد في مخازنه، عند صناديقه. وكانت المحادثات التي جرت قصيرة وتقنية: أي حبل، وأي وزن لكل عجلة، وكم طبقة من القماش للقوارير. كانت تلك الأيام الخمسة الأكثر صمناً في الحملة.

مرّ فورييه ذات مساء بجوليوا وحدثه عن السلسلة الطويلة التي تعبر التاريخ. الرومان الذين أفرغوا مصر من مسلاتها، والصليبيون الذين نهبوا بيزنطة، والملوك الذين ملؤوا خزائن طرائفهم. لكل عصر مبرراته. أما الضحية فتبقى ثابتة. أصغى جوليوا. ولم يجب بشيء ذي بال. وانصرف فورييه. كان الحديث قد جرى لأنه كان لا بد أن يجري. ولم يغيّر شيئاً.

أما ما غيّر شيئاً فهو أنه في صباح اليوم الخامس، حين أصبحت العربات جاهزة، لم يُصدر أحد أمراً. خرج الرجال إلى الفناء من تلقاء أنفسهم، ونظّموا أنفسهم بأنفسهم، واتخذوا أماكنهم في الرتل دون أن يُطلب منهم ذلك. كانت تلك أول مرة منذ ثلاث سنوات يتصرف فيها العلماء كالجنود.

كانت رائحة خشب وصمغ وكحول تعبق في ممرات المجمع حين بدأ الرتل يتشكل في الفناء. مرّ جوليوا للمرة الأخيرة في القاعات. كانت الجدران تحتفظ بآثار المجموعات التي شغلت الطاولات ثلاث سنوات. دوائر من الغبار حيث استقرت القوارير، وخطوط من الطباشير حيث ثبتت جومار أوراق قياساته. وثقوب مسامير في العوارض حيث عُلفت الموميאות لأجل الرسوم التشريرية.

خرج جوليوا إلى الفناء. كان الرتل ينتظر. والعربات محملة. ودواب الحمل تنتفس بثقل في حرارة الصباح.

تحقق جوليوا مرة أخيرة من أن حقيبتيه مشدودتان إلى جنب الحصان الذي خُصص له.

إن مصر التي ستحتفظ بها فرنسا لا تتجاوز ما يستطيع رجل أن يحمله على سرج. أما ما أخذته فرنسا من مصر فقد بقي هناك، في الصناديق التي سيفتحها البريطانيون بعد شهرين. مرر حزام حقييته على كتفه. لن ينتظر إشارة الرتل. خرج من الفناء أولاً.

6 - المسير إلى الإسكندرية

في الثاني من يوليو بدأ إخلاء القاهرة. ثلاثة عشر ألف جندي ومئتا مدني، وجميع علماء اللجنة، يخرجون من المدينة في رتل واحد. كان بعضهم يلتفت إلى الوراق، وأكثرهم ينظر إلى الأمام.

في أواخر العصر اعترضت دورية عثمانية طريق الرتل. عشرون فارساً تركياً بالزي الرسمي، يقودهم بك يتكلم الفرنسية. كانوا قادمين من معسكر الصدر الأعظم. تقدم الجنرال داماس وحده ليتحدث. ترجل البك عن جواده. دام الحديث عشر دقائق. أما العلماء، المتجمعون في وسط الرتل، فلم يكونوا يسمعون شيئاً لكنهم كانوا يرون الإشارات. كان البك يشير إلى الشمال، وداماس يُري وثيقة، لعلها اتفاقية الاستسلام التي وقّعت مع البريطانيين.

اقترب فوربيه حتى صار في مدى السمع. سمع البك يقول بالفرنسية:

— أنتم تغادرون القاهرة، وهذا حسن. لكن صناديكم تبقى في مصر.

أجاب داماس بشيء لم يلتقطه فوربيه. فألح البك:

— هذه الأشياء ملك لمصر. لقد أخذتموها من معابدنا ومن مقابرنا. ولن تغادر.

— يا سيدي، لقد وقّعنا اتفاقية مع السلطات البريطانية. فمعهم يجب أن تناقش هذه المسائل.

أشار البك إلى فرسانه، فارفع عشرون رمحاً. لم يتحرك داماس.

— إن حاولتم إيقاف هذا الرتل فإنكم تعلنون الحرب على فرنسا وبريطانيا العظمى في وقت واحد. ولا أظن أن القسطنطينية أمرتكم بذلك.

تردد البك. نظر إلى الصناديق على العربات، وإلى ثلاثة عشر ألف جندي فرنسي منتشرين في تشكيل القتال، ثم إلى الأفق الخالي وراءه. لا مدد عثمانياً في الأفق.

عاد فركب جواده.

— سنرافقكم إلى الإسكندرية. للمراقبة.

— كما تشاؤون.

تبعّت الدورية التركية الرتل على بُعد مئة متر مدة يومين. لم يكلم الفرسان أحداً. وعند فجر الخامس من يوليو كانوا قد اختفوا. ظن داماس أنهم عادوا ليرفعوا تقريرهم إلى الصدر الأعظم.

سأل جوليو فوربيه في تلك الليلة:

— أتظنهم سيعودون؟

— العثمانيون؟ كلا. إنهم يعلمون أنهم خسروا مصر. وما يريدون معرفته هو ما إذا كنا قد أفرغناها حقاً. والآن عرفوا.

— وماذا بعد؟

— إذن سينتظرون أن يأخذ البريطانيون صناديقنا. وبعد ذلك يطالبون البريطانيون بالقطع نفسها. فذلك أيسر عليهم من انتزاعها منا. هرّ جوليو رأسه. كان منطقاً لا مفرّ منه.

كان العلماء يسبّرون في وسط الرتل وأمتعتهم على العربات. كانوا مرتاحين لنجاتهم من الخطر، حزاني لمغادرة مصر، قلقين على المجموعات.

لم يكن السير سريعاً. فثلاثة عشر ألف جندي بعرباتهم في الرمال تقدّمهم بطيء، تتخلله الاستراحات وإعادة توزيع الأحمال كلما عرجت دابة أو غاصت عجلة.

كان جوليو يمشي على قدميه في أغلب الوقت إشفافاً على حصانه. وكلما تعرّض الحيوان بحجر أو في حفرة رمل، سمع الأنابيب تصطدم اصطداماً مكتوماً داخل الحقيبتين فالتفت.

كان همّ جوفروا الأكبر الحرارة على مرطبات الكحول. فالزجاج يتمدد بالحرارة، والكحول كذلك، لكن ليس بالسرعة نفسها. وإن أحدث التمدد شراً مجهرياً تبخر الكحول وفسدت العينات في أيام قليلة. وقد لفّ كل مرطبان بطبقتين من القماش المبلول، كان مساعده يجددونهما عند كل استراحة، مستمدّين الماء من مخزونهم.

— إنك تبذّر الماء، قال له ضابط لاحظ ما يفعل.

— هذه العينات لا يمكن تعويضها. أما الماء فيمكن.

ابتعد الضابط دون أن يلحّ. ففي حرارة يوليو، ومع رجال يعانون العطش، لم تكن الحجة مقنعة. لكن جوفروا واصل.

في اليوم الرابع انزلق أحد صناديق جومار عن العربة عند اجتياز كثيب، وانفتح قليلاً في الرمل. توقف الرجال. قفز جومار عن ظهر حصانه، وأبعد الجنود الذين حاولوا مساعدته، وفحص اللفاف واحدة واحدة. كان في ثلاث منها آثار رمل خفيفة في ثنايا القماش المشمّع. ولم يتسرب شيء إلى الورق.

أعاد جومار دقّ المسامير في الصندوق، وأمر بتحميله على نحو آخر، مسطّحاً، بحبل إضافي.

— أنت محظوظ، قال فوربيه الذي شاهد المشهد كله.

— ليس هذا حظاً. إنه حبل.

عند غسق السادس من يوليو أعاد جنديان من الحرس فارّاً إلى المعسكر. شاب في العشرين تقريباً، من ليون بحسب لهجته، هرب من القاهرة قبل الإخلاء بثلاثة أيام. وجداه مختبئاً في بستان نخيل، جائعاً، قدماه تنزفان.

أمر الجنرال داماس بإحضاره إلى خيمته. وسمع فوربيه، وكان يمرّ قريباً، الاستجواب.

— لماذا هربت؟

— أردت البقاء في مصر يا سيدي الجنرال. لا العودة إلى فرنسا.

— تبقى لتفعل ماذا؟

— أن أعمل. وأنزوج ربما. هنا أستطيع أن أعيش. أما في فرنسا فأعود إلى المصنع. نظر إليه داماس مدة طويلة دون أن ينبس.

— أتعلم ما مصير الفارين؟

— نعم يا سيدي الجنرال.

— تعلم ذلك، ومع هذا هربت؟

— عمري ثلاث وعشرون سنة. قضيت هنا ثلاث سنوات. تعلمت العربية. أعرف القاهرة اليوم أكثر مما أعرف ليون. فماذا سأفعل في فرنسا؟

أمر داماس بإخراج الفارّ واستدعى مساعده. وسمع فوربيه الحكم: ثلاثون جلدة، ثم إعادته إلى الصفوف. لا إعدام. رُبط الفارّ إلى عجلة عربية. دوى السوط ثلاثين مرة. ولم يصرخ الرجل.

في صباح اليوم التالي كان يسير مع سريته، وظهره مخطط بآثار حمراء تحت القميص. وأعطاه جوفروا، وكانت له معرفة بالطب، مرهماً.

— ضعه الليلة. سيفيك من العدوى.

— شكراً يا سيدي.

— لماذا هربت حقاً؟

تردد الجندي. ثم قال:

— لأنني لا أريد أن أرى ما سيحدث في الإسكندرية. سنعطي اكتشافاتنا للإنجليز. كنت أحمل صناديق السيد جومار في طيبة. رأيت ما قسناه وما رسمناه. والآن نعطي كل شيء. فضلت أن أبقى هنا.

لم يجب جوفروا بشيء. وعاد الجندي إلى سريته.

في تلك الليلة روى جوفروا الحديث لمارسيل.

— هذا الفتى أدرك شيئاً لم يدركه بعدُ كثير من الضباط. نحن لا نعود منتصرين. نحن نعود مجرّدين مما نملك.

— لقد أدرك. ونال ثلاثين جلدَةً ثمناً لذلك.

— نعم. وهذا أيضاً ضرب من الإدراك.

سار الفارّ مع الرتل حتى الإسكندرية. وعلم فوربيه فيما بعد أنه التحق بالمشاة الاستعمارية البريطانية بعد الاستسلام. ولم يعد قط إلى فرنسا.

في السابع من يوليو هبّت عاصفة رملية على الرتل وهو يستريح في قرية من قرى الدلتا. احتذى الجنود كما استطاعوا في البيوت المهجورة أو تحت العربات المقلوبة. ولم يكن الرمل يأتي من جهة واحدة، بل من كل صوب في آن واحد، يدور من الأفق في جهاته الأربع، باحثاً عن المنافذ والأفواه المفتوحة والعيون نصف المغمضة. كان الرجال يغطّون وجوههم بمعاطفهم ويتنفسون عبر القماش. وكانت الخيول تدبر أعجازها للريح وتغمض عيونها وقد ضمّت مناخرها. أما الجمال فبركت وانتظرت، صابرة لا مبالية، كأنها تنتظر العواصف الرملية منذ الأزل، وهذا هو الواقع تقريباً.

غطّى العلماء صناديقهم بالأغطية والخيام المرتجلة، وأمضوا ساعتين في تثبيت الوقايات في وجه الريح، وأصابهم متشنجة على الأحزمة التي كانت الهبات تنتزعها. وتسلك الرمل إلى كل شيء. إلى الثياب، وإلى العيون، وتحت سدادات الفلين. كان جوليو يمسك حصانه بيد، ويتبّت باليد الأخرى غطاءً على حقيبتيه، ووجهه مدار نحو عنق الحيوان ليتنفس.

كان جوفروا ينتقل من صندوق إلى صندوق صائحاً بتعليمات تحملها الريح قبل أن تبلغ مقصدها. لقد أدرك منذ بداية المسير أن مرطبات الكحول هي نقطة الضعف في مجموعته. النقطة الوحيدة التي قد يدمّر فيها خلل مادي ثلاث سنوات من العمل تدميراً لا رجعة فيه. فأنبوب مبلول من أنابيب جوليو يعني رسوماً ممسوحة. ولفافة مغطاة بالرمل من لفائف جومار تعني قياسات يمكن استعادتها بقليل من العناء. أما مرطبان مكسور في صندوق، والكحول يسيل على بقية المرطبات، ثم يلامس فانوساً، فمعناه أن مجموعة حيوانات النيل كلها تذهب دخاناً. فأمر بإطفاء جميع

الفوانيس في دائرة خمسين متراً. وعمل الرجال في ظلام دامس، متلمسين، يتعرفون على الصناديق بأشكالها وبالطريقة التي ترنّ بها حين تُقرع بالقبضات.

أما مساعدوه، وهما طالبان شبان من مدرسة البوليتكنيك لم يحتملا حرارة الصحراء طوال الطريق، فعملاً تلك الليلة دون شكوى. كل صندوق فُحص، وكل حزام شُدّ، وكل سداة روجعت في الظلام. وحين هدأت العاصفة نحو الرابعة صباحاً، كان جوفروا ما يزال يقبض بيديه المتشنجتين على حزام الصندوق الأخير. في الصباح كانت الحصيلة: سداة منزوعة عن أنبوب من أنابيب جوليوا، وثلاث ورقات سال حبرها قليلاً، ومرطبان سمك فيه شرخ مجهري عند القاعدة. نُقلت العينات إلى المرطبان الاحتياطي الذي كان جوفروا قد حمله لهذا الاحتمال بالذات. لم يكن ذلك مصادفة. كان بُعد نظر.

في التاسع من يوليو نحو الظهر، صادف الرتل قافلة من اللاجئين الأقباط الفارين نحو الإسكندرية. نحو ثلاثين أسرة، حميرها محمّلة بالصرر، وأطفالها يمشون حفاة في الرمل، وشيوخها محمولون على محفّات ارتجالية. اقترب من داماس زعيمهم، وهو كاهن يتكلم الفرنسية.

— سيدي الجنرال، نحن نفرّ من الانتقام. منذ أن بدأ الفرنسيون يغادرون القاهرة والميليشيات العثمانية تحرق كنائسنا. نحن ذاهبون إلى الإسكندرية لنضع أنفسنا في حماية البريطانيين.

أمر داماس بتوزيع الماء. فرفضه الكاهن.

— احتفظوا بمائكم لجنودكم. عندنا آبار على بعد ساعتين من هنا. لكن قل لي، هل سيحمي البريطانيون المسيحيين حين ترحلون؟

— لا أعلم يا أبت. هذا ليس من شأني.

— كان ذلك شأنكم حين وعدتمونا بالحرية الدينية سنة 1798. والآن أنتم راحلون ونحن باقون.

لم يجب داماس. وعاد الكاهن إلى قافلته.

كان مارسيل قد سمع الحديث. فقال لفورييه:

— وعدنا بأشياء كثيرة حين جئنا. تحرير المصريين من النير العثماني. وإنهاء اضطهاد الأقباط. وتحديث البلاد. ونحن نغادر وقد تركنا مصر تماماً كما وجدناها. بل أسوأ ربما.

— لكننا نترك شيئاً مع ذلك. قياسات جومار. ورسوم جوليوا. وصف مصر سيُنشر.

— نعم. نترك كتباً. أما هم فيبقون مع الانتقام.

واصل اللاجئين الأقباط سيرهم نحو الشمال. وسار الرتل الفرنسي نحو الشمال الغربي. وافترقت المجموعتان عند مفرق في المسلك.

سأل جومار، الذي لم ينبس ببنت شفة طوال الحديث، الكاهن قبل أن يبتعد:

— كنيسةكنيسةكنيسةكنيسة القديس سرجيوس، هل احترقت؟

— لا يا سيدي. ليس بعد. لكنها ستحترق.

— كيف تعلم؟

— لأنها تحترق دائماً. كل عشرين سنة، كل ثلاثين سنة. هذا هو تاريخ مصر. أنتم كنتم عابرين فحسب.

في اليوم الثامن من المسير عبروا قرية فرّ أهلها. بيوت مغلقة، وشوارع خالية، ورائحة خبز ساخن تفوح من فرن مهجور منذ ساعات قليلة فحسب. لم يتوقف الرتل. وكان الجنود يسرون وعيونهم إلى الأمام.

ابتعد بعض الجنود عن الرتل. وبعد دقيقتين خرجوا من فناء. كان أحدهم يحمل جرّة من الفخار طولها متر. وفي داخلها قعقة شيء معدني. فاستدعاهم ضابط، وثركت الجرّة على حافة المسلك.

توقف جوليوا. ورفع الجرّة. كان فيها سبع قطع نقدية برونزية بظلمية، وثلاثة جعارين من الفخار المزجج، وتميمة وبواوت من الحجر الجيري الملون. كان ذلك الكنز المنزلي لأسرة فرّت وتركت ما لم تستطع حمله.

— ماذا نفعل بها؟ سأل جومار.

فحص جوليوا القطع النقدية واحدة واحدة، وقالبها، وأرّخها في ذهنه. بطليموس الرابع أو الخامس، بحسب الرأس المنقوش. وكانت الجعارين جيدة الصنعة. أما تميمة وبواوت فكانت من الحجر الجيري المطلي بعناية، وعيناها مخطوطتان بالمغرة الحمراء.

أعاد جوليوا القطع إلى الجرّة. ووضعها عند قاعدة جدار أقرب بيت، في الظل. حيث يجدها صاحبها حين يعود، إن عاد. وكان الموضع مقصوداً. لا على حافة المسلك حيث يلتقطها غيره، بل في حامي الجدار، في حفرة صغيرة حفرها جوليوا بكعب حدائه، كي لا تتدحرج الجرّة.

— لنواصل.

عادوا إلى الرتل. وبقيت الجرّة عند الجدار.

في اليوم الأخير قبل الإسكندرية رأوا، لأول مرة منذ ثلاث سنوات، البحر المتوسط. صاح بعض الجنود. ونظر العلماء في صمت. كان الضوء على الماء غير الضوء

على الرمل. أبرد وأكثر حركة، وزرقة متوسطة كان جوليا قد حاول رسمها عند مغادرة طولون قبل ثلاث سنوات دون أن يجد اللون الصحيح. — البحر، قال فوربيه.

لم تكن هاتان الكلمتان تقولان شيئاً بعينه. كان فوربيه يعني: والآن البريطانيون. في صباح الثالث عشر من يوليو، وعلى بعد نحو عشرين كيلومتراً من الإسكندرية، لحق بالرتل ضابطان بريطانيان على ظهور الخيل. جاءا من معسكر الجنرال هتشنسون، ومعهما أمر مهمة موقع: تفتيش الأمتعة الفرنسية قبل دخول المدينة. استقبلهما داماس بأدب جليدي.

— أيها السيدان، سندخل الإسكندرية وصناديقنا مختومة. والتفتيش يكون بعد الاستسلام الرسمي للجنرال مينو، لا قبله.

أصرّ الملازم البريطاني، وهو شاب في نحو الثلاثين اسمه ثورنتون: — لدينا أمر بالتحقق من أنكم لا تنقلون ذخائر ولا عتاداً حربياً. إنه إجراء شكلي. — إجراء شكلي سينتظر توقيع الاتفاقية. وإلى ذلك الحين لا تُفتح عرباتي. نظر ثورنتون إلى الصناديق المصفوفة على العربات. كان يستطيع أن يرى الأرقام المطبوعة على جوانبها: I، II، III ... حتى LXIII. ثلاثة وستون صندوقاً تحت الأغطية.

— أيها الجنرال، إن رفضت التفتيش فبوسعنا أن نوخر دخولكم الإسكندرية عدة أيام.

— أحرّوا. سنخيم هنا في الانتظار. تدخل الضابط البريطاني الآخر، وكان أكبر سناً: — أيها الملازم، دعك من هذا. هؤلاء علماء لا مهزّبون. وصناديقهم لا تحوي إلا حجارة ورسوماً. والجنرال هتشنسون يعلم ذلك. تردد ثورنتون، ثم أدّى التحية وانصرف مع زميله. سأل فوربيه داماس:

— أنتظهم سيعطّوننا فعلاً؟ — كلا. أرادوا أن يروا ردود أفعالنا. وأن يعرفوا هل عندنا ما نخفيه. والآن صاروا يعلمون أننا سندافع عن صناديقنا. — وهل هذا خير؟

— ذلك يتوقف على هاميلتون. إن كان مفاوضاً فنعم. وإن كان ناهباً فلا.

استأنف الرتل مسيره. وفي الحادية عشرة ظهرت أسوار الإسكندرية في الأفق. وكانت الفرقاطات البريطانية راسية في الميناء. ودخان مطابخها يرتفع مستقيماً في سماء بلا ريح.

خيّموا تلك الليلة على بعد ساعتين من الإسكندرية. كانت أضواء المدينة تُرى في الأفق. لا أشكّالاً بعد، بل بريقاً واطناً منتشراً. وفي الأسابيع الأولى من الحملة، كان مثل هذا الضوء في الأفق يعني مدينة تُؤخذ، وخريطة تُرسم، وعملاً يُنجز. أما في هذه الليلة فكان يعني هاميلتون.

أعاد فورييه، على ضوء فانوس مخفوض، قراءة الصفحات الأولى من مذكرة جومار. كانت الحجة متينة. لم تكن الحجة هي ما يطرد النوم عن عينيه، بل السؤال عما إذا كان هاميلتون يملك هامشاً للتأويل في تعليماته. فالدبلوماسي الذي تقيده تعليمات صارمة لا يصغي إلى الحجج، بل يسجلها ويرفعها إلى لندن. أما الدبلوماسي الذي يملك سعة في التصرف فقد يقتنع. ولم يكن لدى فورييه سبيل إلى معرفة ذلك قبل أن يقف أمامه.

كان جوفروا قد تفقّد صناديقه مرتين منذ نزولهم في المعسكر. كانت السدادات ثابتة. ولم يبق ما يُفعل سوى النوم. وكتب جومار في دفتره قائمة الأشياء التي ينوي الدفاع عن تصنيفها أدوات علمية، لا طرائف يجوز الاستيلاء عليها. اثنان وثلاثون بنداً. ثم أغلق الدفتر ونام.

بقي جوليو جالساً في العراء بعد أن انطفأت نار المعسكر. كانت السماء صافية. وفي حقائبه الدفاتر. وغداً البريطانيون، وهاميلتون، والمذكّرة، والنقاشات حول ما يعود إلى مَنْ وفق أيّ مادة.

دخل الرتل الإسكندرية في 14 يوليو 1801. اثنا عشر يوماً من السير منذ القاهرة. كان مينو لا يزال ممسكاً بالمدينة، يحاصره البريطانيون الذين ينتظرون استسلامه. أسكن العلماء في مخازن الميناء، وصناديقهم مكدسة حولهم. وفي الخارج كانت الفرقاطات راسية في المرسى. أما النقاشات حول المجموعات فلن تجري الآن. ستجري بعد استسلام مينو، حين يصير البريطانيون في موقع يتيح لهم المطالبة بها. وانتظروا سبعة أسابيع. كان مينو يفاوض. وكان البريطانيون يتحلّون بالصبر. وكان العلماء يحرسون صناديقهم.

الفصل الرابع: الانهيار والعودة

1 - الآثار الكبرى

في 3 سبتمبر 1801، غداة توقيع اتفاقية استسلام الإسكندرية، توجه المفوض البريطاني ويليام ريتشارد هاميلتون إلى المقر العام الذي يقيم فيه العلماء الفرنسيون، يرافقه إدوارد دانيال كلارك، عالم الآثار الذي عينه الجنرال هتشنسون لإجراء الفحص المادي للمجموعات.

كان هاميلتون سكرتير اللورد الجين، وهو في الرابعة والعشرين من عمره، تلقى تكوينه في الآثار الكلاسيكية في كامبريدج، وكان ينسق المفاوضات الدبلوماسية. أما كلارك فقد كُلف بتحديد المجموعات الفرنسية وجردها قطعةً قطعة. وصلا مع سكرتير وجنديين يحملان سجلات بيضاء.

كان جوليو وفورييه يمثلان اللجنة رسمياً في هذه المفاوضات. وكانت مهمة جومار الدفاع عن المسوح الخرائطية وأدوات القياس. وقد توقع جميع حجج الخصم.

عشية الاجتماع الأول مع هاميلتون، أعاد صياغة المذكرة التي كتبها في أبريل بعبارات قانونية. وعمل الليل كله. أن تتوقع يعني أن تستعد كي لا ترسخ لما يفرض عليك. تعلم ذلك في البوليتكنيك. وتحقق منه في مصر كلما وجب الدفاع عن قياس متنازع عليه. كانت الحجج القانونية والحجج الرياضية تخضع للمنطق نفسه: تُكسب المعركة قبل النقاش لا أثناءه. وميّزت النسخة الجديدة ثلاث فئات من الأشياء.

أولاً، الآثار بالمعنى الدقيق، وهي أشياء سابقة للحملة كان وجودها في مصر مستقلاً عن أي عمل فرنسي. فئة يجوز الاستيلاء عليها دون نقاش.

ثانياً، الإنتاجات الفكرية، من قياسات وحسابات وملاحظات ورسوم أنجزها أعضاء اللجنة. هذه الأعمال لم تكن موجودة قبل إنتاجها. ولا يمكن أن تُعامل معاملة الأشياء المعثور عليها.

ثالثاً، منطقة رمادية، هي الأدوات العلمية التي جُلبت من فرنسا. ليست آثاراً ولا إنتاجات فكرية، بل أدوات عمل يحرم الاستيلاء عليها اللجنة من قدرتها على العمل في المستقبل.

— هذه المذكرة واضحة جداً، قال فورييه حين قرأها. والسؤال هو ما إذا كان هاميلتون سيؤثر بوضوحها.

— وإن لم يتأثر، أضاف جومار، فذلك لأن تعليماته تفرض عليه تجاهل التمييزات القانونية. وفي هذه الحال لن تجدي أي حجة.

— أنت متشائم.

— لا. أنا دقيق.

ابتسم فوربيه.

دخل كلارك فناء المخزن. توقف في وسط الفناء، ودار ببطء حول نفسه، وعدّ الصناديق بنظرة دائرية. ثلاثة وستون. يضاف إليها ما لم يُغف. تماثيل وتوابيت وأعمدة مكدسة إلى الجدار الشمالي. أخرج مساعده، وهو شاب من كامبريدج اسمه جون مارتن كريس، دفترًا وشرع يدوّن. كان يدوّن كل شيء. عدد الصناديق، وأبعادها التقريبية، وحالة الحبال التي تشدها.

كان جوليو يراقب كلارك وهو يراقب المجموعات. كانت المرة الأولى التي يرى فيها بريطاني مجمل ما جمعته اللجنة في ثلاث سنوات. لم يظهر كلارك شيئاً. لا دهشة ولا رضا. كان يعدّ العدّ أولاً، ثم التقدير، ثم التفاوض.

— أيها السادة، قال كلارك وهو يلتفت إلى جوليو وفوربيه، عملاً بالمادة السادسة عشرة من اتفاقية الاستسلام الموقعة في 2 سبتمبر، أنا مكلف بتسليم المخطوطات العربية والتماثيل وسائر المجموعات التي جُمعت لحساب الجمهورية الفرنسية، وقد صارت ملكاً عاماً تحت تصرف جنرالات الجيش الحليف.

دام الصمت الذي تلا ذلك ثلاث ثوانٍ. وضع جوليو السجل الذي كان يحمله ببطء. — المجموعات بأسرها، سيد كلارك؟ أتقصد بذلك كل قطعة، وكل رسم، وكل عيّنة جمعناها طوال ثلاث سنوات؟

— هذا ما تقوله المادة السادسة عشرة.

— المادة السادسة عشرة، أجاب جوليو بصوت قاطع، تتحدث عن المجموعات التي جُمعت لحساب الجمهورية. لا عن إنتاجاتنا الفكرية. ولا عن أدواتنا العلمية. ولا عن المجموعات التي اقتناها بعضنا بماله الخاص.

فتح كلارك سجله على الصفحة الأولى. وتدخّل هاميلتون، الذي كان يقف متحجباً قليلاً، قبل أن يجيب كلارك.

— أيها السادة، قال هاميلتون، لا أحد ينكر أنكم عملتم. ولا أحد ينكر قيمة أعمالكم. لكن شروط الاستسلام واضحة. سيفحص السيد كلارك مجموعاتكم قطعةً قطعة. وستتاح لكم فرصة عرض حججكم عن كل فئة من الأشياء. سنصغي. وسنفصل بإنصاف.

تكلم فوربيه. كان صوته أهدأ من صوت جوليو، لكنه لا يقل عنه حزمًا.

— في هذه الحال، سيد هاميلتون، لنضع منهجاً للعمل. سنقترح تصنيف الأشياء في عدة فئات متميزة. وتفحصون حججنا فئةً فئةً. لن نرفض أي تفتيش. لكننا نشترط أن يكون كل استيلاء مبرراً.

أوما هاميلتون موافقاً.

— هذا معقول. سيد كلارك؟

أغلق كلارك دفتريه.

— أقبل هذا الإجراء. لكنني أنبهكم إلى أن تعليماتي صارمة. ليس لدي أي هامش لتأويل المادة السادسة عشرة بما يتجاوز ما تنص عليه صراحةً.

شبك جوليو ذراعيه.

— ونحن، سيد كلارك، لا نعتزم إطلاقاً أن ندعكم تصادرون ثلاث سنوات من حياتنا دون أن نناقش كل قطعة.

طوال الأسابيع الثلاثة التي استغرقها الصدام مع كلارك وهاميلتون، كان جومار هو من يُستدعى كلما احتاج شيء متنازع عليه إلى خبرة علمية، من خريطة أو مسح أو أداة. كان يتكلم قليلاً، ويعرض وثائقه، ويجيب عن الأسئلة باقتصاد يربك كلارك الذي اعتاد حجج الفرنسيين الأكثر خطابية. وكان هذا الدور يناسبه أكثر مما ظن. فالمفاوضة، كما اكتشف، لا تختلف كثيراً عن القياس. كان عليه أن يلتزم الواقع، وألا يتنازل عما لا يستطيع التحقق منه، وأن يعرف متى يكون الصمت خيراً من الكلام.

— زميلكم خصم شديد البأس، قال كلارك لجوليو ذات مساء. لا يتنازل عن شيء ولا يبالغ في تقدير شيء. وهذا نادر في المفاوضات.

— إنه رياضي.

— هذا واضح.

في صباح 4 سبتمبر، عاد كلارك يرافقه عدة مساعدين وبدأ فحص مجموعات المجمع العلمي. وكان هاميلتون حاضراً بصفة مراقب.

كانت الفئة الأولى التي فُحصت هي فئة الآثار الكبرى الضخمة. حجر رشيد، والتوابيت من الغرانيت والبازلت، والتمائيل الهائلة، والنقوش البارزة المنتزعة من المعابد. وبشأن هذه القطع لم يكن في وسع العلماء الفرنسيين تقديم أي حجة معقولة على ملكية شخصية، لأن هذه القطع الأثرية اكتشفتها اللجنة.

— نحن لا ننازع في حقكم القانوني على الآثار الكبرى، قال فوربيه. نريد فقط أن نحفظ التاريخ أن اللجنة الفرنسية هي التي اكتشفتها. لا الجيش البريطاني.

أوما هاميلتون موافقاً.

— أعطيك كلمتي بأن المتحف البريطاني سيقَرَّ بأن هذه الآثار اكتشفتها لجنتكم. أعدّ كلارك جرد الآثار الكبرى، وهاميلتون يصادق على كل بند في السجل. وكان جوليو إلى جانبهما يرى كل قطعة تغادر. حجر رشيد أولاً.

عثر عليه في يوليو 1799 جنود فرنسيون كانوا يحفرون تحصينات في رشيد، مدمجاً في أساسات حصن، وقد أُعيد استعماله مادة بناء. مرسوم ملكي يعود إلى سنة 196 قبل ميلادنا، منقوش بثلاث كتابات: الهيروغليفية في الأعلى، والديموطيقية في الوسط، واليونانية في الأسفل. تلك اليونانية التي كان يمكن قراءتها. وما بقي ينتظر فك الرموز.

قَيّد كلارك حجر رشيد في سجل المصادر. وسيوضع في صندوق عند النقل الفعلي.

كان مارسيل يرقب كلارك وهو يكتب في سجله. كانت الريشة تخدش الورق بصوت جاف قاطع. وكان كل حرف مسماراً في نعث. «حجر رشيد. بازلت أسود. نقش بثلاث لغات. صودر بموجب المادة 16، اتفاقية الإسكندرية، سبتمبر 1801.» لم يقل مارسيل شيئاً. كان قد أمضى في يوليو 1799، عند اكتشاف الحجر، ليلتين كاملتين مستلقياً على ظهره، رافعاً ذراعيه فوق رأسه، يرتب على ورق مبلّل ليأخذ الطباعات. بقي الألم في كتفيه أسبوعاً. وظلّت أصابعه زمناً طويلاً تحسّ حبر الطباعة الممزوج برانتج التربينتين. تلك الرائحة اللاذعة اللزجة التي لا تزول، ولو غسل يديه ثلاث مرات.

بقيت له خمس وعشرون طبعة كاملة في صندوق مسطح، محمية جيداً بين أوراق ماصّة. أما الأخرى فقد أرسلت إلى أركان أوروبا الأربعة. كان كل رمز، وكل شق، وكل اعوجاج في السطح مستنسخاً بأمانة لم يكن أمهر رسام ليبلغها. كان في وسع كلارك أن يأخذ الحجر. أما مارسيل فكان عازماً على الاحتفاظ بالنص.

كان جومار إلى جانبه يشدّ قبضتيه. كانت مفاصله بيضاء. لم يكن ينظر إلى الحجر. كان ينظر إلى كلارك.

أما فوربيه فكان يدوّن ملاحظات. كان قد شرع يحسب ما يمكن التفاوض عليه مقابل هذا التنازل الأول. خسارة هنا، ربح هناك.

كان جوليو يراقب كلارك بالتعبير المحايد للاعب شطرنج خسر للتوّ بيدقاً لكنه حافظ على خطته سليمة. كان قد قبل في ذهنه أن الحجر سيرحل. لم يعد المهم أن

يبقى الحجر. بل أن يُنقَدَ ما يمكن إنقاذه بعد. الرسوم. الدفاتر. طبعات مارسيل. مجموعات جوفروا. هناك ستدور المعركة الحقيقية. رفع كلارك عينيه عن سجله.

— سيوضع الحجر في صندوق عند النقل الفعلي إلى الميناء. وإلى ذلك الحين يبقى هنا تحت حراسة بريطانية. سيد كرييس، أقم رجلين للحراسة.

أشاح مارسيل بوجهه. لم يكن يريد أن يرى الجنود البريطانيين يقفون حرساً أمام حجر رشيد. كان ذلك تصرفاً صغيراً منه. لكنه لم يستطع منع نفسه.

هذا الحجر كان قد لمسه. كان يعرف كل نتوء فيه، وكل حبة من سطحه. كان يعرف أين يكون أملس قليلاً، حيث فركته أيد قديمة، ربما أيدي كهنة كانوا يقرؤونه منذ ألفي عام. وكان يعرف أين يكون خشناً، حيث كُسر ثم أعيد استعماله في أساسات حصن عثماني.

أغمض جوليوا عينيه لحظة. كان رجال بوشار قد عثروا عليه، وطبع مارسيل نقوشه، وسُجِّل في سجلات اللجنة. وبعد أيام قليلة سيستحوذ عليه أربعة جنود من جيش صاحب الجلالة.

لم يكن ذلك مختلفاً عما فعلته فرنسا في إيطاليا. ولم يكن مختلفاً عما فعله الرومان من قبلهم. كانت السلسلة طويلة.

ثم دَوَّن كلارك في سجله: «لوحة رشيد، بازلت أسود، سُلمت إلى القوات البريطانية، سبتمبر 1801. اكتشفتها البعثة الفرنسية سنة 1799.»

كان جوليوا يراقب. اكتشفت. لم تُؤخذ. ولم تُنزع من جدار. اكتشفت.

ثم تابوت نختنبو الثاني، آخر فراعنة مصر من أصل مصري، الذي حكم من 360 إلى 342 قبل ميلادنا. كانت البريشا الخضراء باردة. وضع جوليوا يده في الداخل في زيارته الأولى، حيث كان الجسد سيرقد. كان القاع مصقولاً، مستويًا، ناعماً كال معدن. قبر صُنِع ليستقبل ميتاً لم يأتِ إليه قط. وكان حكمه قد انقطع بالغزو الفارسي الثاني. لم يكن معروفاً أين مات، ولا إن كان جثمانه قد أُعيد. ومن المرجح أن هذا التابوت أُعد قبل فراره ولم يُستعمل قط. عُثِر عليه في الإسكندرية في مسجد كان يُستعمل فيه حوضاً. وكانت الزخرفة، على الغطاء والجدران، تستعيد مقاطع من الأموات، رحلة الشمس الليلية عبر ساعات العالم السفلي الاثنتي عشرة. وكان جوليوا قد نسخ هذه المشاهد نفسها في وادي الملوك. وأحدث فيه التعرف إليها هنا أثراً غريباً. الآلهة نفسها، والرحلة نفسها، منقوشة لملك لم يُنح له الوقت ليموت في هذا التابوت.

فحصه كلارك. وسأل عن وزنه.

— أكثر من ثلاثة أمتار طولاً، وعدة أطنان، أضاف جومار.

— وما أهميته التاريخية؟

— إنه القبر المعدّ لأخر فراعنة مصر. لم يُستعمل قط. وهو بلا شك أكثر قطع مجموعتنا كلها تأثيراً. قبر فارغ لملك هارب.

دُون كلارك في سجله دون تعليق.

وكان هناك أيضاً تمثال كاهن أعظم لأمون من الغرانيت الرمادي، بالحجم الطبيعي، يده مضمومتان أمامه في وقفة خادم الإله الأبدية، تلك التي رآها جوليو مستنسخة عشرات المرات في معابد صعيد مصر. وقبضة هائلة من الغرانيت، جزء من تمثال ملكي لم يُعثر على بقيته قط. وكان جومار قد قدر أن التمثال الكامل لا بد أن يبلغ ارتفاعه اثني عشر إلى خمسة عشر متراً. وكانت القبضة وحدها تبلغ علو كتف رجل واقف.

ثم لوحات، نقوش تذكارية من الحجر الجيري والبازلت تحمل خراطيش ملكية ونصوصاً هيروغليفية. وكان وزنها الإجمالي كبيراً.

— هذه الأشياء، أعلن هاميلتون، سُحفظ في المتحف البريطاني وتُتاح لعلماء العالم أجمع. وسُيعترف بإسهامكم العلمي. وسُكتب على البطاقات: «اكتشفته البعثة الفرنسية، وسُلم إلى القوات البريطانية عند استسلام الإسكندرية.»

حسم صباح 4 سبتمبر مسألة الآثار الكبرى. كان حجر رشيد مقبداً في السجل. وتابوت نختنبو الثاني، وتمثال الكاهن الأعظم لأمون، واللوحات، كل ذلك قُيد في سجل كلارك. أما ما بقي للدفاع عنه فهو سائر الأشياء. كان جوليو منهكاً من الأسابيع التي مضت، لكنه مدفوع بعزيمة صلبتها سنوات الحملة.

— أنا مستعد لمناقشة كل شيء. لكنني أنبّهكم إلى أنني لن أقبل أي استيلاء دون نقاش مسبق لكل فئة من الأشياء. لدينا الوقت. فالاستسلام يمنحنا أسابيع قبل الإخلاء. تدخل هاميلتون، الذي تابع الحوار صامتاً. كان يفضل مفاوضة على مواجهة فظة. سيفحص كلارك، وسيفصل في النقاط المتنازع عليها. وعرض الطرفان موقفيهما الأوليين، وحدداً نقاط الاتفاق ونقاط الخلاف، واتفقا على جدول للعمل. وهكذا بدأ أطول الجدلالات وأعقدها حول اقتسام تراث ثقافي بين أمتين.

في الفناء خلف المخزن كان حجر رشيد ينتظر تحت حراسة بريطانية. وقد تقرر ذلك في صباح واحد. ألفا عام، في صباح واحد.

في مساء 4 سبتمبر، اجتمع العلماء الفرنسيون في قاعة ملاصقة للمخزن. غرفة منخفضة السقف، فيها طاولة وبعض الكراسي المتناثرة. وفي الخارج كانت تُسمع

أصوات الجنود البريطانيين وهم يقفون حرساً. الطقطة المنتظمة للسلاح على حمائل السيوف.

طرح فوربيه السؤال الذي لم يشأ أحد أن يصوغه.

— الآثار الكبرى ضاعت. حجر رشيد، والتوابيت، والتمثيل. ينبغي الآن أن ندافع عما يمكن الدفاع عنه بعد.

نظر إليه جوليو دون أن يجيب. وتدخّل مارسيل فوراً.

— طبعاتي. هذا غير قابل للتفاوض. لدي خمس وعشرون طبعة كاملة لحجر رشيد.

— والمجموعات الطبيعية كذلك غير قابلة للتفاوض، أضاف جوفروا. خاطرت بحياتي لأجل كل عينة. كل أفعى أمسك بها في الصحراء. وكل حشرة جمعت تحت أربعين درجة. سأستلقي أمام الصناديق إن اقتضى الأمر.

تنهّد فوربيه. كان قد توقع هذا الردّ، فهو يعرف زملاءه؛ كلّ منهم مقتنع بأن إسهامه هو الأهمّ، والأجدر بالأّ يستغنى عنه.

— أيها السادة، قال وهو يزن كلماته، لنكن واقعيين. لقد ذهب القطع الكبيرة. لهاميلتون الحقّ والقوة، ولنا الصبر والحيلة. أقترح أن نركّز جهودنا على ما لا يزال قابلاً للدفاع عنه، أي ما لا يعوّض فكرياً: الرسوم، والملاحظات، والمخطوطات.

نهض جوليو فجأة، فاحتكّ كرسيه بالأرض محدثاً صريراً.

— لا.

وقف جوليو منتصباً، ويده مبسوطتان على الطاولة.

— لا، كرّر قوله. لن نضحي بشيء. سندافع عن كل شيء. كل قطعة، وكل رسم، وكل عينة. سيتعين على كلارك أن يبرّر كل مصادرة، وأن يحتج لكل واحدة منها. سنغرقه في التفاصيل والتصنيفات والاستثناءات القانونية. يريد كل شيء؟ فعليه أن يفاوض على كل شيء. قطعة قطعة.

أوما جومار موافقاً.

— جوليو على حق. إن تنازلنا منذ البداية أعطينا إشارة بأننا نقبل مبدأ المصادرة، وعندئذ سيأتي كلارك ليطالب الباقي. علينا أن نصمد في كل شيء، وألاً نتنازل إلا حين لا تعود المقاومة ممكنة.

شبك جوفروا ذراعيه.

— وماذا يعني هذا عملياً؟ أن نترك كلارك يأخذ ما تبقى من دون أن نقاتل؟

— تمامًا، قال جوليويا. نقاتل من أجل كل شيء. ونخسر ما لا بد أن نخسره. لكننا نكون قد جعلناهم يدفعون ثمن كل تنازل. سيتذكر هاميلتون أننا لم نعط شيئاً مجاًناً. كان فورييه ينظر إلى جوليويا. لقد فهم المنطق. لم تكن هذه استراتيجية انتصار، بل استراتيجية كرامة. كانوا سيخسرون، لكنهم سيخسرون وهم واقفون، بعد أن دافعوا عن كل شبر من الأرض.

— حسناً، قال فورييه. ندافع عن كل شيء. لكن نبقي منسقين. لا أحد يفالض وحده في زاويته. كل حجة تمر على هذه الطاولة قبل أن تُقدّم إلى هاميلتون. أوماً الآخرون موافقين. وتكلم مارسيل بصوت أخفض. — وإن خسرن كل شيء؟ وإن صادر هاميلتون حتى المنسوخات الورقية؟ جلس جوليويا من جديد. كان قد استعاد هدوءه.

— لن نخسر كل شيء. هاميلتون ليس ناهياً، بل دبلوماسي. لديه تعليمات، لكن لديه أيضاً حساً بالإنصاف. سيتراجع في ما يمكن الدفاع عنه قانونياً. وعلينا نحن أن نجعل حججنا لا تقبل الجدل. كان الصمت الذي أعقب ذلك موافقة. كانوا متفقين. سيدافعون عن كل شيء. معاً.

2 - المجموعات التي أنقذت

أقرّ دون عناء بأن الأدوات العلمية الشخصية للعلماء، من تلسكوبات فلكية وأجهزة ثيودوليت جيوديسية ومقاييس ضغط ومقاييس حرارة وموازين دقيقة ومجاهر، ملكية شخصية لا يجوز الاستيلاء عليها. فقد أدرك هاميلتون أن هذه الأدوات لا صلة لها بمصر القديمة، وأنها الغدة المهنية للعلماء. أما سائر الأشياء فكان البريطانيون سيناقشونها كلها بأدق التفاصيل.

في التاسع من سبتمبر، فحص كلارك المجموعات الطبيعية التي جمعها جوفروا سانت هيلير.

— سيد جوفروا سانت هيلير، قال كلارك، لقد تلقيت أمراً بفحص عيّناتكم. أرجو أن تيسروا لي الوصول إلى صناديقكم. وكان ردّ فعل جوفروا مختلفاً عن ردّ فعل جوليويا وفورييه.

— لن تمسّوا هذه المجموعات، صاح وهو يقف بين الجنود وصناديقه. لقد خاطرت بحياتي من أجل كل عيّنة. كل أفعى وكل حشرة جُمعت تحت أربعين درجة. إن تقدّمت خطوة واحدة أحرقت كل شيء.

— لقد جمعتموها بصفتكم عضواً رسمياً في اللجنة، قال كلارك. فهي إذن ملك عام فرنسي، ومن ثمّ غنيمة حرب بريطانية. هذا هو التسلسل المنطقي، ولم اخترعه أنا.

ردّ جوفروا سانت هيلير هذه الحجة.

— تريدون أن تسرقوا عملي لتُثروا متاحفكم، من دون أن تبذلوا أنتم أي جهد في الاكتشاف. سمّوا ذلك ما شئتم. أما أنا فأسمّيه سرقة.

— لا أصدّقكم، قال كلارك. لن تدمّروا عمل ثلاث سنوات.

أدرك جوفروا أن كلارك لا يصدّقه. فعبر الغرفة، وفتح أحد صناديق العيّات المجففة، وأخرج قذاحة من الصوّان والرّناد وأشعلها. كان اللهب على بُعد عشرة سنتيمترات من القشّ الجاف.

— أنا لا أذدع. خطوة أخرى وأضرم النار. ستعودون إلى لندن برمداد.

نظر كلارك إلى اللهب. كان عالم الطبيعة في التاسعة والعشرين من عمره، ويده ثابتة. فترجع خطوة إلى الوراء. كان الأفضل أن يترك جوفروا يمضي بقوارير عيّاته على أن يعود إلى لندن برمداد.

— شغفكم يفرض عليّ احترامي، قال كلارك وهو يتراجع. وإن كانت أساليبكم مسرحية. سيربح العلم الكوني إن بقيت هذه المجموعات سالمة في فرنسا.

— لقد دافعتُم جيّدًا عن مجموعتكم، قال جوليو لجوفروا سانت هيلير في المساء نفسه. فمقاومتكم الأولى خلقت سابقة ربما كان علينا أن نحتذّيها في شأن الآثار الكبرى.

— كانت الآثار الكبرى أظهر وأكثر إبهارًا. أما قوارير الأسماك عندي فلم تكن تستهوي الضباط البريطانيين. وأحيانًا يكون سوء الفهم ميزة.

كان لانتصار جوفروا سانت هيلير في مسألة المجموعات الطبيعية أثر إيجابي في سائر المفاوضات. فقد أدرك العلماء أن مقاومة حازمة مدعومة بالحجج يمكن أن تحقق نتائج، شريطة أن يحسن المرء اختيار معاركه وألا يستنزف نفسه في نقاط ثانوية.

وقد شجّعه هذا المثال، فألحّ جوليو أكثر في مسألة نشر رسوم اللجنة. وصلت إلى الإسكندرية في العاشر من سبتمبر رسالة من بونايرت، بعد ثمانية أيام من توقيع الاستسلام. كُتبت في باريس في الربيع، وقضت أشهرًا في السفر عبر البريد الدبلوماسي، بوساطة العثمانيين. تلقّاها فوريبه في أواخر الصباح بينما كان كلارك يفحص التوابيت البازلتية.

كانت قصيرة. كان بونايرت يكتب بصفته القنصل الأول، لا بصفته جنرالًا. تغيّر اللقب وتغيّرت النبذة. أثنى فيها على عمل اللجنة، وعبر عن ثقته في قدرتها على الدفاع عن المجموعات في وجه المطالب البريطانية، وأشار إلى أن وصف مصر سيُنشر بدعم كامل من حكومة القنصلية، وأضاف في السطر الأخير أن باريس تنتظر عودتهم.

باريس تنتظر عودتهم. قرأ فوربيه الجملة ثلاث مرات. لم تكن قسوة، فبونابرت لم يكن يعلم كم يكلف المرء أن يقرأ «باريس تنتظر» وهو يتأمل حجر رشيد تحت الحراسة البريطانية. ولم تكن لامبالاة أيضاً. بل كان المستقبل، كما يرى من باريس. أما الحاضر فكان هنا. وهذان الزمان لا يتخاطبان. لم يكتب بونابرت: يؤسفني ما تخسرونه من مجموعات. ولم يكتب: لكنني فعلتُ غير ذلك. كتب: باريس تنتظر. كأن كل ما جرى هنا، من سنوات ثلاث وموتى وحجر رشيد الذي سجله كلارك للتو في دفتره، لم يكن إلا مقدمة لشيء سيبدأ هناك.

طوى فوربيه الرسالة ودسها في حافظة المنسوخات الورقية الخاصة بمارسيل. ستسافر معه. لم يكن متأكداً مما سيفعله بها حين يصل إلى باريس. على الأرجح لا شيء. إذ لا يرد المرء على رسالة من القنصل الأول ليقول له إن صياغته بدت له خفيفة.

عاد إلى المفاوضات. كان كلارك قد أنهى التواييت. وطالب جوليو بحرية نشر رسوم اللجنة في فرنسا دون قيد، وهو ما كان يعني أن يُطلب من هاميلتون التخلي عن كل رقابة بريطانية على نشر صور الآثار المصرية.

تردد هاميلتون. كان هذا تنازلاً واسعاً. لكنه أدرك أيضاً أن حرمان اللجنة من حق نشر رسومها الخاصة أمر لا يمكن الدفاع عنه قانونياً ولا أخلاقياً. فوافق، واضعاً شرطاً وحيداً، هو أن تُرسل نسخة من كل لوحة منشورة إلى المتحف البريطاني لأرشيفه.

— نسخة من كل لوحة، قال جوليو. ليست هذه مشكلة. سنحتاج على أي حال إلى نسخ متعددة للتوزيع التجاري.

ضمن هذا الاتفاق نشر «وصف مصر» الجماعي، وفتح الطريق كذلك أمام «رحلة في الوجه البحري وصعيد مصر» التي سينشرها دونون عام 1802، وكان قد عاد إلى فرنسا منذ عام 1799، أي قبل أن يصبح «وصف مصر» جاهزاً، وستغدو أول نجاح كبير في النشر عن مصر القديمة.

أثارت مسألة المجموعات النباتية المجففة نقاشاً جانبياً أقلّ درامية من نقاش المجموعات الطبيعية، لكنه كاشف عن رهانات المفاوضات. فقد كَوّن علماء النبات في اللجنة مجموعات نباتية مجففة من آلاف العينات من نباتات مصر. نباتات الصحراء، وأعشاب النيل، وأصناف مزروعة في حدائق القاهرة.

أراد كلارك مصادرة نصفها. فاحتجّ علماء النبات بأن هذه المجموعات تؤلف سلاسل متماسكة، وأن تقسيمها سيقال قيمتها العلمية كثيراً. فالمجموعة المجزأة لا تتيح الدراسات المقارنة التي تتيحها المجموعة الكاملة.

تمسك هاميلتون بموقفه. ولم يكن أمام العلماء إلا أن يقبلوا.

بعد أن سُويت مسألة المجموعات الطبيعية بفضل المواجهة الدرامية التي خاضها جوفروا سانت هيلير، انتقل كلارك إلى فحص الفئة الأكثر حساسية وغموضاً: الآثار الصغيرة التي زعم العلماء الفرنسيون أنهم اقتنوها بمالهم الخاص من فلاحين أو من تجار آثار، لا باعتبارها اكتشافات رسمية للجنة.

ضمّت هذه الآثار الصغيرة مئات الأشياء المتنوعة. تماثيل جنائزية صغيرة من الخشب المطلي والخزف المزجج، وتماثيل من الأحجار شبه الكريمة، وجعارين منقوشة، وقطع من البردي، وتماثيل برونزية صغيرة، وفخّار، وحليّ، وأدوات قديمة، وقطع من المنسوجات. وكان العلماء الفرنسيون يحتجّون بأن هذه الأشياء مشتريات تجارية شخصية تمت في السوق المحلية، وليست اكتشافات أثرية رسمية. أبدى كلارك شكّه في هذا التقسيم.

— إثبات أن كل قطعة اشترت ولم يُعثر عليها سيكون مستحيلاً، قال. ومن المؤكد أنكم لم تحتفظوا بإيصالات كل مشترياتكم من السوق. أقرّ فوربيه بالصعوبة.

— لم نكن نمسك سجلات صارمة دائماً. لكن تقسيم هذه المجموعات قطعة قطعة سيستغرق أسابيع. أقترح تسوية. نختار نحن نصف الآثار الصغيرة التي نوّد الاحتفاظ بها في المقام الأول، وتأخذون أنتم النصف الآخر للمتحف البريطاني. وقبل هاميلتون هذه التسوية، مستحسناً اقتراحاً صادقاً يجنب الخلافات الطويلة العقيمة حول كل قطعة على حدة. — اقترحكم يبدو لي معقولاً. سنتصرف على هذا النحو. سيكون ذلك أسرع.

أمضى العلماء الفرنسيون الأيام التالية في اختيار الأشياء التي سيحتفظون بها، مفضلين ما له أعظم قيمة علمية توثيقية أو أعظم دلالة تاريخية. واحتفظوا خصوصاً بعدة برديات تحمل نصوصاً هيروغليفية وديموطيقية، وبسلاسل كاملة من التماثيل الجنائزية المأخوذة من مقبرة واحدة، وبمجموعات من الجعارين تحمل خراطيش فراعنة مختلفين.

أما هاميلتون فاختر من جهته أكثر الأشياء إبهاراً للنظر، مما سيفتن جمهور المتحف البريطاني. تماثيل برونزية لآلهة مصرية، وحليّ من الذهب والفضة، وتماثيل منحوتة بدقة من اللازورد والعقيق الأحمر، وفخّار مطلي رفيع الجودة.

ورغم أن هذا التقسيم حرم فرنسا من أشياء ثمينة كثيرة، فقد أتاح مع ذلك إنقاذ جزء كبير من الآثار الصغيرة التي ستعني مستقبلاً مجموعات المتحف المصري في اللوفر، الذي افتُتح عام 1827.

وطرحت مشكلة خاصة بشأن الموميאות التي جمعها العلماء. احتج هاميلتون بأن الموميאות تُعدّ بوضوح آثارًا مصرية يجوز الاستيلاء عليها. وذهب العلماء الفرنسيون إلى القول إن للموميאות قيمة علمية تشرّحية في المقام الأول لا قيمة متخفية جمالية، وإنها ستخدم العلم خيرًا إن بقيت لدى علماء الطبيعة الفرنسيين القادرين على دراستها.

وقبل هاميلتون بعد تفكير ترتيبيًا يحتفظ بموجبه العلماء الفرنسيون ببعض الموميאות الحيوانية ومومياء بشرية واحدة متواضعة الجودة لدراساتهم التشرّحية، في حين يأخذ البريطانيون الموميאות الملكية أو النبيلة الأفضل حفظًا للعرض العام.

— هذا يرضيني، قال هاميلتون وهو يغلق دفتر ملاحظاته. لقد وجدنا حلًا مقبولًا لكل فئة من فئات الأشياء.

أجاب فوربيه بجفاف مهذب لم يكن يستطيع أن يخفي ما وراءه من مرارة.

— كنا بنّائين لأنه لم يكن أمامنا خيار، سيد هاميلتون. كانت القوة في صفكم. ومع ذلك اسمحوا لي بأن أدوّن رسميًا، لأرشف اللجنة، أننا نعدّ هذه المصادرة سلبًا ظالمًا لعمل علمي فرنسي أنجز بثمن ثلاث سنوات من العمل والمعاناة.

أمال هاميلتون رأسه دون أن يرد. كان قد سمع هذا الاحتجاج مرارًا، وهو يعلم أنه سيرسل إلى باريس ويدوّن في المذكرات وربما يُنشر يومًا. لم يكن يسعى إلى محو استياء الفرنسيين، بل إلى تنفيذ تعليماته بأقل قدر من الأضرار غير الضرورية.

خُصّصت الأيام التالية للجرد العملي للآثار الصغيرة. سُجّلت كل قطعة في قائمتين متزامنتين، يمّسك إحدهما سكرتير بريطاني ويمّسك الأخرى مارسيل. وكانت مقابلة الجردين في نهاية اليوم تتيح التحقق من أن أي قطعة لم تُغفل ولم تُنقل دون اتفاق متبادل. وقد ضمن هذا البروتوكول الدقيق، على ما فيه من إملال، شفافية كافية لتجنّب المنازعات اللاحقة.

وتبيّنت مسألة المنسوخات الورقية للنقوش الهيروغليفية أشدّ إثارة للنزاع قليلًا. احتج هاميلتون بأن هذه المنسوخات تمثل نسخًا لنقوش مصرية، ويمكن بالتالي عدّها داخلة في فئة «المجموعات الأخرى» المذكورة في المادة السادسة عشرة.

فنفّض مارسيل، وقد أعدّ حجّته الدفاعية بعناية فائقة، هذا التأويل الموسّع بقوة.

— هذه المنسوخات ورق وحبر، قال. وليست آثارًا تصلح للعرض. إنها وثائق عمل لعلماء اللغة. والمتحف البريطاني لا يعرف ماذا يفعل بها. اتركوها لنا.

فكر هاميلتون لحظة قبل أن يجيب.

— ملاحظتكم ملاحظتكم. ليس هذا ما أبحث عنه هنا.

أغلق دفتره بحركة جافة.

— احتفظوا بها. نحن نملك الأصل.

أقرّ هاميلتون بمنطق الحجّة. ستبقى المنسوخات الورقية لدى الفرنسيين. كان مارسيل يعرف ذلك منذ رشيد. لقد عمل من أجله.

في ثلاثة أسابيع، أنقذت اللجنة الجوهر. وما سيجمله العلماء إلى فرنسا لا تتسع له الصناديق الكبيرة. بل تتسع له الأنابيب النحاسية والحافظات الجلدية. سيكون وزنه خفيفاً في عنابر السفينة. وسيكون وزنه أثقل في العقود المقبلة.

وسوّيت مسألة المخطوطات والملاحظات العلمية على نحو أكثر ملاءمة للفرنسيين أيضاً. أقرّ هاميلتون دون عناء بأن هذه الوثائق أعمال فكرية شخصية متميزة تماماً عن الآثار المصرية المادية، وأنه لا يجوز بالتالي الاستيلاء عليها كغنيمة حرب.

في الخامس عشر من سبتمبر، طلب هاميلتون فحص كل الرسوم التي أنجزها جوليو وزملاؤه الفنانون أثناء الحملة. فقدم جوليو دفاتره.

— سيد هاميلتون، هذه الرسوم لم تكن موجودة قبل أن أخطأها. أما التمثال الفرعوني فكان موجوداً بدوني. ورسومي لا وجود لها إلا لأنني أبدعتها. ومصادرة عمل فني شخصي ليست استيلاءً بأمر، بل سرقة.

تفحص هاميلتون الرسوم طويلاً.

— رسومكم عملكم، وليست آثاراً. احتفظوا بها. وسأطلب فقط نحو خمسين نسخة للمتحف البريطاني. أما الأصول فتبقى لكم.

اختار جوليو بنفسه النسخ التي سيسلمها. ووضع يديه على دفاتره، وعيناه مطرقتان. وكان ذلك كل شيء.

كادت مسألة العملات القديمة تعيد فتح نزاع كان يُظنّ أنه حُسم. فقد كان علماء اللجنة يملكون مجتمعين عدة مئات من القطع النقدية الإغريقية والبطلمية والرومانية جُمعت من مواقع في الدلتا ووادي النيل. وطالب بها هاميلتون بوصفها آثاراً يجوز الاستيلاء عليها. واحتجّ العلماء بأنها مقتنيات شخصية اقتُنيت لمجموعاتهم النقدية الخاصة.

— كل قطعة اشتراها عالم، قال مارسيل وهو يُخرج دفترًا دون فيه، ببُعد نظر مذهل، كل عملية اقتناء على حدة مع ثمنها وتاريخها واسم البائع. وهذه السجلات تثبت الطابع الخاص لهذه المقتنيات.

تفحص هاميلتون الدفتر باهتمام. كان مسك هذا السجل سابقاً للمفاوضات بوضوح. ولا يمكن أن تكون وثيقة مصطنعة لخدمة القضية. فقبل الحجّة وترك العملات

للعلماء، باستثناء نحو خمس عشرة قطعة لافتة وافق مارسيل على التخلي عنها له مقابل تسهيلات نقل إضافية للصناديق الأضخم.

وكان هذا النوع من التسويات الصغيرة العارضة سمة منهج هاميلتون: صلب في الخطوط العريضة لتعليماته، ومرن في التفاصيل الثانوية.

علم جوليا بهذا القرار، فشعر بالامتنان دون أن يُظهره. وذكره هذا الحادث بأن هاميلتون، رغم صرامة مهمته، كان يحتفظ بحسّ الإنصاف الذي يميّزه عن المصادريين الفظين الذين خشبهم في بداية المفاوضات.

— أفضل أن أخطر بإفلات بعض القطع على أن أرسى سابقةً في التعسف. إنّ مصداقيتنا في هذه المفاوضات قائمة على حيادنا. فإن ظنّ الفرنسيون أننا نصادر الممتلكات خارج كل قاعدة، فقدنا تعاونهم فيما بعد.

3 - أخلاقيات السلب

في صباح السابع عشر من سبتمبر، خرج جوليا وحده إلى الإسكندرية. لم يكن لديه ما يرسمه على وجه الخصوص. كان يريد أن يمشي. لقد دامت المفاوضات أربعة عشر يومًا. وسُوّق المحضر بعد أيام قليلة. وبعد ذلك لن يبقى شيء يُدافع عنه.

عبر حيّ التجار دون أن يتوقف. كانت المدينة تواصل حياتها. هذا ما كان يلفت نظره أكثر من أي شيء. أن المدينة تمضي كأن شيئاً لم يحدث. النساء عند الأبار. البغال في الأزقة الضيقة. رائحة الخبز الساخن والياسمين.

توقف أمام دكان مجلّد كتب. كان الرجل يعمل على عتبة بابه، يخطط الكراريس بعناية بطيئة، عناية من تعرف يده الحركة منذ الطفولة. رفع عينيه إلى جوليا، ثم أعادهما إلى عمله دون فضول يُذكر. فرنسي آخر. لقد رأى منهم الكثيرين طوال ثلاث سنوات. وسيرى غيرهم. عثمانيين وإنجليزًا ومماليك. كانت للمدينة إيقاعاتها الخاصة، مستقلة عن الجيوش التي تعبرها.

راقبه جوليا وهو يعمل. الأدوات البالية، والحركات الآلية، والمنضدة التي صقلتها سنوات الاحتكاك. كانت رائحة الغراء المسخن في وعائه تعبق في الشارع. حلوة، لاذعة قليلاً. هذا الرجل يفعل ذلك منذ زمن طويل. الجيوش تتبدّل، والدفاتر تبقى.

لم يكلمه جوليا. وبلا مترجم، ظلّ يتأمله وهو يعمل قبل أن يتابع طريقه إلى الميناء. كانت السفن البريطانية هناك، في المرسى، تنتظر. وكانت الصناديق تتكدّس على الأرصفة. سُرّسل الآثار الكبرى بعد أسبوع. وسيرحل هو بُعيدها، على إحدى هذه السفن. في حقائبه دفاتره. وفي صناديق الإنجليز حجر رشيد وتابوت نختنبو الثاني.

فَكَرَّ في المجلَّد. كان المجلَّد يصنع الدفاتر. وهو كان يملؤها. سنذهب الدفاتر إلى باريس، والصناديق إلى لندن. وبعد مئة عام — بعد مئتي عام — سيفتح أحدهم هذه الدفاتر ويرى مصر كما كانت في عام 1801. أعمدة معابد ومقابر ملكية، لكن لا المجلَّد ولا الشارع. هذا ما اختار جوليو أن يرسمه. أما ما تركه جانباً — المدينة اليومية، والناس العاديون، وعمل اليدين — فلن يكون في أي مكان.

رسم الميناء والأرصفة والسفن الراسية في المرسى. ثم رسم، في زاوية الصفحة، من الذاكرة، يدي المجلَّد على كرَّاسه. لم يكن يعرف السبب. ذلك أن هاتين اليدين لن تذهبا إلي أي مكان. ستبقىان هنا، في هذا الشارع، تصنعان الدفاتر. كانتا تستحقان خطأ على الأقل.

تفحص الرسم. اليدان السريعتان الواثقتان، بالجلد الغليظ في مواضعه الصحيحة. يدان لم تغادرا هذا الشارع قط. ولم تكن بهما حاجة إلى مغادرته. هاتان اليدان كانتا تعرفان ما تفعلان. حركة تُعلِّمت باكرًا حتى صارت هي الجسد نفسه. فَكَرَّ في يديه المتسختين بالحبر. وفي عبد الله بن يوسف الذي كان يعرف القنَّاة بغير القياسات. وفي الصانع القبطي الذي كانت يده تعرفان البردي. هذه الأيدي لن تُشحن في أي صندوق. ستبقى هنا، تفعل ما كانت تفعله دائمًا.

في مساء ذلك اليوم، بعث إليهم هاميلتون برقعة. كان يطلب أن يتناول العشاء معهم في الغد، دون كاتب. أطلع جوليو فوربيه على الرقعة.

— إنه يأتي وحده، قال فوربيه. دون كاتب.

— وهذا يعني أنه يأتي رجلًا، لا مفوضًا.

وضع فوربيه الرقعة. كان يعرف هذا النوع من المبادرات. أن تأتي إلى بيت الخصم دون كاتب ودون بروتوكول. هذا ما يفعله من يريدون قول شيء لا يستطيعون كتابته في تقرير. سيقبل باسم الجميع.

في مساء الثامن عشر من سبتمبر، حضر هاميلتون إلى منزل الفرنسيين كما اتفق. كان وحده.

كانت المائدة بابًا موضوعًا على حاملين خشبيين. خبز وجبن ماعز وزجاجة نبيذ محلي لم يحكم عليها أحد. كان فوربيه هناك، وجوفروا، ومارسيل. في الخارج كان الجنود يحملون الصناديق على العربات. كان يُسمع الخشب يحناك بالخشب.

أكلوا برهة دون كلام. كان هاميلتون هو من طلب المحيي. وكانوا ينتظرون أن يعرفوا السبب.

— تابوت نختنبو الثاني، قال أخيرًا. ذاك الذي درستموه هنا في الإسكندرية. سيُنقل غدًا إلى الميناء. أردت أن أقول لكم ذلك وجهًا لوجه.

وضع جوليو كأسه ببطء. كان تابوت نختنبو من حجر البريشيا الأخضر، يزيد طوله على ثلاثة أمتار، مغطى بنقوش من الأمدوات. وقد قضى يوماً كاملاً في رسمه. كان يتذكر الضوء على البريشيا. لا انعكاساً، بل امتصاصاً، كأن الحجر يحتفظ بالضوء لنفسه. وكانت الكتابات الهيروغليفية منحوتة بدقة ما زالت تتيح، بعد عشرين قرناً، تمييز ريش الطيور ومفاصل الأفاعي. لقد وهب هذا العمل يوماً كاملاً.

— هذا التابوت، قال فوربيه، كان في الإسكندرية قبلنا. كان العرب قد أعادوا استعماله حوضاً لنافورة. نحن من أخرجه من هناك. ونحن من درسه.

— أعلم. نحن أيضاً وجدناه نافورة، في محفوظاتنا عن رحلة بوكوك. وهذا أحد الأسباب التي دعنتني إلى إخباركم. لستم أول من نقله من مكانه.

في الخارج، ارتطم صندوق بأخر. وشتم أحدهم بالإنجليزية.

— أتعرف ما يزعجني، قال جوليو. ليس أنكم تأخذونه. بل أنه بعد مئة عام سيضطر مصري إلى المجيء إلى لندن ليرى تابوت أحد فراعنته.

كان هاميلتون ينظر إلى كأسه. وكان فوربيه يراقب هاميلتون وهو ينظر إلى كأسه.

— إن وُجد بعد مئة عام مصري يريد أن يرى هذا التابوت، قال هاميلتون، فذلك لأن أحداً سيكون قد علمه ما هو. وهذا الشخص سيكون على الأرجح قد اشتغل انطلاقاً من رسومكم ومقاييسكم. لا من الحجر.

— هذا ليس جواباً. إنه تبرير.

— نعم. كما هي كل الأجوبة التي نعطيها لأنفسنا عما نفعله هنا.

لم يأكل أحد برهة. كان مارسيل يملأ كأسه بالدقة التي يضعها في كل ما يفعله.

— هذا التابوت، قال مارسيل دون أن يرفع رأسه، كان قد انتقل من يد إلى يد قبل العرب. لم يستقبل جثمان نختنبو قط، وانتهى به الأمر في الإسكندرية. صُنِعَ منه حوض استحمام. وحُوِّلَ العرب إلى نافورة. ونحن قسناه ورسمناه. وأنتم ستعرضونه. لكل عصر طريقته في تملك مصر.

— ومصر نفسها ليس لها أن تقول كلمتها.

كان جوفروا ينظر إلى السقف.

— ليست مصر هي التي دعتنا.

كان الحديث قد مسَّ للتو شيئاً لم يتوقعه هاميلتون. فكَرَّ في تعليماته، مصادرة الآثار، والحفاظ على الإنصاف. لم تكن تعليماته تتحدث عن المصريين. لم يخطر لأحد أن يُدرجهم فيها. لم يردَّ على جوفروا. لم يكن ذلك وقاحة. كان صدقاً.

— لو تكوّنت مصر يومًا أمةً، وطالبت بممتلكاتها، تابع فوربييه، فماذا سيجيب المتحف البريطاني؟

— لن أكون أنا من يجيب. سيكون شخصًا آخر، في ظروف أخرى. لا أستطيع أن ألزم القرن المقبل.

دوّن فوربييه هذا الجواب. كان صادقًا. وكان أيضًا غير كافٍ. لكنه كان كل ما يستطيع رجل في موضع هاميلتون أن يقوله تلك الليلة.

بعد بضع سنوات، في ملاحظاته لمقدمة وصف مصر، سيعثر على هذه العبارة. لن يضعها فيها. كانت شخصية أكثر مما ينبغي، مرتبطة بأسمية لم يكن لها شاهد رسمي. لكنه سيفكر في هاميلتون وهو يكتب مقدمة وصف مصر.

نهض هاميلتون أولاً. شكر على العشاء. وعند الباب توقف.

— إن أراد عالم فرنسي أن يفحص التابوت في لندن، فسأسهّل له الوصول.

راقبه جوليو وهو يغادر. في الخارج واصل الجنود التحميل. كان ليل الإسكندرية يدخل من النافذة. أصوات بالعربية، وكتب، ورائحة الميناء.

— لقد سلّم لنا بكل ما قلناه له، قال مارسيل. ومع ذلك أخذ التابوت.

في صباح اليوم التالي، حين عبر جوليو الفناء، لم يكن تابوت نختبو هناك. وفي مكانه أثر مستطيل في الرمل.

في الثاني والعشرين من سبتمبر، باكراً في الصباح، قدم تاجر مصري إلى أبواب المستودع وطلب أن يتحدث إلى هاميلتون.

كان اسمه محمود الطويل. كان يملك دكان آثار في الحي القبطي بالإسكندرية، على بعد شارعين من الميناء. وكان ابنه البالغ خمس عشرة سنة يرافقه وسيتولى الترجمة. توقف جوليو، الذي كان يمرّ في الفناء لحظة وصولهما.

استقبلهما هاميلتون في الغرفة التي كانت تتخذ مكتباً له. طاولة، وأربعة كراسي، وأكوام المحاضر التي كان الكاتب يصنّفها منذ أسبوعين. وضع محمود الطويل على الطاولة قطعة ورق مطوية وانتظر حتى يترجم الابن.

كان يزعم أن عدة تماثيل صغيرة مدرجة في حصة الآثار الصغيرة البريطانية سرقت منه على يد جنود فرنسيين عام 1798. وكان يطلب بردها.

— يقول إن أباه كان قد اقتنى هذه القطع من أبيه، ترجم الابن. كانت في العائلة منذ ثلاثة أجيال. أخذها الجنود من الدكان في الأسبوع الأول من الاحتلال. وعنده شهود.

أصغى هاميلتون. نظر إلى الورقة المطوية. قائمة من ثمانية أشياء موصوفة بالعربية، بحواشٍ بالقروش، هي الأثمان التي دفعها الأب عند اقتنائها. طلب أن

يرى اليهود. خرج الابن وعاد برجلين من الحي نفسه، أكّدا أن محمود الطويل كان يملك هذه الأشياء فعلاً قبل وصول الفرنسيين.

كان جوليو قد اقترب من الباب. عرف وصف أحد التماثيل: تمثال صغير من البرونز يمثل أوزيريس واقفاً، ذراعه متقاطعتان، يبلغ ارتفاعه نحو عشرين سنتيمتراً. كان قد رسمه. لا عند هذا الرجل — بل في صندوق مفتوح في المعسكر، عام 1798، في الأيام الأولى. لم يسأل من أين جاء.

— لا أستطيع أن أردَ إليك هذه الأشياء، قال هاميلتون. إنها جزء من مصادرة رسمية أقرتها معاهدة الاستسلام. وإجراء الرد الفردي في هذا السياق معقّد قانونياً إلى حد يستعصي على الحل.

ترجم الابن. أصغى محمود الطويل دون أن يتغير وجهه. وطرح سؤالاً قصيراً.

— يسأل: من يملك هذه الأشياء الآن؟ الإنجليز أم الفرنسيون؟

— الإنجليز. هي في صناديق المصادرة البريطانية.

سؤال قصير آخر.

— يسأل إذن: لماذا لا يستطيع الإنجليز ردّها، ما دامت عندهم؟

أخذ هاميلتون وقته في صياغة جوابه. لم يكن ذلك سوء نية. كان حقيقة نظام لم يُصمّم لهذا النوع من الأسئلة.

— لأن هذه الأشياء أصبحت الآن جزءاً من مصادرة دولة، تنظّمها معاهدة دولية. والحقوق الفردية، ولو كانت مشروعة، لا يمكن معالجتها في هذا الإطار. فذلك يعني فتح إجراء لا ينتهي.

ترجم الابن. أصغى محمود الطويل، وأوماً برأسه مرة واحدة، وقال شيئاً.

— يقول إنه يفهم. ويقول: سجّلوا اسمي مع ذلك.

سجّل هاميلتون. كتب الاسم والعنوان ووصف الأشياء الثمانية وأسماء الشاهدين. ووقع الصفحة وسلم محمود الطويل نسخة منها.

أخذ التاجر الورقة وطواها بعناية ودسّها في جيبه. شكر بلا حرارة وخرج مع ابنه. وفي الفناء توقف لحظة ونظر إلى الصناديق المكدّسة إلى الجدار. لم يقل شيئاً. ثم عاد إلى المدينة.

بقي جوليو في إطار الباب. كان يفكر في تمثال أوزيريس البرونزي. وفي صفحة دفتره التي رسمه فيها. سيذهب التمثال إلى لندن. وسيذهب الرسم إلى باريس. وسيبقى اسم محمود الطويل في سجل بريطاني لن يعثر عليه أحد على الأرجح أبداً. كل ذلك مدوّن. ولن يُردّ شيء منه.

كان هناك ضحايا حقيقيون، وملاك جردوا من ممتلكاتهم، ومطالبات مشروعة لم تكن فرنسا ولا إنجلترا في وضع يتيح لها معالجتها بإنصاف.

في مساء الثاني والعشرين من سبتمبر، وُقِعَ المحضر النهائي في فناء المستودع. كانت قد نُصبت مائدة في الفناء، في المكان نفسه كما في الأسابيع السابقة، تحت المظلة القماشية نفسها التي كانت شمس سبتمبر قد أبهتت أطرافها السفلى. وضع كاتب هاميلتون نسختي الوثيقة جنباً إلى جنب، إحداها محررة بالفرنسية والأخرى بالإنجليزية، لكل منهما ملاحظتها المرقمة. اثنتان وعشرون صفحة لكل نسخة. صفت الكاتب الأقلام والمحابر وخاتم الشمع. كان يفعل ذلك بالناية الدقيقة لمن يعلمون أن عملهم سيُحفظ في الأرشيف.

وصل هاميلتون أولاً، ومعه ضابطان شاهدان. مثل فوربيه الفرنسيين مع جوليو. وكان جومار حاضراً أيضاً، في الخلف، دون صفة رسمية، لكنه أراد أن يرى. وُقِعَ هاميلتون أولاً. هكذا كان البروتوكول يقتضي. فالطرف الذي فرض شروطه يوقّع قبل غيره. فعل ذلك دون تردد، بحركة من وقّع كثيراً من الأشياء في بلدان كثيرة.

تناول فوربيه القلم. أمسكه لحظة دون أن يكتب. لم يكن ذلك تردّداً بالمعنى الدقيق، فالقرار كان متخذاً منذ زمن بعيد، ولم يكن هناك بديل. كان شيئاً آخر. الوقت الذي تستغرقه اليد لتقبل ما قبله العقل مسبقاً. وقّع. وجفّ الحبر سريعاً في حرارة المساء. ثم وقّع جوليو. وختم الكاتب النسختين بشمع الطرفين، أحمر للبريطانيين، وأزرق للفرنسيين. وترك كل ختم أثراً واضحاً في الشمع الطري. وكان صوت الختم على الشمع مكتوماً، نهائياً.

عدّ جومار الملاحق آلياً. اثنتان وعشرون صفحة، أربع وأربعون صفحة في المجموع. وفي هذه الأوراق قائمة الآثار الكبرى التي صادرها البريطانيون، وقائمة المجموعات العلمية المعترف بها للفرنسيين، وبنود الاطلاع المتبادل، وضمانات النقل. أرقام وأوصاف وفئات. لم يكن في هذه الصفحات ما يقول كم يزن تابوت نختنبو، ولا كم استغرق اليوم الذي رسمه فيه جوليو.

سُلِّمت النسختان إلى الطرفين. دسّ هاميلتون نسخته في حقيبته دون أن ينظر إليها أكثر. وأمسك فوربيه نسخته برهة بين يديه، كأنه يقدر وزنها. كان التقسيم قد دُوّن. ما كان في لندن فهو في لندن. وما كان في باريس فهو في باريس. وما بقي هناك، في هذه الأزقة وهذه الأسواق وهذه ورشات الحفر، فلم يكن ملكاً لأحد من هذا الجانب من المائدة.

لم يقل أحد شيئاً لبضع ثوانٍ. ثم تتنح أحد الضباط البريطانيين، وتحرك الجميع في وقت واحد.

أدلى هاميلتون بملاحظة أخيرة وجدها جوليو سديدة في صياغتها. — ما فعلناه هنا ستحكم عليه الأجيال القادمة حكماً مختلفاً. لا أعلم إن كان هذا الحكم سيكون في صالحنا. لكننا حاولنا على الأقل أن نفعل ذلك بشيء من الإنصاف. لم يجب جوليو. كان مرهقاً أكثر من أن يخوض في الفلسفة. لكنه دون العبارة في دفتره مساء اليوم نفسه، مع التاريخ والسياق. ولن ترد في أي كتاب منشور.

4 - الوداع

بعد أن انتهت جميع المفاوضات المتعلقة بتقاسم المجموعات، قضى العلماء الفرنسيون والمفوضون البريطانيون الأيام الأخيرة من سبتمبر في تغليف الأشياء التي سُنقل إلى وجهاتها المختلفة.

من الجانب البريطاني، كانت الآثار الكبرى مسجلة في السجل منذ الرابع من سبتمبر. ولم يكن على رجال كلارك سوى وضعها في الصناديق والتحقق من الأحزمة والاختام. وفي فناء المستودع، كانت الصناديق وحجر رشيد والتوابيت والتمائيل على عرباتها تنتظر التحميل دون أن يفتحها أحد من جديد. فما حُسم في المفاوضات قد حُسم. ولم يكن هناك ما يُعاد فتحه.

كان جوليو يراقب هذه الاستعدادات في صمت، وفي نفسه مشاعر مختلطة من المرارة والاستسلام. كان يعلم أن هذه القطع ستذهب إلى لندن بلا رجعة، وأنه لن يراها ثانية ما دام حياً. لكنه أنقذ على الأقل رسومه التي ستحفظ بصرياً ذاكرة تلك الآثار، وإن ضاعت القطع المادية على فرنسا.

وفي 24 سبتمبر جاء هاميلتون ليشكر جوليو وفورييه على تعاونهما النسبي أثناء المفاوضات.

أما العلماء الفرنسيون فقد عبّوا من جانبهم المجموعات التي نجحوا في إنقاذها. وأعدّ كل عالم جرّداً مفصلاً بكل ما يحمله معه، فأحصى بدقة كل قطعة وكل مخطوط وكل رسم.

وفي 25 سبتمبر أُجري تفتيش أولي تحت إشراف مشترك من ضابط بريطاني وفورييه. فُتح كل صندوق، وتم التحقق من محتواه بمقارنته بالجرّد، ثم أُعيد إغلاقه.

وفي مساء 26 سبتمبر كانت جميع استعدادات التعبئة قد انتهت. وكان العلماء الفرنسيون مستعدين للإبحار عائدين إلى فرنسا بمجرد أن تتوافر السفن البريطانية.

وفي الساعات الأخيرة من يوم 26 سبتمبر جمع جوليو مساعديه لإجراء تحقق نهائي. أمر بفتح كل أنبوب معدني يحوي رسوماً وإعادة فحصه، وتأكد من إحكام السدادات ومن خلّو الأنابيب من أي شقوق. وفعل الشيء نفسه مع حزم الأوراق

وعلى الملاحظات وحافظات النسخ المطبوعة بالتنقيش. كل ما ستحملة اللجنة إلى فرنسا كان يتسع لبضعة صناديق ويضع لفائف نحاسية. كان ذلك قليلاً لأكثر من ثلاث سنوات من العمل. لكنه كان كل شيء.

— ألم ننس شيئاً؟

— لا شيء جوهرياً. آلات القياس في الصندوق رقم ثلاثة. ودفاتر الرفع المعماري في الصندوق أربعة. ورسومك في الأنابيب من واحد إلى ثلاثة وعشرين. ونسخ مارسيل المطبوعة بالتنقيش في الحافظات. وسجلات المجمع في الصندوق خمسة. نظر جوليو إلى الأنابيب المعدنية. كانت في داخلها، ملفوفة ومثبتة بورق قطني، اللوحات التي تمثل مصر القديمة كلها، تلك التي عبرها الجيش، وقد اختزلت إلى خطوط وتهشيرات على ورق سميك. وكان هذا الورق قد صار أثمن من الآثار نفسها، لأنه قابل للاستنساخ إلى ما لا نهاية بالحفر، وقابل للانتقال عبر الزمان والمكان.

وفي الليلة الفاصلة بين 26 و 27 سبتمبر ظل جوليو جالساً في غرفته، والأنابيب المعدنية مصفوفة إلى الجدار عن يساره، يعمل على إعداد فهرس رسومه، وهو قائمة أبجدية وموضوعية بجميع الآثار الموثقة، مصنفة بحسب الموقع والعصر والطرز المعماري.

وكان هذا الفهرس، الذي أنهاه نحو الرابعة صباحاً، أول جنول لمحتويات ما سيغدو وصف مصر. وقد أحصى فيه ألفين وسبعة وثمانين رسماً تغطي مئة وستة وثمانين موقعاً مختلفاً، من جزيرة فيلة في الجنوب إلى الإسكندرية في الشمال. وكان يدون لكل رسم ما إذا كان منظرًا عامًا أم تفصيلاً معمارياً أم نقشاً أم تصويراً لشخص. وعند الفجر أغلق الفهرس ووضعه في الأنبوب رقم واحد مع أثمن دفاتره. كان قد استعد. كانت مصر في الأنابيب. وصار بوسعه أن يرحل. ونفخ في المصباح فأطفأه. وضع الختم النهائي على الصناديق في 27 سبتمبر عند العاشرة صباحاً. حضر ضابط بريطاني وشاهدان فرنسيان وكاتب عدل عسكري ارتجل للمناسبة. كانت المراسم بسيطة لكن دلالاتها عظيمة. فهذه الصناديق الاثنان والأربعون ستعبر البحر المتوسط وتتضم إلى المجموعات الوطنية الفرنسية. كان ذلك، بعد كل ما جرى، انتصاراً جزئياً لكنه حقيقي.

نقش جومار المشهد في ذهنه وقال في نفسه إنه سيفصفه في مذكراته. لم يكن ما أثار فيه المشهد ذاته بل ما يمثلته. نهاية فترة من حياته لن تشبه أي فترة أخرى. ففي الثالثة والعشرين كان قد عاش ما لا يعيشه معظم الرجال أبداً.

أما جوليو فلم يكن يفكر في المستقبل. كان يفكر في الأهرامات، وفي تمثالي ممنون، وفي معابد فيلة. في كل ما لم يتسع له الوقت ليرسمه.

وفي 29 سبتمبر علم العلماء الفرنسيون أن السفن البريطانية المخصصة لنقلهم إلى فرنسا ستكون جاهزة لاستقبال الركاب بعد يومين. وقد عجل هذا الخبر بالاستعدادات الأخيرة.

وفي صباح 30 سبتمبر تلقى العلماء الفرنسيون الأمر الرسمي بأن يكونوا مستعدين للإبحار في اليوم التالي على متن سفن النقل البريطانية التي ستعيدهم إلى فرنسا عبر مالطا.

وقبل الإبحار زار هاميلتون العلماء الفرنسيين زيارة أخيرة. جاء بتصاريح المرور الرسمية التي ستسمح بنقل صناديقهم عبر نقاط التفتيش في الموانئ البريطانية. وكانت هذه الوثيقة، الموقعة والمختومة، الضمانة الرسمية بأن أحدًا لن يحاول الاستيلاء على أمتعتهم في اللحظة الأخيرة.

— هذه تصاريح مروركم. أتمنى لكم رحلة عودة طيبة.

وسلم جوليوا حزمة الأوراق. تناولها جوليوا ثم أجاب:

— وأتمنى لكم أن تحسنوا استعمال ما تحملونه معكم.

ارتسمت على وجه هاميلتون ابتسامة خاطفة. لقد فهم. ففي هذا السياق كان حسن استعمال حجر رشيد والتوابيت والموميאות الملكية يعني دراستها بجدية، وإتاحتها للعلماء، واستخلاص معرفة تعود بالنفع على الجميع. وكان ذلك هو المبرر الوحيد المقبول أخلاقياً لما فعله هنا.

— سنبدل قصارى جهدنا.

كان هذا كل شيء. ولم يلتقيا بعد ذلك أبدًا.

وفي المساء الأخير اجتمع العلماء معًا دون هاميلتون ولا الضباط البريطانيين. أكلوا قليلًا وتحديثوا طويلاً. كان لكل منهم أسفه: المواقع التي لم تُزر، والنقوش التي لم تُنسخ، والآثار التي كانت سنة إضافية ستتيح دراستها. لكن كلاً منهم كان يعلم أيضًا أنهم أنجزوا شيئاً لم يحدث من قبل ولن يتكرر على النحو نفسه.

وفي ليلة الثلاثين من سبتمبر إلى الأول من أكتوبر، كان جوليوا ممدداً على فراشه من القش في المخزن، يصغي إلى صوت البحر وصياح النوارس. وترك السنوات الثلاث المنقضية تمر في ذهنه. النزول في الإسكندرية، والمسير في الصحراء، والمشهد الأول للأهرامات، ومعابد صعيد مصر، وثورة القاهرة، وحجر رشيد، ومقتل كليبر، والمفاوضات المنهكة مع هاميلتون. بدا له كل ذلك كأنه ينتمي إلى حياة أخرى، عاشها رجل أصغر سنًا وأكثر سذاجة من الرجل الذي صار إليه.

نهض عند الفجر، وذهب ليتحقق للمرة الأخيرة من أن الأنابيب مشدودة بإحكام، وخرج إلى الرصيف. كان البحر هادئًا تحت سماء ما زالت داكنة. وبقيت بضع

نجوم في الغرب. وعلى السفن الراسية في المرفأ كانت الفوانيس تلمع. وبعد ساعات قليلة سيكون على متنها. وبعد أسابيع قليلة سيكون في باريس.

وفي صباح الأول من أكتوبر اتخذ الوداع أشكالا شتى بحسب الطباع. أما جوليو، الذي نسج بعض الروابط الدائمة مع علماء مصريين في القاهرة، فقد زار للمرة الأخيرة شيخاً من الإسكندرية تلقى علمه في الأزهر، دارت بينهما أحاديث عن الآثار الفرعونية. وكان الشيخ، وهو عالم مسن يقرأ العربية والفارسية والتركية ولا يقرأ الفرنسية، قد أبدى فضولاً صادقاً حيال الرسوم التي عرضها عليه جوليو. — يقول إن الفراعنة كانوا عمالقة، ترجم المترجم. عمالقة كانوا يبنون للأبدية لأنهم كانوا يعتقدون أنهم سيعيشون فيها.

— لعله محق. لقد نجت هذه الآثار من جميع الإمبراطوريات التي احتلت هذه الأرض. وستنجو من إمبراطورياتنا.

قال الشيخ شيئاً آخر. وتردد المترجم قبل أن يترجم.

— يقول: لقد نظرتم إلى هذه الحجارة كأن لها روحاً. هذا حسن. للفرق قيمته، حتى وإن رحلتم.

دَوّن جوليو هذه العبارة. كانت تتفق مع ملاحظة الوكيل عبد الله. وبدأ يدرك أن النظرة المتأنية التي ألّفوها على مصر القديمة كانت لها، بمعزل عن كل اعتبار سياسي وعسكري، قيمة خاصة بها اعترف بها المصريون أنفسهم.

جرى الصعود إلى السفن في أواخر صباح الأول من أكتوبر. كانت السفن البريطانية قد رست على بعد بضع مئات من الأمتار من الرصيف. وكانت الزوارق تنقل الركاب جيئة وذهاباً بين الرصيف والسفن. وشُحنت صناديق الفرنسيين أولاً، باتفاق مع هاميلتون الذي أدرك قلق العلماء على مجموعاتهم.

كانت السفن تُسمّى إتش إم إس بيتريل، وإتش إم إس ألسست، وإتش إم إس يونيتيه. وهذه الأخيرة كانت فرقاطة فرنسية ألت إلى الراية البريطانية، وقد أبقى الإنجليز على اسمها.

— انتبه، قال جوفروا لبحار كان يرفع أحد صناديق قوارير الحفظ من جانب واحد. إنه هشّ.

قلّب البحار الصندوق في كل اتجاه ليقدر توازنه، ثم وضعه في الزورق مع الباقي. فشّد جوفروا على أسنانه.

وكان ما يشغل باله هو المكان في عنبر السفينة. فعنابر الفرقاطات مظلمة رطبة قليلة التهوية، معرضة لصدمات الاهتزاز والأمواج. وكانت قوارير الكحول هي المشكلة الأخطر. فإن انقلب صندوق في العنبر أثناء عاصفة، وإن انكسر الخشب تحت الصدمة، تحطمت القوارير وانسكب الكحول، وإن كان فانوس قريباً فثمة

خطر حريق في العنبر. وقد نبّه القبطان البريطاني إلى هذا الخطر، ففهمه وأذن بوضع أكثر الصناديق هشاشة في مكان يسهل الوصول إليه على السطح السفلي. صعد جوليو إلى الزورق أخيرًا. ألقى نظرة أخيرة على الإسكندرية من مستوى الماء. البيوت البيضاء بسطوحها المستوية، والمآذن الرشيقة، والقلعة المقامة على أنقاض المنارة القديمة، ومن ورائها كلها الصحراء التي تبدأ، ووادي النيل الذي يختفي نحو الجنوب، والآثار التي لا تُحصى مما لم يبلغه الجيش كله.

— ما زال هناك الكثير مما يُرى، تتم.

— وسيظل هناك دائمًا، أضاف جومار الذي صعد إلى الزورق نفسه. تلك طبيعة مصر. إنها لا تتضب.

ابتعد الزورق عن الرصيف. ولم يلتفت جوليو. احتفظ أمام عينيه بصورة الإسكندرية كما كانت في ذلك الصباح، واضحة مضيئة في هواء أكتوبر الجاف. وما إن استقر على متن السفينة حتى رفض أن يترك أنابيبه النحاسية في العنبر. حملها إلى مضجعه، وهو المكان الذي خُصص له في مقر صغار الضباط، حجرة ضيقة طولها مترين وعرضها متر ونصف، فيها سرير من القماش وخطاف في السقف. علّق حقائبه في الخطاف. ثلاثة وعشرون أنبوبًا، نحو خمسين كيلو غرامًا. وكان السرير ينحني قليلًا تحت الثقل الإضافي.

لم ينم تقريبًا في الليلة الأولى. فكل حركة للسفينة كانت تُورجج الحقائب. وكان ينظر إليها في العتمة ويعدّ التآرجحات.

وضع جومار صناديق رسومه الخرائطية بالاتفاق مع الملازم الأول، مشدودة إلى الحواجز بالحبال، كما تُشدّ معدات المدفعية. طريقة عسكرية للوقاية من الاهتزاز.

— هل سبق أن نقلتَ خرائط ثمينة؟ سأله الملازم.

— لا. لكنني رأيت كيف تربطون المدافع.

أومأ الملازم برأسه. كان ذلك منطقيًا.

على متن السفن، اختلط الركاب الفرنسيون، علماء وجنودًا، بالطواقم البريطانية في حيّز مُعدّ لثلاثي هذا العدد. وظلّت الفئات منفصلة، الفرنسيون في المقدمة وعلى الميسرة، والبريطانيون في الوسط وعلى الميمنة. لكنهم كانوا يتلاقون في الممرات الضيقة والأروقة والسلالم عشرين مرة في اليوم دون أن يتبادلوا كلمة.

ما كان يشعر به العلماء لم يكن خجلًا بقدر ما كان إحساسًا بالبعث. كانوا يعودون إلى فرنسا على سفن الذين أخذوا منهم حجر رشيد وتابوت نختنبو الثاني. الأسطول نفسه الذي أغرق أسطولهم في أبو قير. وكان للتاريخ طريقة في أن ينغلق على نفسه.

كتب جوليوا ذلك على هذا النحو في رسالة المساء. رسالة لم يُتمّها ولم يرسلها قط: «نعود إلى فرنسا على متن سفن المنتصرين علينا، وتصاريح مرورهم في جيوبنا وحجر رشيد في عنابرهم. لقد أخذنا مصر من المصريين، وهم استردّوها منا. والحجارة تسافر الآن إلى لندن. ورسومنا تسافر إلى باريس في أنابيب نحاسية أحفظ بها في مضجعي. أظن أن هذا فرق سيكون له شأن على المدى البعيد.»

جعدّ جوليوا الرسالة ورمائها، وقد أعوزته الكلمات لما يشعر به. وسيحاول أن يجد غيرها في الوصف.

5 - العبور

كان للبحر المتوسط في أكتوبر أمزجته. ومنذ اليوم الثاني هبّت ريح شمالية شرقية واضطرب البحر. وأخذت السفينة تتأرجح بشدة. وقضى عدة علماء، ممن لم يعتادوا الإبحار، الأيام الأولى طريحي مقصوراتهم، ما عدا جومار الذي نزل إلى العنبر لينتقد صناديقه، وجوفروا سانت هيلير الذي كان يصعد لتفقدتها كل ساعتين.

بقي جوليوا على سطح السفينة. كان قد قطع رحلة الذهاب دون عناء، ونشأت لديه مع البحر، على مدى الأشهر المصرية، علاقة هادئة. كان يراقب الأمواج والغيوم والضوء المتغير بالنظرة نفسها التي ينظر بها إلى الآثار. منتبهاً، منفقاً، بلا أحكام. وجاءه ضابط بريطاني، أحد الضباط البريطانيين الشباب، ليحدثه.

— ماذا تحمل بالضبط في هذه الأنابيب؟

— مصر القديمة.

نظر إليه الضابط دون أن يفهم.

— رسوم، أوضح جوليوا. مخططات لآثار. نسخ لنقوش. كل ما استطعت توثيقه في أكثر من ثلاث سنوات. سيكون لي ملء مجلدات كاملة.

— مثل موسوعة؟

— مع صور، قال جوليوا.

بدا الضابط راضياً وانصرف. وبقي جوليوا على السطح ساعة أخرى يتأمل البحر. في مكان ما وراء الأفق ما زالت الأهرامات هناك. جامدة. لا تنتظر شيئاً.

في اليوم الخامس خفّت الريح. واستعاد البحر حركته المنتظمة. وعاد العلماء إلى الظهور على السطح، ما زالوا شاحبين لكنهم واقفون. وعاد كلٌّ إلى مكانه ودفاته وحساباته. فقد استؤنف العمل قبل أن تلوح مالمطا في الأفق.

كان جومار يعمل على ملاحظات القياس، يتعقب التناقضات. وكان عدد منها يقبل الحل. واستعصى اثنان.

— انظر إلى هذه القياسات، قال وهو يضع دفاتره على حاجز السفينة. قاعدة هرم خفرع أطول قليلاً على المحور الشرقي الغربي منها على المحور الشمالي الجنوبي. ليس كثيراً. عشرون سنتيمتراً على مئتين وخمسة عشر متراً. لكن الأمر يتكرر في الأهرامات الثلاثة الكبرى في الجيزة.

— خطأ في قياساتك؟

— ممكن. لكنه مستبعد. لقد قست كل ضلع ثلاث مرات.

— إذن؟

— إذن فقياساتهم تراعي انحناء الأرض. قد تسبق الممارسة النظرية بقرون عدة. نظر إليه جوليا طويلاً.

— انشر هذا.

— ليس الآن. إنها مجرد فرضية. أريد أن أتأكد منها مع مونج في باريس.

كان مونج قد رحل مع بونايرت. لكن القياسات كانت تسافر مع جومار، في الأنبوب رقم أربعة. وهذه النتيجة، التي نشرت في مجلدات *الرصف*، ستجعل منه أحد مؤسسي الجيوديسيا الحديثة. أما في تلك الليلة على السطح، فلم يكن جومار سوى رجل في الثالثة والعشرين لا يقدر على النوم.

أما لم يقله جومار، وما لم يقله لأحد منذ مغادرة الإسكندرية، فهو أن الفرضية كانت ترعبه بقدر ما كانت تُحَمِّسه. فإن كان بناء الأهرامات قد عرفوا انحناء الأرض، فهذا يعني أن شيئاً ما قد ضاع. لا أنه نُسي، فالمعارف تُنسى، بل ضاع بالمعنى القوي للكلمة: دُمِّر وتبعثر وصار بعيد المنال. عشرون قرناً من الغزوات والنهب والحرائق. مكتبة الإسكندرية. البريدات التي أحرقتها جنود قيصر دون أن يقرؤوها. واللامبالاة الطويلة التي أبداها المحتلون المتعاقبون تجاه ما تحتويه الجدران.

أخرج من معطفه الدفتر رقم سبعة عشر، الذي خصصه للفرضيات غير المحققة. كان قد دَوَّن فيه، على مدى الأشهر، الملاحظات التي استعصت على التفسير الفوري. التوجُّه الفلكي للمعابد. وانعدام أي خطأ في أبعاد معبد آمون الكبير في الكرنك على امتداد خمسمئة متر. وترتيب الحجرات والممرات الداخلية في الأهرامات الكبرى، التي بدت له محاورها تستجيب لحساب لم يستكمل إعادة بنائه بعد.

لم تكن الأهرامات مقابر فحسب. وربما لم تكن مقابر على الإطلاق، بالمعنى الذي يفهم به هذا اللفظ في فرنسا. كانت أدوات. آلات لقياس العالم، ولتنبيت السماء في الحجر، ولنقل معرفة إلى من سيأتون بعد أصحابها، معرفة لا يستطيع البردي أن يضمن بقاءها. لأن البردي يحترق. أما الحجر فاحترقه أقل.

أغلق الدفتر. كانت فرضية أوسع من أن تُحشر في هامش صفحة، وكانت تتطلب عشر سنوات من العمل. أما هو فكان في الثالثة والعشرين من عمره، ولديه الوقت. كان الليل قد حلّ. وبدأت النجوم فوق البحر المتوسط أقلّ لمعاناً مما كانت عليه فوق الصحراء. بحث عن الجبار فوجده منخفضاً عند الأفق، ونجوم نطاقه الثلاثة مائلة قليلاً نحو الجنوب. بقي يتأملها حتى أجبره البرد على الدخول. وفي الأنبوب رقم أربعة، بين لفتين من الورق المزيت، كان قد دسّ ورقة صغيرة مطوية أربع طيّات، نسخ عليها في الجيزة القياسات الدقيقة لقواعد الأهرامات. هذه الأرقام لن تكذب. كانت مراساته.

على ظهر السفينة الخلفي كان فوربيه يكتب. وكان يبحث منذ أيام عدة عن مطلع المقدمة التاريخية للوصف. عن العبارة التي تجعل القارئ يدرك لماذا كانت مصر أهمّ من أي حضارة قديمة أخرى. لم تكن المادة هي المشكلة. المشكلة كانت النبرة. فإن اتخذ نبرة العالم، خسر القارئ المثقف الذي يريد أن يتأثر. وإن اتخذ نبرة الخطيب، خان الدقة التي ينتظرها منه المعهد.

كان قد ملأ إحدى عشرة صفحة أولى ومزّقها. وفي هذه المحاولات الإحدى عشرة كلها الخطأ نفسه: كان يبدأ بالحملة. «في 19 مايو 1798، أبحر الجيش الفرنسي من طولون.» أو: «لجنة العلوم والفنون، المؤلفة من مئة وسبعة وستين عضواً.» عبارات سليمة تخبر القارئ بأنه مقبل على قراءة تقرير. ولم يكن هذا تقريراً.

ما كان يبحث عنه ولا يجده هو الكلمة التي تجعل القارئ يدرك لماذا تختلف مصر عن سائر البلدان. لا أجمل، ولا أقدم بالمعنى المألوف. بل قديمة على نحو آخر. القدم بوصفه خاصية فيزيائية للهواء والحجر والنهر. كان عليه أن يدخل ثلاثة آلاف سنة من التاريخ في مقدمة واحدة. ولم يكن أحد قد اهتدى بعد إلى كيفية كتابة ثلاثة آلاف سنة.

— بماذا أبدأ؟ قال بصوت عالٍ، لنفسه بقدر ما هو لجومار الذي كان يصغي إليه.

— بما لا يتغير. النيل. الفيضان السنوي. الفصول. كل ما عدا ذلك، الفراغة والأسرات والفتوحات، زائل أمام هذا. ابدأ بالجغرافيا. والباقي يتبع.

دون فوربيه. وأحسن بشيء ينحلّ في صدره. لا الجغرافيا بالمعنى التقني، لا خطوط العرض ولا خطوط الطول. بل الجغرافيا بمعنى شكل العالم من حيث ما يفرضه من قيود على البشر. النيل الذي يعلو وينحسر. الوادي بين صحراءين. الحضارة جواباً على قيد فيزيائي. هذا، كان يستطيع أن يكتبه.

شرع في الصفحة الثانية عشرة. ولم يمزّقها هذه المرة. كتب ثلاثة أسطر وأعاد قراءتها. كانت متماسكة. وكان السطر الثالث يؤكد أن النيل يعبر القرون دون أن تعبره القرون. لم يكن كاملاً. لكنه كان حياً. كان بداية. فواصل الكتابة.

وكان جوفروا سانت هيلير، في تلك الأيام نفسها، يحرر الملاحظات التي ستصبح مقالاته الأولى عن حيوانات النيل. كان يعمل في قمرته، محاطاً بقوارير مربوطة بإحكام اتقاءً لتمايل السفينة. ورائحة الكحول التي تحفظ الحيوانات تملأ المكان الضيق.

— بماذا تفكر حين تكتب هذه الأوصاف؟ سأله جومار ذات مساء.

— أفكر فيمن سيقروؤن بعد خمسين سنة. أريدهم أن يروا ما رأيت. لا أكثر ولا أقل. ما هو كائن فحسب.

كان ذلك شعاره دون أن يصوغه: أن ينقل بأمانة، وأن يبلغ دون خيانة، وأن يترك للأجيال اللاحقة مشاهدة لا تأويلًا.

في صباح 10 أكتوبر دخلت السفينة ميناء فاليتا. نزل العلماء إلى البر وتجولوا جماعاتٍ صغيرة في شوارع المدينة المحصنة. كان قد مضى أكثر من عام بقليل منذ أخلت الحامية الفرنسية الجزيرة تحت الضغط البريطاني، وأصبح العلم البريطاني يخفق الآن فوق الأسوار التي رأى جوليو العلم الثلاثي الألوان يرفرف عليها حين مرّ بها في يونيو 1798.

— كنا قد استولينا على هذه الجزيرة في ثلاثة أيام، قال فورييه بسخرية حزينة وهو يتأمل تحصينات فاليتا. وفقدناها بعد حصار دام سنتين. هذه هي قصتنا المصرية في خلاصتها: انتصارات باهرة، وتخلّ صامت.

جلس جوليو أمام الكاتدرائية المشتركة للقديس يوحنا ورسّم واجهتها الصارمة بسرعة. لا من أجل الوصف الذي لا يتناول إلا مصر، بل لنفسه، بحركة غريزية من يده التي لم تعد تعرف كيف تبقى عاطلة أمام صرح جدير بالنظر. استغرق الرسم عشرين دقيقة. وحين رفع عينيه كان جومار واقفاً خلفه.

— ما زلت ترسم، قال جومار بمودة يشوبها إعجاب.

— سأظل أرسم دائماً. هذه طريقتي في رؤية العالم.

في المساء اجتمع العلماء في النزل للعشاء. وجرى الحديث بطبيعة الحال حول ما ينوي كل واحد منهم أن يفعله عند عودته إلى باريس. أراد جوفروا سانت هيلير أن يستعيد منصبه في متحف التاريخ الطبيعي. وكان فورييه يفكر في منصب محافظ إيزير الذي وعده به بوناپرت. وذكر مارسيل بحنين المطبعة الوطنية.

— وأنت يا جوليو؟ سأل جوفروا سانت هيلير.

— أنا؟ سأعمل. هذا كل شيء. هذه الرسوم لن تُنقش من تلقاء نفسها.

في 11 أكتوبر عند الفجر رفعت السفينة مرساتها واستأنفت طريقها نحو الشمال الغربي. وكان البحر المتوسط الغربي، أبرد وأشد اضطرابًا من البحر الشرقي، يذكرهم بلونه الرمادي المخضر بسواحل بروفانس في صباهم.

في هذا الجزء الأخير من الرحلة، خمسة أيام منذ مالطا، كان العلماء يجتمعون كل يوم في القمرة الكبيرة ليتناقشوا في شأن الوصف. من يكتب ماذا. وبأي ترتيب. وكم مجلدًا.

— يجب أن يكون هذا الوصف موسوعة، قال فوربيه. لا بضع لوحات مع شروح، بل كل ما رأيناه وقسناه وراقبناه. الآثار والجغرافيا والتاريخ الطبيعي والمجتمع المعاصر. عشرون مجلدًا على الأقل.

— هذه اللوحات ستكون كاملة أو لن تكون، قال جوليو. أفضل النقاشين في باريس، وكل ما يلزم من الوقت. عند أي عيب نعيد من البداية.

أراد جومار أطلسًا جغرافيًا كاملاً، أولى الخرائط الدقيقة لوادي النيل بأسره. وطالب جوفروا بمكانة مرموقة للتاريخ الطبيعي. وكان مارسيل يفكر في نسخ حجر رشيد المطبوعة.

كان كل واحد يفكر فيما سيبقى منه. رفع جومار، عند مقدمة السفينة، عينيه عن دقاته. كان الساحل لا يزال غير مرئي. فكر في القياسات المحفوظة في أنابيبه: بعد مئة عام سيستعملها أحدهم دون أن يعرف اسمه. وكان ذلك يكفيه.

في 16 أكتوبر، في عصر خريفي صافٍ، ظهرت فرنسا أخيرًا عند الأفق: خطأ داكًا منخفضًا أولاً، ثم، مع الاقتراب، هيئة رؤوس وتلال. فرنسا. لم يقولوا شيئًا. لم يكن هناك ما يقال.

في 17 أكتوبر، عند السادسة صباحًا، دخلت السفينة المياه الساحلية لبروفانس. كان ضوء الخريف على البحر مختلفًا عن ضوء البحر المتوسط الشرقي. أكثر شحوبًا وانتشارًا، بخفة تتباين مع الكثافة المضئية في مصر.

— أعرف هذا الضوء، قال جوليو لجومار. إنه ضوء فرنسا. لم أكن أعلم أن للضوء وطنًا.

كان الساحل يقترب. وصارت تُرى الآن الجروف الكنسية، والخلجان الصخرية الضيقة، وأولى بيوت الصيادين.

— إننا عائدون.

احتوت هذه الكلمة البسيطة كل شيء: الارتياح والأسف والتعب وتوقع العمل الذي ينتظر. كان مصر كانت فاصلًا عابرًا وكان الحياة الحقيقية تستأنف الآن. لكن

العالمين كانا يعلمان أن الأمر على العكس. فالحياة الحقيقية كانت هناك، في تلك السنوات المكثفة. وما يفتح أمامهما كان العالم العادي.

6 - العودة إلى فرنسا

رست السفينة في طولون في 18 أكتوبر 1801، بعد ثلاث سنوات وخمسة أشهر من رحيل الأسطول الفرنسي عن هذا الميناء نفسه في مايو 1798. وكانت ظروف العودة تناقض ظروف الرحيل. فبدلاً من أسطول من ثلاثمئة وخمسين سفينة تقلّ ثمانية وثلاثين ألف جندي، كانت بضع سفن بريطانية تعيد بقايا جيش مهزوم. نزل العلماء في طولون بمشاعر لم يكن أحد منهم يستطيع أن يسمّيها بدقة. كانت فرنسا قد تغيّرت. وكانوا هم قد تغيّروا أكثر.

هبط جوليو من سلم السفينة البريطانية ووضع قدمه على رصيف طولون. الحجر المبلول، البارد. رائحة الملح والقطران. النوارس تصيح فوق الميناء.

توقف جوليو تاركاً الآخرين يتجاوزونه، دون أن يقول شيئاً ولا أن يقبل الأرض. نظر إلى الرصيف والمباني والتلة التي تعلو المدينة والسماء الرمادية لشهر أكتوبر. كان الهواء بارداً رطباً. كان برد المتوسط في أكتوبر مختلفاً عن البرد الجاف في مصر. استنشقه في رنتيه وانتظر أن يتذكره جسده.

أنزلت الصناديق، وفيها رسوم جوليو ومجموعات جوفروا سانت هيلير ونسخ مارسيل المطبوعة والأدوات والمخطوطات، تحت إشرافهم.

اجتمعوا في نزل بطولون.

— نخب مصر.

رفع فوربيه كأسه.

— ونخب من لم يعودوا منها.

شربوا في صمت. وانتهت السهرة باكراً.

في صباح اليوم التالي أرسلت سلطات ميناء طولون ضابطاً لإجراء التفريغ الرسمي للصناديق. كان الضابط شاباً، لا يعرف عن حملة مصر شيئاً سوى ما قيل في الصحف الباريسية. فحص بيانات الشحن بدقة إدارية، وعدّ الصناديق، وعيّن مستودعاً مؤقتاً قرب الرصيف.

— هذه الأشياء تشكل التراث العلمي للجمهورية، قال له فوربيه بسلطة لا تقبل الجدل. سننقل إلى باريس تحت الحراسة في أقرب وقت ممكن. احرص على أن تكون المستودعات جافة ومقفلة بإحكام.

انحنى الضابط ونفذ. كان فورييه قد استعاد بالغريزة نبذة الموظف الباريسي، وثقة من يتكلم باسم مؤسسة. ثلاث سنوات في مصر لم تمنح ذلك.

بعد الظهر اجتمع عدد من العلماء في مكاتب الإدارة البحرية لتحضير تقاريرهم الرسمية الأولى الموجهة إلى وزارة الداخلية. كان على هذه التقارير أن تثبت أن لجنة العلوم والفنون أنجزت مهمتها، وأن مجموعاتها سليمة في الجزء الذي نجا، وأن عمل النشر يمكن أن يبدأ. حرر فورييه التقرير الرئيسي بيد وثيقة، دون أن يذكر الخسائر التي ألحقها البريطانيون إلا في ملاحظة وقائية في الملحق.

— لندع السياسة لمن سيستعملونها. دورنا أن نعرض ما فعلناه وما جلبناه. وما عدا ذلك للمؤرخين والدبلوماسيين.

وافق جومار، وهو يعيد قراءة التقرير من فوق كتف فورييه. كان في الثالثة والعشرين. حياته كلها تنفتح أمامه، وكانت هذه الحياة موسومة بتجربة لن يعرفها معظم الرجال أبدًا. وكان ذلك سيكفيه. وواساه هذا الخاطر.

خُصصت الساعات الأخيرة في طولون لإجراءات إدارية تناقض ما عاشوه للتو من أحداث خارقة. استمارات وتواقيع وأختام رسمية. كانت بيروقراطية القنصلية تمتص حملة مصر في دوائرها المعتادة.

لاحظ جوليا بسخريّة صامته أن الموظف الذي كان يسجل صناديق اللجنة يعاملها كما كان سيعامل شحنة من الدقيق أو الصوف. لم تظهر الطبيعة الاستثنائية للمحتوى في أي موضع. اثنان وأربعون صندوقًا. هذا كل ما كانت البيروقراطية تراه.

— هكذا تحفظ الحضارات ذاكرتها. في استمارات إدارية لا يقرؤها أحد.

ابتسم فورييه. كان ذلك صحيحًا، وكان أيضًا المبدأ الذي يقوم عليه أمله في أن وصف مصر سيبقى بعد الأنظمة والحروب. سيفهرس ويُجرد، وسيُرجع إليه أجيال من العلماء لن يكونوا قد سمعوا قط بفورييه ولا بدونون، لكنهم سيقروون كلماتهم. في صباح اليوم التالي أخذوا طريق باريس.

استغرقت الرحلة نحو أسبوع على الطريق الرئيسي الذي يعبر وادي الرون ثم يواصل شمالًا عبر بورغوندي. كان العلماء يسافرون في عربات عمومية، وأمتعتهم الثمينة تتبعهم على حدة في عربات نقل مؤمنة.

خلال هذه الرحلة أتيحت لهم فرصة مراقبة فرنسا ومعاينة التغيرات السياسية الكبرى التي حدثت أثناء منفاهم المصري. لقد غيّرت فرنسا نظامها.

في أفينيون كان حشد ينتظر أمام العربة. وكان الناس يسألون عن أخبار أبناء وإخوة وأزواج انقطع أثرهم منذ ثلاث سنوات. نزل فورييه وأجاب بصبر. لم يكن يعرف مصير الجميع.

ترك هذا المشهد فيه أثراً أعمق من الأهرامات. كانت المغامرة الكبرى تقوم على خفية واقع بسيط: ناس ينتظرون. كانت هناك امرأة في نحو الخمسين تمسك بيدها صورة مصغرة. لم تسأل عن شيء. اكتفت بالنظر في وجوه الجنود النازلين. وأشاح فوربيه ببصره. سيطل بعضهم ينتظر إلى الأبد.

كان المرور بليون مناسبة لتوقف يومين. وكان لعدة علماء عائلات أو أصدقاء في المنطقة فاعتنموا الفرصة للقاءات ارتجالية. أما فوربيه، وكانت عائلته في أوكسير، فاكنتى بإرسال رسالة من ليون يعلن فيها وصوله القريب إلى باريس.

أما جوليو فاعتنم هذين اليومين في ليون لزيارة نقّاش مشهور كان قد رأى عمله قبل الحملة. أراد أن يقدر ما إذا كان يمكن إشراك هذا النقّاش في إنتاج لوحات الوصف.

— هذه نماذج، قال جوليو وهو يفتح بعض دفاتره على طاولة المشغل.

فحص النقّاش الرسوم طويلاً. كانت عينا الجرفي فيه تقدّران الصعوبات. فالخطوط الهير وغليفية تتطلب دقة بالغة، وللقوش البارزة فروق عمق يصعب نقلها في النقش المسطح، والمناظر الشاملة للمعابد تقتضي إتقائاً للمنظور لا يملكه كل النقّاشين.

— إنه عمل جاد. أستطيع إنجازَه. لكنني سأحتاج وقتاً. وقتاً كثيراً.

نظر جوليو إلى يدي النقّاش. عريضتان ثابتتان، وفيهما ثغرات في مواضع دقيقة لا يصنعها إلا الإزميل. يدان مختلفتان عن يديه. يدها ترسمان. وهاتان ستنقشان. هذا الانتقال من حركة إلى أخرى كان أمراً لا يزال يستعصي على فهمه. سيتعين أن يتعلما معاً.

— لدينا وقت. ما لا نملكه هو الحق في التسرع والإهمال.

اتفقا على شروط مبدئية. دَوّن جوليو الاسم في دفتره. كان هذا النقّاش الليوني بالضبط ما يبحث عنه.

في المساء، وهو عائد إلى النزل، التقى جوليو فوربيه في القاعة المشتركة.

— بونابرت تخلى عنا، قال. والآن سيستعمل عملنا لمجده.

حاول فوربيه أن يخفف من هذا الحكم القاسي.

— لولاه لما كنا هناك. وهو يملك الوسائل لتمويل الوصف. فلنُبقِ هاتين الحقيقتين في أذهاننا.

في ليون اشترى جوليو من مكتبة نسخة من مراسلاته هو نفسه مع المعهد، نُشرت أثناء غيابه. لم يعرفه صاحب المكتبة. وأعطته قراءة رسائله من مصر وهو في فرنسا انطباعاً غريباً. كأن رجلاً آخر عاش هذه التجربة ويقدم له تقريراً عنها من

بعيد. كان يعرف الكلمات لكنه لا يعرف الصوت تمامًا. لقد تغيرت كتابته. صارت أكثر مباشرة، وأقل اكترًا بالمؤثرات. ولعل ذلك كان خبرًا سارًا.

— لم أعد الرجل نفسه الذي غادر طولون في مايو ثمانية وتسعين، قال لجومار على الطريق.

— لا. لا أحد يبقى كما كان.

دخلوا باريس من ضاحية سانت أنطوان عند الغسق. كانت المدينة أكبر في ذكراه مما هي في الواقع. لقد أضفى على باريس طابعًا مثاليًا طوال أشهر مصر حتى جعلها رمزًا لكل ما كان يفتقده. وراعه في واقع المدينة تماسكها العادي المألوف. الشوارع نفسها، والروائح نفسها، وضجيج العربات نفسه على الحجارة المرصوفة. — باريس هي باريس دائمًا.

— أتعود من بعيد يا سيدي؟ سأل الحوذي.

— من مصر.

— آه، قال السائق. يقولون إنها جميلة.

— إنها أكثر من جميلة. لكن لا بد من العودة لتعرف قيمتها.

جاء الوصول إلى باريس في 28 أكتوبر أكثر هدوءًا مما كان يتمنى بعضهم. لا موكب ولا استقبال رسمي ولا خطب. فقد عاد جيش الشرق مهزومًا، ولم يكن لدى حكومة القنصلية أي سبب للاحتفال باستسلام. وكان بونابرت قد أعاد بناء أسطوره من غير مصر. فصارت الحملة في الخطب الرسمية استراحة سخية، وعملاً ذا غاية علمية اضطر إلى التراجع أمام الظروف، لا هزيمة عسكرية خالصة وصريحة.

ترك جوليو رفيقه يتفرقون، وعاد وحده إلى بيته في شارع سان دومينيك. كانت الشقة مغلقة. غير أن أهله، وقد أبلغوا برسالة من طولون، أمروا بفتح المصاريع. دخل، وضع معطفه، وجلس في المقعد الذي اعتاد القراءة فيه. كانت في المدفأة نار. وكان الدفء على وجهه لطيفًا ثابتًا، دفء خشب يحترق لا صلة له بدفء مصر. كان كل شيء في مكانه. المكتبة واللوحات والمكتب. ثلاث سنوات في مصر، وباريس لم تتحرك.

تناول من الرف دفترًا فارغًا، أول ما وقعت عليه يده، وكتب في أعلى الصفحة الأولى: «أكتوبر 1801 — تبدأ الأعمال.» ثم أغلق الدفتر وذهب إلى فراشه.

جرت لقاءات أهل في الأيام التالية، كلما انتشرت الأخبار بين المقربين. الوالدان والأصدقاء وزملاء الأوس. أراد كل واحد حكايات ووصفًا وطرائف. هل الأهرام

فعلاً بالضخامة التي يزعمها المسافرون؟ هل الحر محتمل؟ هل كان الخوف حقاً بالقدر الذي توحى به الرسائل؟

كان جوليو ايجيب بصبر، ويضبط رواياته بحسب محدثيه. مع والديه كان يتحاشى تفاصيل المعارك والأمراض. ومع أصدقائه العلماء كان يخوض في تفاصيل الآثار. ومع عامة الناس كان يحافظ على نبرة الدهشة والعجب. وهذه القدرة على تطويع الحكاية بحسب الجمهور، كان يعرفها في نفسه فثأ لم يكن يظن أنه يملكه. وستنفعه في وصف مصر.

— وأكثر. الإشاعات دائماً دون الواقع في ما يعجز المرء عن تخيله.

جلبت له هذه العبارة بعض النظرات المرتابة وبعض الدعوات إلى العشاء عند باريسيين متشوقين لسماع مغامراته. قبلها وروى، لكن دائماً مع شعور بأن الكلمات تخون التجربة. فمصر لا تُروى، بل كانت تُعاش. وهي الآن حية في الأنابيب النحاسية المكسدة في شقته، تنتظر أن تُترجم إلى لوحات محفورة.

نام تلك الليلة على هذه الفكرة. العمل الحقيقي لم يبدأ بعد. سيبدأ غداً، وسيدوم عشرين عاماً. كان ذلك المقياس الدقيق لما شرعوا فيه. وبدأت له العشرون سنة، في تلك اللحظة، معقولة تماماً ومُدوّخة تماماً في آن واحد.

في ديسمبر، بعد أن هدأت الحماسة الأولى للقاءات، بدأ العلماء ينظمون أنفسهم عملياً.

في 10 ديسمبر استقبل بونايرت فورييه في قصر التويلري. كانت الممرات واسعة باردة، ودفع المدافئ لا يبلغ قاعات الانتظار. كان بونايرت ينتظره في مكتبه، وفقاً لكعادته. عرض فورييه مشروع النشر. ورحب بونايرت بالاقتراح، وهو الذي أدرك المصلحة السياسية في تمجيد حملته المصرية رغم فشلها العسكري.

— انشروا هذا، قال بونايرت. أجعله مشروع دولة.

أصدر بونايرت مرسوماً رسمياً بأن الدولة الفرنسية ستمول تمويلًا كاملاً إعداد وصف مصر وطباعته، وأن هذا المنشور سيُعدّ مشروعاً وطنياً ذا أولوية. وعيّنت لجنة تحريرية تتألف من فورييه رئيساً للتحرير، ودونون مديراً فنياً مسؤولاً عن اللوحات، وعدد من العلماء الآخرين محررين قطاعيين مسؤولين عن مختلف الأقسام الموضوعية.

وُفرت للعلماء مكاتب في مبنى حكومي في باريس يعملون فيه يومياً. وخصّصت ميزانيات كبيرة لتشغيل حفارين محترفين ورسميين مساعدين وكتاب ناسخين.

كرّس دونون ديسمبر كله لتنظيم آلاف رسومه، كي يبدأ تحويل مخططاته السريعة إلى لوحات محفورة متقنة. صنّف رسومه بحسب الآثار وبحسب الأنواع. مناظر

عامة، وتفاصيل معمارية، ونقوش بارزة، وكتابات هيروغليفيه، ومساقط أفقية، ومقاطع رأسية.

— هذا العمل التنظيمي التمهيدي لا غنى عنه، كان يشرح لمساعديه، قبل أن يتمكن من الشروع في أعمال الحفر نفسها. ومن دون تنظيم منهجي صارم، سنضيع أسابيع في البحث عبثاً عن الرسوم التي نحتاج إليها. أما مع هذا التنظيم المنهجي بحسب المواقع والأنواع، فسنستطيع العمل بكفاءة.

بدأ يختار أفضل الحفارين على النحاس في باريس ليعهد إليهم بالمهمة الدقيقة، مهمة استنساخ رسومه. قابل كل حفار محتمل، وفحص نماذج من أعماله السابقة، وناقش طويلاً معايير الجودة التي سيطلبها.

كشفت الاتصالات الأولى بالحفارين صعوبة لم تكن في الحسبان. فهؤلاء التقنيون المدربون تدريباً رائعاً كانوا يعرفون استنساخ أي أصل بأي أسلوب متعارف عليه. لكن رسوم دونون لم تنتم إلى أي أسلوب متعارف عليه. كان لها حرية في الخط وعجلة وغموض مثير لا يعرف الحفر الأكاديمي كيف ينقله.

— عليكم أن تدربوا أعينكم. هذه الأعراف ليست أخطاء. إنها تخضع لمنطق ينبغي أن تفهموه قبل أن تستنسخوه. الحفار الذي لا يفهم لماذا يُرسم الوجه المصري هكذا سيصحح فيقع في أخطاء جسيمة.

سيكون هذا العمل أطول مما قدر. لكن كان واضحاً أن دونون لن يتنازل، وأن وصف مصر سيكون أعظم عمل شارك فيه في حياته.

أما فوربيه فكان يتقدم في كتابة المقدمة التاريخية. وقد اتخذ نبرة تأمل علمي تليق بضخامة المشروع. كانت كل جملة موزونة. لم يكن يريد أن يكون وصف مصر مجرد فهرس مصوّر. أراد فعل فكر، صرخاً فكرياً يُضاهي الموسوعة، نصّاً يقول للأجيال القادمة ما فهمته فرنسا من مصر، وربما ما كانت مصر تقوله عن فرنسا.

انتهى ديسمبر 1801 في هذا العمل المرکز، في تلك المكاتب والورش حيث كان العمل الكبير يتخذ شكله. ولم يكن أي من العلماء يعلم حينذاك أن إتمامه سيتطلب سنوات أخرى، وأن مجلدات *الفولبير* الثلاثة والعشرين من وصف مصر لن تكتمل إلا في عام 1829. قرابة ثلاثين عاماً من العمل للإحاطة بثلاث سنوات من الحملة. وربما كان هذا التفاوت هو المقياس الدقيق لما راوه.

كان اجتماع 19 ديسمبر في المعهد أول اجتماع رسمي للجنة العلوم والفنون منذ عودتها. وقد نظم فوربيه الدعوة إليه بعناية، وأرسل رسائل شخصية إلى كل عضو لا يزال على قيد الحياة — فقد هلك نحو ثلاثين في مصر — يدعوهم إلى اللقاء في القاعة الكبرى للمعهد.

كانوا نحو ستين، قدموا من أنحاء فرنسا. بعضهم لم يرَ بعضًا منذ الإسكندرية، منذ أيام الاستسلام والإبحار. والنقوا بتأثر مكتوم، تأثر ناجين اشتركوا في تجربة لا يستطيع أحد غيرهم أن يفهمها كاملةً.

ترأس فوربيه الاجتماع بما يليق به من جلال، فذكر بالأعمال المنجزة والصعوبات التي دُللت والخسائر التي وقعت، وأورد أسماء الزملاء الموتى، ثم عرض خطة نشر وصف مصر، والتمويل الذي نالوه من حكومة القنصلية، والجدول الزمني المبدئي.

— سيستغرق هذا العمل وقتًا. ربما عشر سنوات. وربما أكثر. وسيُطلب من كل واحد منكم أن يسهم في تحرير قسمه. ما بدأناه في مصر سننهيها هنا، في باريس، في مكاتبنا ومكتباتنا. المغامرة كانت هناك. والعمل سيكون هنا.

جلس دونون بين الحضور يصغي، وهو يفكر في دفاثره في شقيقته، وفي كل تلك الرسوم التي تنتظر أن تُحفر. إن ما أنجزه في مصر لم يكن إلا نصف العمل. والنصف الآخر كان يبدأ.

خُصص الأسبوع الأخير من ديسمبر لتحرير أول تقرير رسمي من لجنة العلوم والفنون إلى وزير الداخلية. وقد عرض هذا التقرير، البالغ اثنتين وتسعين صفحة، جردًا لما أنجزته اللجنة، وما جاءت به معها، وما تعزز نشره.

كتب فوربيه معظمه، ودونون الجزء الفني، وجوفروا سانت هيلير الجزء الخاص بعلوم الطبيعة. ومارسيل الجزء المتعلق باللغات والمخطوطات. وقد أثارت الوثيقة، الرصينة الدقيقة، إعجاب الوزير فرفعها إلى بونايرت مرفقة بمذكرة مؤيدة.

استدعى بونايرت، الذي تابع تقدم المجموعات منذ عودته إلى فرنسا قبل عامين، فوربيه إلى اجتماع عمل. كان يريد أن يكون وصف مصر صرخًا علميًا وصرخًا سياسيًا أيضًا يمجّد حملته الشرقية. ولم يكن الهدفان متعارضين، لكن تعايشهما كان يُلزم العلماء بالإبحار بحذر.

— سنخدم العلم، قال فوربيه لدونون بعد الاجتماع مع بونايرت. وندع بونايرت يعتقد أننا نخدم مجده. هكذا كانت تُموّل الأعمال العلمية الكبرى دائمًا.

ابتسم دونون. ولعل هذه الصيغة كانت أصدق ما سمعه في وصف وضعهم منذ بداية الحملة.

تلقى بونايرت تقرير اللجنة باهتمام لم يكن مصطنعًا. فقد كان له فضول فكري حقيقي تجاه بعض جوانب الحملة، الأهرام وحجر رشيد ومعابد طيبة الضخمة. وسيقرأ بشغف، بعد عام، رحلة دونون ويحدّث عنها أصدقاءه.

— صاحبكم دونون يكتب جيدًا، قال مونج. وهذا نادر بين العلماء. رسائله عن الأهرام أفضل ما قرأت من أوصاف.

— إنه يرى ما يصفه، قال بونايرت. هو فنان بقدر ما هو عالم.
أوما بونايرت موافقاً. وبعد أسابيع قليلة أبلغ دونون أن لديه فكرة من أجله، من غير أن يخوض في التفاصيل.
بالنسبة إلى العلماء الذين بقوا يعملون على وصف مصر، كانت فكرة أن ينال دونون منصباً في أعلى الهرم خبراً ساراً. فقد كان هذا الاحتمال يضمن لهم محاوراً رفيع المقام، متفهمًا ومطلعًا، داخل الحكومة.
كان التمويل الذي منحه بونايرت سخياً لكنه غير محدود. واضطر العلماء سريعاً إلى مواجهة الواقع الاقتصادي لمنشور ضخم. فالحفرون كلفتهم باهظة، وطباعة اللوحات الكبيرة أغلى، والورق الجيد مرتفع الثمن.
وضع فوربيه خطة تمويل مختلطة تجمع بين الاعتمادات الحكومية واشتراكات المكتبات والأكاديميات والأفراد الميسورين. وهذه الصيغة، التي أتاحت ضبط التكاليف مع توسيع الانتشار، كانت إرهاباً بنماذج تمويل المنشورات العلمية الكبرى في القرن التاسع عشر.
أما دونون فقد تفاوض من جهته مع ناشر باريسي على نشر رحلة في الوجه البحري وصعيد مصر كمجلد مستقل يسبق وصف مصر الجماعي. وهذا النشر السريع، منذ عام 1802، سيُبقى اهتمام الجمهور بمصر القديمة حياً، ويهيئ سياقاً مواتياً لاستقبال وصف مصر حين يصدر.
— ننشر على مرحلتين. رحلتي أولاً، للجمهور العريض ولإبقاء الزخم. أما وصف مصر فبعدها، للعلماء وللخلود.
كان تعيين دونون مديراً عاماً للمتاحف الوطنية، بمرسوم قنصلي صدر في نوفمبر 1802، مفاجأة له بقدر ما كان لزملائه في اللجنة. وقد قرره بونايرت بعد أن قرأ رحلة في الوجه البحري وصعيد مصر وبعد محادثات عدة مع دونون عن الفن والمجموعات.
هذا المنصب، الذي لم يسع إليه والذي ادخره له بونايرت منذ حديثهما في ديسمبر 1801، سيضع دونون في قلب تناقض. فبصفته مديراً للمتاحف سيشرف على اقتناء الأعمال الفنية القادمة من البلدان التي غزتها الإمبراطورية النابليونية. وسيصير الحلقة المحورية في سياسة سلب منهجي كان في مصر شاهداً عليها، ناقداً لها وعاجزاً عن مواجهتها.
ومع ذلك قبل. فقد ظن أنه من هذا الموقع سيستطيع أن يؤثر في طريقة تكوين المجموعات وعرضها، وأن يلحّ على بعدها العلمي بدل بعدها الانتصاري. ستكون معركة أخرى، تُخاض بأدوات أخرى.

لم يرغب عنه هذا التوتر الجوهرى بين دوره المقبل وتجربته الماضية. دونه في يومياته بالدقة الباردة التي كان يخص بها الملاحظات العسيرة على الاحتمال. ثم انتقل إلى شأن آخر. فقد كان أمامه الكثير مما ينبغى فعله، فلم يطل الوقوف عند مفارقات وضعه.

ستكون السنوات العشرون التالية أخصب سنوات حياته المهنية، وإن اختلفت في طبيعتها عما عاشه للتو. أكثر استقرارًا وأكثر إدارية وأكثر مؤسسية. لكنها كانت أيضًا، على طريققتها، لا تقل مشقة. فإصدار وصف مصر كان يتطلب جلدًا وانضباطًا يضاهيان ما تطلبته الحملة نفسها. كان دونون يعلم ذلك. عشرون عامًا من العمل أمامه. خرج إلى الشارع ومشى.

7 - بدء العمل

كان جومار يسكن في شارع لا كروا فوبان منذ عودته. غرفة باردة في الشتاء، متجهة نحو الشمال، لكن فيها طاولة كبيرة نشر عليها أوراق قياساته.

مضت سنة على عودته. وطوال سنة كان ينسخ ويقارن ويصحح. وامتدت مسوحاته الطبوغرافية الآن على منتي ورقة من الورق المليمترى، من الدلتا إلى جنادل أسوان. أدق خريطة لمصر رُسمت على الإطلاق.

كان يحسب ارتفاع الهرم الأكبر: مئة وستة وأربعون مترًا ونصف، أي نحو مئتين وثمانين ذراعًا ملكية مصرية. فقد استخدم البناؤون وحدة قياس دقيقة، وصار بالإمكان الآن استعادة هذه الوحدة. ونشر القيمة في ملاحظاته: 0,5236 متر. وسيستخدمها علماء المصريين مئة وخمسين عامًا.

وكان يفكر كذلك في قناة السويس. فقد تصور لها بونايرت.

أما لوبير، كبير المهندسين، فقد ارتكب خطأ جسيمًا. إذ خلص إلى أن البحر الأحمر أعلى من المتوسط بنحو عشرة أمتار، مما يجعل القناة مستحيلة من غير هويس. كان جومار يشك أصلًا في تلك الأرقام، من غير أن يستطيع البرهنة على ذلك. وسيصدر تقرير لوبير في عام 1803.

وسيكلف هذا الخطأ قرابة نصف قرن، إلى أن يعيد بوردالو في عام 1847 القياسات ويبيّن أن البحرين على مستوى واحد تقريبًا، ويشق فرديناند دي ليسبس القناة في عشر سنوات.

كان جومار، في غرفته الباردة، يتأمل خريطته للنيل. كل منعطف مرصود بالبوصلة والثيودوليت. كل قرية. كل معبد. كان وادي النيل يمتد على عشر أوراق من الشمال إلى الجنوب، بدقة تتيح لمهندس أن يتوقع أين سيذهب الماء لو أقيم سد.

وبعد قرن، سيرجع المهندسون البريطانيون الذين سيبنون أول سد في أسوان إلى مسوحات جومار.

دَوّن في يومياته تلك الليلة: «كل هذا العمل كي يتمكن مهندسو القرن القادم من إدارة مياه شعب لم نعرف كيف نحكمه.»

أطفأ الشمعة. كان لا يزال أمامه مئة وعشر أوراق عليه نسخها قبل أن تتمكن اللجنة من البدء في طباعة المجلد الأول من وصف مصر.

جاء أكتوبر بأولى العقبات الحقيقية في العمل.

وأعمقها لم يكن تقنيًا، بل كان مشكلة الهيروغليفية.

كان دونون يدرك ذلك كل مساء وهو يعيد قراءة ملاحظات يومه. لقد رسم مئات الأعمدة من النقوش في الكرنك وفي الأقصر وفي وادي الملوك. ونسخها بدقة حفار، علامة علامة، من غير أن يفهم منها واحدة. وصف مصر سينشر تلك الأعمدة. وآلاف القراء سينظرون إليها. ولن يعرف أحد ما كانت تقول.

كانت ثغرة جوهرية، ولم يكن ثمة علاج متاح.

وكان مارسيل قد صاغ ذلك بوضوح في اجتماع أكتوبر.

— علينا أن نعتمد أسلوبًا وصفيًا صريحًا. ما نراه، لا ما يعنيه.

كان وصف مصر في البدء فكرة لفورييه. وليس بالكامل. فقد أمر بونايرت بالنشر، ونظم جومار، وقدم دونون الصور. لكن فورييه هو من أدرك أولاً ما ينبغي أن يكونه هذا الكتاب. صرح. موسوعة حضارة بأسرها، كما وجدت.

كان سيكتب المقدمة التاريخية في شقته الباريسية على مدى عامين. مئة وستون صفحة كثيفة، خلاصة كل ما عُرف عن مصر منذ اليونانيين.

كان حجم الصور مذهلاً. كان لدى دونون دفاتره، ولدى جوليو وديفيلييه دفاترهما، سبعة وثلاثون ومئتان في المجموع. وكان لدى جومار مئتا ورقة من المسوح. وكان لدى جوفروا مئات اللوحات في علم الحيوان والنبات. وكان لدى المهندسين مخططات معمارية لكل أثر جرت زيارته. وبلغ المجموع أربعمائة وتسعين وثمانمائة لوحة، نحو ستين منها ملونة. قرابة أربعمئة حفار، على مدى عشرين عامًا. وعشرات الرسامين، كان كثير منهم قد شارك في الحملة.

لوحات بلغت من الضخامة أن مطبعة باريسية لم تكن تستطيع طباعتها. وكان كونتية، كونتية نفسه الذي صنع الأقلام في مصر، قد ابتكر قبل وفاته عام 1805 جهازًا خاصًا للقياسات الأشد تطلبًا، وقام خلفاؤه بتنفيذه. وشيّدت مطابع جديدة. وكانت بعض اللوحات تعطي ما يقارب مترًا مربعًا. واقتضى الأمر أوراقًا صنّعت

خصيصًا، تحمل علامة مائية مصر القديمة والحديثة. وبعض اللوحات استغرق العمل عليها وحدها عامين.

صدر المجلد الأول عام 1809. وصدر الأخير عام 1829. ثلاثة وعشرون مجلدًا، طبعت منها ألف نسخة على ورق مخطط ذي علامة مائية. أما الطبعة التجارية لدار بانكوك فكانت ستصدر ابتداءً من عام 1821 في سبعة وثلاثين مجلدًا.

سيرى فورييه المجلدات الأولى تصدر، ثم العمل وقد اكتمل. وسيموت عام 1830. وصف مصر أنشأ علم المصريات بوصفه فرعًا معرفيًا. وثق آثارًا دُمّرت منذ ذلك الحين، وألوانًا امّحت، ومواقع نُهبِت. ومكّن عالمًا فرنسيًا من وضع منهجه في فك الرموز. أما ما احتفظت به فرنسا حقًا من مصر فكان مئة وسبعة وستين عقلاً وأربعًا وتسعين وثمانمئة لوحة أنتجوها. وما سرّقتها، وكانت الكلمة دقيقة مهما كان التبرير، كان في لندن. التماثيل كانت في لندن. والمعرفة كانت في باريس.

كان ذلك العزاء الوحيد المتاح. وكان حقيقيًا.

أما الصعوبات الأخرى، كالاتساق بين لوحات فنانين مختلفين وتوحيد أسماء الآثار، فقد خلّت بإجراءات عمل وضعها فورييه بمنهجه المعتاد: واضحة، عملية، قابلة للتطبيق فورًا. جرى التحقق من كل لوحة على ضوء المسوح الأبعادية. واعتمدت الأسماء العربية الحديثة أسماءً رسمية، مع الأسماء اليونانية القديمة بين قوسين.

اقترح جومار قاعدة الأسماء. وطبقها فورييه.

في نوفمبر، شرع دونون في تحرير الشروح. وكان لا بد أن يرافق كل لوحة نص: الموقع، والأبعاد، وحالة الحفظ، والنسبة الأسرية المرجحة.

حرّر دونون الشروح المتعلقة بالمعابد الرئيسية التي استكشفها. وكان أسلوبه الأدبي، المتأثر بالنثر الرومانسي الناشئ في مطلع القرن التاسع عشر، يجمع بين الدقة الوصفية العلمية ومقاطع موحية تنقل الانفعال الجمالي والروحي الذي يُحسّ به عند التأمل في تلك الآثار المهيبة.

بدأ شرحه عن الكرنك بالأبعاد. سور طوله خمسمئة وأربعون مترًا وعرضه خمسمئة وخمسون، ثلاثون هكتارًا، أربع وثلاثون ومئة عمود في القاعة ذات الأعمدة، اثنا عشر عمودًا مركزيًا ارتفاع كل منها واحد وعشرون مترًا. ثم جملة: «إن الأثر الذي تحدّثه غابة الأعمدة هذه هو أثر فضاء تلتبس فيه العظمة الإنسانية بالعظمة الإلهية.»

شطب فورييه الجملة. وأعادها دونون.

كان فورييه يعيد قراءة الشروح ويشطب مقاطعها الغنائية. وكان دونون يعيدها. فيشطبها فورييه من جديد.

— نحن نمارس العلم لا الأدب، قال فورييه.
 — علم ماذا؟ أجاب دونون. هذه الآثار شُيّدت لتُحدث أثراً في من ينظر إليها. وإن لم ننقل هذا الأثر، فإننا نفهرس حجارة.
 لم يتراجع أحدهما. تركا النبرتين تتعايشان. الوصف سيكون الأمرين معاً. ولعل ذلك هو سبب بقائه.

كان فورييه يسكن في شارع الفوسيه سان فيكتور، على بعد عشرين دقيقة سيراً من قصر بوفيه.

كان يفكر في بونابرت. لا في غروره ولا في طموحه، وقد كَفَ منذ زمن بعيد عن معارضتهما، بل في أمر أبسط: هذا الرجل أطلق حملة غيّرت نظرة أوروبا إلى مصر، وغيّرت نظرة فورييه نفسه إلى التاريخ، ولا يعرف عنها على الأرجح إلا القليل. فبالنسبة إلى بونابرت، كانت مصر خطأ عسكرياً أصلحه انقلاب ناجح. أما بالنسبة إلى فورييه، فستبقى طوال حياته الفترة الأكثر كثافة التي عرفها.

كان ذلك الفرق بين من يصنعون التاريخ ومن يفهمونه. ونادراً ما يكونون الأشخاص أنفسهم.

توقف عند ناصية شارع سان جاك. كان شاب يبيع الصحف في البرد. اشترى واحدة دون أن يقرأها، وواصل سيره.

كان جومار، في غرفته بشارع كروا فوبان، لا يزال يعمل. كان قد استأجر غرفة أضيق مما يلزم، نصب فيها دفتاره وأدواته على طاولة مغطاة بورق الكلك. وفي تلك الليلة كان يضبط نظام الإسقاط الخرائطي الذي سيستخدمه لأطلس الوصف. كان وادي النيل يمتد على ثماني درجات من خطوط العرض، لكن عرضه لا يتجاوز قط عشرين كيلومتراً. وكان يحتاج إلى إسقاط يحفظ نسب هذا الشريط الخصيب الرفيع دون أن يشوّه المسافات أكثر من اللازم.

رسم خط الزوال الأول. ثم خطوط العرض. ثم مصب النيل في الشمال، عند رشيد. ثم مجرى النهر نحو الجنوب بتعرجاته التي كان يعرفها عن ظهر قلب لأنه قاسها على مدى ثمانية عشر شهراً.

كانت الخريطة تتشكل، خطأ بعد خط.

كان منتصف الليل حين وضع جومار قلمه. أطفأ المصباح بالنفخ بدل أن يتركه ينطفئ، عادة من مصر حيث كان الزيت غالباً، وبقي برهة في الظلام. خمسة وعشرون عاماً. لقد رأى الأهرامات، ومعابد طيبة، والصحراء، ومعركة، واستسلاماً، وقاس أشياء لم يقسها أحد قبله.

والآن كان يرسم خريطة في غرفة باردة.

لم يكن ذلك أقل شأناً. كان العلم الحقيقي يُصنع ليلاً، بالصبر. فكَرَّ في عبد الله، وكيل القناة، الذي قال له إن التعلم لا ينتهي أبداً لأن القناة أيضاً لا تنتهي من التغيير. فهم الآن ما كان يعنيه. كانت مصر هي الحصاد. وهذا هو الحب الذي يُدرَّس ويُخزَّن في المخازن ليجتاز الشتاء.

كان جوفروا سانت هيلير، في شارع السين، يكتب إلى كوفييه. كانا غريمين ويعلمان ذلك. لكن الرسالة التي كان يحرقها لم تكن رسالة منافسة، بل رسالة حقيقة. وصف له طيور أبو منجل المحنطة في سقارة، وتماسيح النيل، وقطط بوباستيس. ووصف له شيئاً لم يقله لأحد بعد. القناة التي جاءت خلال الشهور المصرية بأن الأنواع ليست ثابتة، وأنها تتغير بتغير بيئتها.

سيحاربه كوفييه. وسيتنازعان ثلاثين عاماً أمام الأكاديمية. وستكون تلك الخصومة من أهم الخصومات في التاريخ الطبيعي الأوروبي. وقد بدأت هنا، في غرفة في باريس، في ديسمبر 1802، برسالة إلى رجل كان يحبه ويحاربه في أبي واحد.

أغلق الرسالة وختمها. انتهت السهرة. وفي صباح اليوم التالي أرسلها بالبريد. كانت مصر تواصل فعلها عن بعد، في عقول من عبروها. لم يكن ذلك حنيئاً. كان شيئاً أعند وأنفع. طريقة مختلفة في رؤية الأشياء، لن تزول.

في ديسمبر، أبلغت وزارة المالية فوربيه بأن النفقات تجاوزت التقديرات. فالحقارون يمتصون أربعين في المئة من الميزانية. والورق الجيد عشرين. تقلص النفقات دون التضحية بالجودة أمر مستحيل. قال فوربيه ذلك للوزير. قال الوزير إنه سينظر في الأمر.

نظر. وأبقيت الاعتمادات. وصف مصر استمر.

أخرج جومار في غرفته تلك الليلة ملاحظاته عن الفيوم. مسح ري لم ينقلها بعد من أجل الوصف. قنوات، وتصريفات، ودورات السواقي. قضى أسبوعين هناك يقيس أشياء كان الفلاحون يعرفونها دون أن يدونها قط. نظام هيدروليكي قديم قدم الفراعنة، محفوظ بكامله في رؤوس الرجال الذين يمارسونه منذ الطفولة. دونه، وحوّله إلى دقائق وتصريفات، وصاغه بحيث يستطيع مهندسو القرن التالي قراءته. ولعل ذلك كان السبيل الوحيد لإنقاذه.

وضع الدفتر. في الخارج كانت باريس صامتة. في مكان ما، النجوم نفسها التي في الفيوم. والثيران نفسها على الأرجح، تدور في دوائرها.

في نهاية ديسمبر، كان عشرون مجلداً قيد الإعداد في وقت واحد. كان الاتجاه مرسوماً، والفرق في أماكنها.

في مساء 31 ديسمبر 1802، وضع دونون قلمه ونظر إلى الأنابيب النحاسية المصفوفة إلى جدار مكتبه. أربعة أنابيب نحاسية، مرقمة بالطلاء الأسود. في الأنبوب رقم واحد، دفناره الأقدم، الإسكندرية، والمسير في الصحراء، وأولى مناظر الأهرامات. وفي رقم ثلاثة، مسوح طيبة ووادي الملوك. وفي رقم أربعة، آخر الرسوم، التي أنجزت في القاهرة عشية الرحيل. نهض، وأخذ الأنبوب رقم واحد، وفكّ السدادة. أخرج الدفتر الأول. انفتح على رسم سريع. سطح السفينة جونون، بأشرعتها والأسطول في الخلفية، رُسم أثناء عبور مايو 1798. قبل أربع سنوات. رجل آخر، تقريباً. أغلق الدفتر، وأعاد إحكام السدادة. أعاد الأنبوب إلى الجدار.

في الخارج، كانت باريس تودع سنتها في الضجيج المألوف لمدينة كبيرة. الأجراس، والأصوات، وعجلات العربات على الحجارة المبللة. بعد ساعات قليلة، سيتحول عام 1802 إلى عام 1803. الوصف سيبلغ عامه الأول. وسيلزمه ستة وعشرون عاماً أخرى.

ترك اللهب يموت وخرج إلى الشارع. مشى برهة دون وجهة محددة، في برد الليل الباريسي الجاف. عند ناصية شارع غرونيل، توقف ورفع عينيه. كانت السماء صافية. كان الجبار هناك، فوق الأسطح، تماماً حيث رآه فوق الأهرامات في شتاء 1798.

النجوم نفسها. الليلة نفسها. بلد آخر، وحياة أخرى.

عاد إلى بيته، وجلس إلى طاولته، وفتح دفترًا جديدًا. وفي رأس الصفحة الأولى كتب التاريخ. ثم تحته: «معبد الكرنك، القاعة ذات الأعمدة. الأعمدة المركزية: 21 مترًا. القطر: 3 أمتار و50 سنتيمترًا. تيجان بردية الشكل.»

بدأ يحرر الشرح.

أما بونابرت فلم ينتظر. قنصل أول منذ برومير من السنة الثامنة، وقنصل مدى الحياة عام 1802، وإمبراطور الفرنسيين عام 1804. الرجل الذي قال لعلماء القاهرة إن عملهم سيبقى من بعده كان يبنّي شيئاً أكثر طموحاً وأكثر هشاشة: نظام حكم. وصف مصر سيصدر في ظل الإمبراطورية. وسيدبر دونون متاحفها. وما كانت الحملة عليه في الواقع، هشة وناقصة ومكلفة، كان يتحول في الرواية الرسمية إلى أساس من أسس المجد الوطني. هكذا كانت الأمور تستقر في نهاية المطاف.

لم يكن دونون قد أنهى عمله بعد. كانت الحملات سثستأف. ألمانيا، والنمسا، وبروسيا. ومع الحملات، المجموعات.

نهاية الجزء الثاني